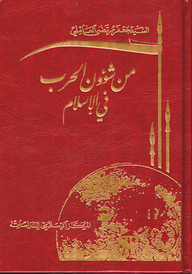
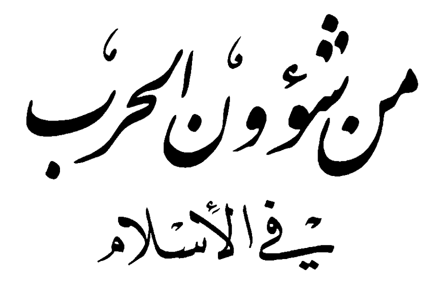
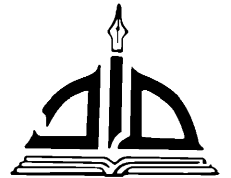
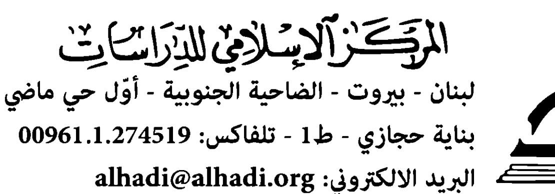

السيد جعفر مرتضى العاملي
من شؤون الحرب
في الإسلام
المركز الإسلامي للدراسات


من شؤون الحرب
في الإسلام

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م





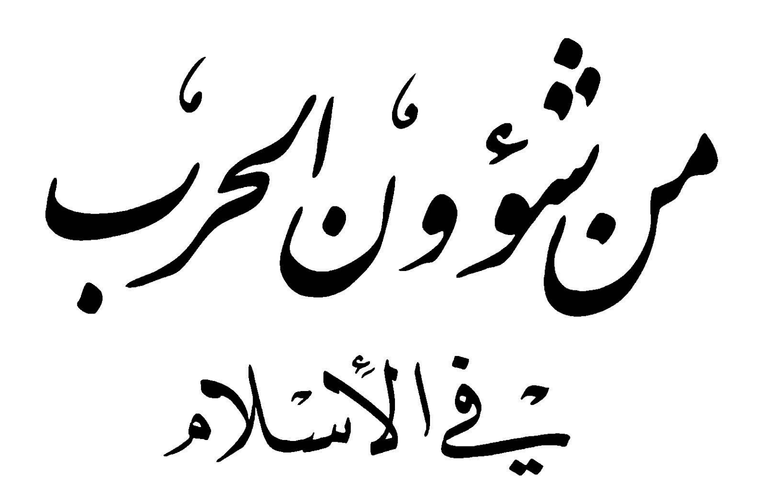
المركز الإسلامي للدراسات

لبنان - بيروت - الضاحية الجنوبية - أوّل حي ماضي

بناية حجازي - ط1 - تلفاكس: 00961.1.274519

البريد الالكتروني: alhadi@alhadi.org

المنشورات: بيروت - بئر العبد - سنتر الانماء 3 - 00961 70995421



السيّد جعفر مرتضى العاملي




بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين..

وبعد.. فإن الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، ليس مجرد حركات عبادية شكلية، يؤديها الناس، وينتهي دورهم عند هذا الحد، دون أن تحقق الصلة الحقيقية بين المخلوق وخالقه.. لأن الهدف من بعثة الأنبياء، ومن نصب الأئمة الهداة هو إعمار الكون، وإيصال الإنسان إلى كماله، وتحقيق غاياته الكبرى بالفوز بالسعادة في الدنيا، ونيل رضوان الله تعالى في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[1].. بل إن الأمر في ذلك لا يختص بالإنسان، بل يشمل سائر المخلوقات، فإنها كلها تسعى إلى كمالاتها.. كما هو معلوم.

وهذه أهداف جليلة وعظيمة، ودون تحقيقها أهوال جمَّة، ومشقات كثيرة وخطيرة، وعوائق كثيرة، لأن تحقيق هذه الأهداف يحتاج إلى ضبط حركة الإنسان، وانتظامه هو وسائر الموجودات التي تواكبه، ويفترض فيه أن

---

(١) الآية ٧٢ من سورة التوبة.

يتعامل بها ومعها في المسارات التي تنتهي إلى تلك الغايات.

وهذا الأمر يتطلب أيضاً: أن يكون الله تعالى هو المهيمن على سلوك الإنسان في جميع مجالات الحياة بدون استثناء، والتدخل في أخص شؤونه، وفي مشاعره، وأحاسيسه، وفي نواياه، وفي ما يفكر به ويعتقده، وفي كل نظرة، وبسمة، وفي اللمحات والخطرات، وكل حرف ينطق به، أو حركة يمارسها، حتى لو كانت عفوية في أحيان كثيرة.

ولا بد أيضاً: من أن يشعر بالسلطة والرقابة الإلهية المباشرة عليه، حتى وهو يأكل ويشرب، ويرتدي ملابسه، وفي نومه ويقظته، وأن يكون معه في أحلامه، وأوهامه.. وفي كل حين، وزمان، وفي كل موضع ومكان..

وطبيعي أن يتصادم هذا الحضور والالتزام بالدين وأحكامه في أكثر الأحيان مع أهواء الناس، وميولهم، ولاسيما حين يريد أن يحد من طغيان الشهوات، التي أرادها الله نعمة له، فإذا استعملت في غير ما رسم لها انقلبت إلى نقمة.. الأمر الذي يحتم المبادرة للمنع من استفحالها، وإعادة حالة التوازن إليها، لتنسجم مع حاجاته، ولتثمر له الخير والصلاح، والنجاح والفلاح، بدلاً من الشر والضرر، وتعريض راحته وسعادته ومصيره إلى أعظم الخطر.

ولكن هذا الإنسان الذي يحبذ التفلت من القيود، وتجاوز الحدود، منقاداً في ذلك لأهوائه، سوف يندفع لمواجهة أية محدودية يتعرض لها.

وإذا امتلك الإمكانات والقدرات، فسوف يوظفها في مشاريعه التفلتية هذه، ولن يَدَّخِر وسعاً في محاربة من يقف في وجهه، وسيكون طاغياً جباراً، شديد الأذى، بالغ الفتك في كل ما ومن يتصدى له، ولو بكلمة، فضلاً عما

سوى ذلك..

وهذا ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾[(١)].

ولن يقتصر الأمر على ذلك، بل هو سوف يحارب ويقتل الأنبياء والأوصياء، والعلماء، وأخيار الأمة، وأبرارها، وما أكثر الشهداء من هؤلاء جميعاً..

وهذا هو ما يدعو هؤلاء الطواغيت إلى جحود الحق، بالرغم من يقينهم بحقانيته، بل قد ينكرون البعث والحساب، ونبوَّة الأنبياء، ويرضون لأنفسهم بعبادة الأخشاب والأحجار على عبادة الله الواحد القهار.. وقد قال تعالى: ﴿**أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ**﴾[(٢)].

وهذه الشمولية للإسلام في نظامه العتيد، بما فيه من نظم إقتصادية وسياسية، ومن قيم وأخلاق، وحدود، وقصاصات، وتعزيرات، ومن نظام قضائي، ومن تعاليم إيمانية، ومن اعتقادات وتربويات، وما إلى ذلك.. إن هذه الشمولية تجعل التحدي يتعاظم، والخطر يكبر ويتسع ليستوعب مساحة البشرية كلها، لأن كل فرد يرى نفسه معنياً بمواجهة هذا الدين الذي يريد أن يمنعه من أن يتعدى الحدود، ويكسر القيود، ويقفز فوق السدود.. فالإسلام يريد حياتهم وسعادتهم، وهم يريدون هدمه وقتله، نكراناً منهم للجميل، وجحوداً للحق، وطغياناً وبغياً.

---

(١) الآية ٦ و٧ من سورة العلق.

(٢) الآيات ٣ ـ ٥ من سورة القيامة.

فكان لا بد للإسلام وأهله من الدفاع عن أنفسهم، وحفظ جهود الأخيار والشهداء وتضحياتهم، وكان لا بد أيضاً من أن يكون هذا الدفاع منسجماً مع تعاليم هذا الدين، محتفظاً بنبل الأهداف، وطهر الوسائل، وسلامتها من أية شائبة أو عائبة..

فكانت التشريعات للجهاد، وأساليبه، وطرائقه، وحدوده وقيوده فريدة وسديدة، ومنسجمة مع قيم الإسلام، وأهدافه، ومفاهيمه، وأخلاقياته.

وفي هذا الكتاب لمحات يسيرة من ذلك، أحببنا أن نضع ـ المجموعة الأولى ـ التي اشتمل عليها هذا الجزء بين يدي القارئ الكريم، فلعله يجد فيها شاهداً صالحاً على كلامنا هذا..

علماً بأننا لا ندَّعي لأنفسنا استيفاء، دلالات النصوص التي عالجناها.. كما لا ندَّعي العصمة في فهمنا لدلالاتها ومراميها..

والله نسأل أن يعيننا على أنفسنا، ويتجاوز عن تقصيرنا، وأن يهب لنا ما أسأنا فهمه، أو أخطأ قصده..

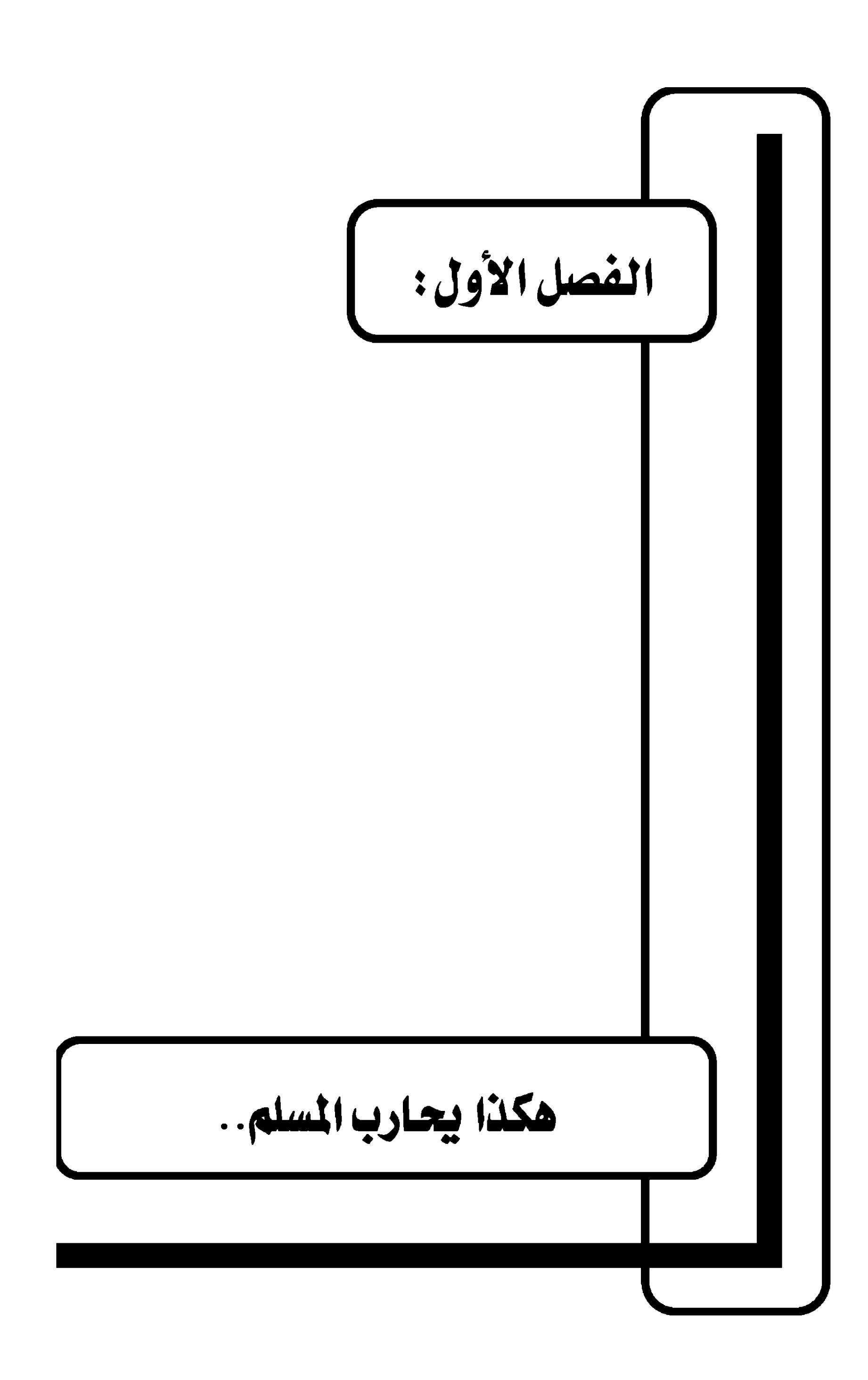
والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطيبين الطاهرين..

حرر بتاريخ ١٩/ ١٠/ ١٤٣٧ هـ. ق.

٢٤/ ٧/ ٢٠١٦ م.ش.

لبنان ـ جبل عامل ـ قضاء بنت جبيل ـ عيثا الزط (عيثا الجبل).

جعفر مرتضى الحسيني العاملي



الفصل الأول:

هكذا يحارب المسلم..

أولويات لا ندركها

الحشر إلى الجهاد أفضل من الجهاد:

ذكروا: أنه حين أراد «عليه السلام» المسير إلى صفين قال مالك بن حبيب ـ وهو على شرطة علي ـ وهو آخذ بعنان دابته «عليه السلام»: يا أمير المؤمنين، أتخرج بالمسلمين، فيصيبوا أجر الجهاد، والقتال، وتخلّفني في حشر الرجال؟!

فقال له علي «عليه السلام»: إنهم لن يصيبوا من الأجر شيئاً، إلا كنت شريكهم فيه، وأنت ها هنا أعظم غناء منك عنهم، لو كنت معهم.

فقال: سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين.. الخ..[1].

ونقول:

١ ـ إن من المشكلات التي تواجه الكثيرين هو الخطأ في تحديد الأولويات، فيتخذون مواقفهم على هذا الأساس.. وهذا أحد نماذج ذلك..

٢ ـ لعل مالك بن حبيب شعر بأن تخلّفه عن المسير مع الجيش، ولو لأجل

---

(١) صفين للمنقري ص١٣٣ وراجع: بحار الأنوار ج٨٨ ص٣٨١ وج٩٧ ص٤٥٥ ونهج السعادة ج٢ ص١٢٥ و ١٢٦.

جمع الرجال وإرسالهم إلى المعركة حرمان له من الجهاد، ومن ثواب المجاهدين. فشعر بالغبن، وتألم لذلك. ثم صارح إمامه بالأمر، كما رأينا.

٣ ـ إن مالك بن حبيب مزج مطالبته بالاستعطاف الذي لا يخلو من العتب الجميل، والاستدلال الجميل.

٤ ـ إن علياً «عليه السلام» أجاب مالكاً بما أسقط حجته، وربط على قلبه، وأشعره بالرضا إلى حد الاغتباط والاعتزاز بهذه المهمة التي أوكلت إليه.

فدل بذلك:

ألف: على أن على القائد: أن يعالج أمثال هذه الأوهام التي قد تفرض نفسها على عناصره، وتوجب لهم شعوراً بالإحباط بسبب هذه المظلومية الموهومة.

ب: عليه: أن يهتم بالأسس والمفاهيم والمنطلقات الفكرية لهم..

ج: عليه: أن يزيل من أنفسهم أي شعور بالغبن، ويعيد إليهم السكينة والطمأنينة.

د: عليه: أن يعمِّق الثقة بينه وبينهم، بما يضمن له طاعتهم ومحبتهم.

٥ ـ يلاحظ: أنه «عليه السلام» قد بيَّن لذلك الرجل: أنه قد أخطأ في تحديد الأولويات، وفي تقييماته للأمور، فظن أن مشاركته بالحرب، والطعن والضرب، لها المحل الأرفع في المقارنات بين المقامات، وقد أخطأ في ذلك.. وكاد أن يحرم نفسه من ثواب عظيم.

وذلك لأن المعيار في قيمة العمل هو مدى إسهامه في تقوية الأهداف النهائية للحرب.

٦ ـ إن إمداد المعركة بالرجال يمنحها القوة، ويزيدها قرباً من تحقيق الأهداف الكبرى التي هي تأييد الدين، وحفظ المسلمين، لأن تواصل المدد يكبت الأعداء، ويزيدهم رهبة، وخوفاً وخذلاناً، ويزيد الأولياء شجاعة، وإقداماً، ورغبة واندفاعاً.

وهذا ما أشار إليه علي «عليه السلام» بقوله لمالك بن حبيب: «وأنت ها هنا أعظم غناء منك عنهم، لو كنت معهم».

يضاف إلى ذلك: أن من يرسل المقاتلين إلى ساحات الجهاد سيكون شريكاً لأولئك الذين يرسلهم في ثواب كل جهد يبذلونه في سبيل الله.

أما المقاتلون في ساحة المعركة أنفسهم، فإن جهدهم محاصر، ومحدود بحدود، ومقيد بقيود.. فجهد المقاتل يبقى جهد فرد، قد يوفق لقتل أو جرح بعض أفراد العدو، أو إفشال جهدهم للوصول إلى بعض أهدافهم.. وقد لا يتمكن من ذلك. فيكون هو الشهيد أو الجريح الذي يفقد تأثيره في مسار الحرب، إن لم ينته به الأمر إلى أن يصبح عبئاً على المقاتلين.

أصول الحرب في سورة العاديات

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد..

قال تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾(1).

والكنود: هو الكفور.

ونقول:

تضمنت آيات سورة العاديات بياناً لأصول الحرب التي تنتهي بالنصر، وقد نزلت هذه الآيات في غزوة ذات السلاسل.

وسنحاول هنا التركيز على خصوص الآيات، من دون توسع في شرحها، مع الإشارة الموجزة إلى التطبيق العملي، الذي تجلى على يد علي أمير المؤمنين «عليه السلام»، حين تسنح لنا الفرصة لذلك، فإن بقي شيء من سيرة علي

---

(1) الآيات 1 ـ 6 من سورة العاديات.

«عليه السلام» في هذه الغزوة يحتاج إلى بيان.. فإننا سنشير إليه بعد الانتهاء من الكلام حول الآيات الكريمة المشار إليها، فنقول:

إذا أقسم الله بشيء دل ذلك على محورية ذلك الشيء في النطاق الذي هو فيه، فقد يكون كونياً كالشمس، والقمر، أو زمانياً، كالليل، والضحى والفجر، وقد تكون محوريته في الدين، والحياة كالقرآن، أو في إقامة الدين، وحفظ النبي والوصي، والمسلمين كالعاديات، وغير ذلك..

ولذا نرى: أنه تعالى أقسم في سورة العاديات بـ «العاديات» التي هي الخيل التي تعدو في سبيل الله لحفظ النبي والوصي، ودين الله، وجهود الأنبياء، فقد حققت غرضها هذا، وأثبتت محوريتها، وعظيم أثرها على مستوى البشرية في أدوار التاريخ كلها.

ولنبدأ الآن بذكر الآيات آية آية، وذكر ما نستفيده فيها.. قال تعالى:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾:

قلنا: إن الله أقسم بالخيل التي تعدو ـ أي تركض ـ في الجهاد في سبيل الله، والضبح: هو صوت أنفاسها الخارج من أجوافها، وليس بصهيل، ولا حمحمة، وقد دلت الآية على بعض أصول الحرب:

الأول: تحديد الهدف الذي يراد ضربه بدقة متناهية، ومعرفة خصوصياته، باستطلاع دقيق، وأن يكون الهدف محورياً فيما يرتبط بحسم الأمور، وأثر هذا الحسم في إسعاد البشرية كلها.. فإن ذلك يزيد من اندفاع المجاهدين، ومن رغبتهم في القتال.

والهدف هنا: هو اثنا عشر ألف مقاتل، يريدون قتل أساس ورمز الإسلام.

أعني النبي وعلياً.

والقسم بالعاديات بيان للهدف، وقيمته البالغة.

الثاني: اعتماد أسلوب الهجوم على العدو، وليس مجرد الدفاع، بمعنى أن ننتظر حركته، ثم نعمل على إفشالها ودفعها، فإن هذا غير سديد.. لأن المطلوب هو الهجوم، ولو بهدف الدفاع، فهناك اصطلاحان للهجوم:

أولهما: المراد بالهجوم: هو الابتداء بالقتال..

والمراد بالدفاع: رد هجوم العدو فقط. وهذا ليس مراداً هنا.

أولاً: لعدم جواز البدء بالقتال قبل الاحتجاج وبيان الحق.

ثانياً: كان النبي «صلى الله عليه وآله» يهاجم عدوه بعد إصرار العدو على الحرب، وكان يغزو العدو المعلن بالحرب قبل غزو العدو له.

الثاني: أن يكون المطلوب هو الدفاع بطريقة هجومية، أو يجب الهجوم بهدف الدفاع، ولذا كان «صلى الله عليه وآله» يقول: الآن نغزوهم ولا يغزونا(١). وهذا هو ما نريده هنا.

الأصل الثاني: الذي أشارت إليه الآية: هو السرعة في الحركة، أي أن المطلوب هو:

١ ـ المسارعة نحو المقصود إلى حدِّ العَدْو، فلا يكتفى بالمشي العادي والرفيق..

٢ ـ يجب أن تصل السرعة إلى أقصاها ـ بدليل قوله: ﴿ضَبْحًا﴾، التي هي

---

(١) بحار الأنوار ج٢٠ ص٢٠٩ ومسند أحمد ج٤ ص٢٦٢ وج٦ ص٣٩٤ .

صفة للخيل. أي تضبح ضبحاً، وهو: أن يعلو صوت أنفاسها من أجوافها.

٣ ـ يجب ان تصل السرعة إلى أقصاها منذ اللحظات الأولى.

٤ ـ أن يكون الهجوم قبل تجمع مقاتلي العدو، وقبل استقرارهم في مواقعهم القتالية.

٥ ـ اعتماد السرعة في مختلف التحركات، فالمطلوب هو عدم الاستقرار، والانتقال السريع في كل اتجاه..

الأصل الثالث: أن هذه السرعة تمهد لتبلور عنصر المباغتة للعدو الذي هو من أهم الأصول الحاسمة في الحرب.

وسيأتي: أن الأعداء قد ساعدوا على توفير هذا العنصر حين حدّدوا زمان الحرب بصباح اليوم التالي.. مع أن الصباح يمتد من طلوع الفجر إلى قبيل الظهر، وقد اختار «عليه السلام» ساعة الفجر الأولى ليفاجئهم بها، ولم يكن «عليه السلام» مسؤولاً عن تفريط عدوه وغبائه.

ومن فوائد السرعة والمباغتة ما يلي:

ألف: تُضعضع العدو.

ب: تُربكه، وتفقده السيطرة، وتستلب منه إمكانية معرفة من أين حصل ويحصل الهجوم، وإمكانية اتخاذ أي قرار، بل يصير يتعامل بردات الفعل، تبعاً لفعل المهاجمين.

ج: إنه يفقده الوضوح في مدى حركته وجدواها، ويعجز عن تحديد نتائجها.

د: يصبح زمام المبادرة بيد المهاجمين، ويصير من يهجمون عليه أسير خياراتهم.

هـ: تفقد عيون العدو القدرة على الرصد المجدي.

و: أن يسبق الجيش المهاجم الأخبار إلى العدو، وهذا يمثل صدمة نفسية قوية للعدو.. لاسيما مع ملاحظة: أن الطرق التي سلكها «عليه السلام» قد حجبت عن العدو أية معلومة، بل ربما بلغته معلومات تقول: إن علياً «عليه السلام» لم يكن يقصده، بل قصد بلاد العراق.

ز: إن أول كلمة في هذه السورة هي القسم بالعاديات، بما هي مظهر للسرعة القصوى.. وقد رأينا: أن الذين أرسلهم النبي مرة بعد أخرى كانوا يسيرون بمن معهم سيراً رفيقاً، وفي مواضع سهلة، وطرقات ممهدة، وكان عليٌّ فقط هو الذي سار بمن معه سيراً عنيفاً، وقوياً وسريعاً، وفي مناطق صعبة ووعرة، ومخيفة.

وقد جاءت الآية المباركة لتعظِّم وتثني على هذه السرعة التي استحقت أن تكون مورداً للقسم الإلهي، لعظيم بركاتها، وجليل أثرها في تحقيق غاياتها.

إن السير الرفيق الذي ساره الذين سبقوا علياً بأصحابهم كان يهدف إلى راحة المقاتلين، ويعطيهم الفرصة للتلذذ بالمناظر التي يمرون بها، من جبال وأحجار، وزراعات وأشجار، والتلذذ بالهواء الساري، والماء الجاري، والأطعمة، والتماس الراحة بالنوم تارة، وبالمسامرات أخرى.. الأمر الذي يزيد من تعلقهم بالحياة، وإخلادهم إلى عيشها الرغيد في العمر المديد.

فكانت نتيجة هذا الرفق هو الخنوع، والرهبة، والخضوع للخوف، والهروب المزري.. ولولا تدارك علي «عليه السلام» للموقف بعد ذلك، لحلَّت الكارثة بالإسلام وأهله.

وأما السير العنيف الذي اعتمده علي «عليه السلام»، فقد سبق الأخبار إلى العدو، وشغل من معه عن لذائذ الدنيا، وقلّل من قيمتها وأهميتها، وجعل كل همهم هو معالجة ما يواجهونه من تعب ونصب، والسعي للإسراع في إنجاز المهمة الموكلة إليهم.

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾:

١ ـ دلت هذه الآية أيضاً: على أن المطلوب: هو الوصول إلى الهدف المحدد، دون أن يشعر العدو، وهذا يتحقق بأمرين:

الأول: تحاشي العيون التي بثها في مختلف الإتجاهات.

ويتحقق هذا التحاشي بالأمور التالية:

١ ـ توفر الخبرة لدى قيادة العمليات بالواقع الجغرافي، ومعرفتها بالمسالك وخصوصيات الأودية والشعاب، وتقدير قدرات العدو على الاستفادة منها، وكيفيات ذلك، والمواقع التي يمكن للعدو أن يجعل العيون والكمائن فيها.

٢ ـ وجود عيون تبحث عن عيون العدو وتدبيراته وكمائنه في كل اتجاه.

وهذا قد فعله عليٌّ كما أمره الرسول «صلى الله عليه وآله».

٣ ـ سلوك طرق لا يبدو أنها تؤدي إلى مواضع تمركز العدو.

وهذا ما فعله عليٌّ أيضاً، حيث سلك نحو العراق، وسلك على غير طريق الجادة.

٤ ـ اعتماد الساتر المصطنع، مثل إثارة الغبار الكثيف في أجواء الميدان.

٥ ـ التضليل بالمؤثرات الصوتية.

وهذا هو التشويش السمعي من خلال صوت ضبح الخيل، ومن خلال إثارة الرعب بإطلاق صوت صهيل الخيل فجأة.

٦ ـ التضليل بالمؤثرات البصرية.

وهذه الأمور الستة، وإن كان بعضها ربما كان مشمولاً لبعضها الآخر، لكننا ذكرناها على هذا النحو لأجل التسهيل على القارئ والتوضيح له.

الثاني: تضليل عيون العدو وجواسيسه.

والتخفي عن عيونه، ولو بالساتر الطبيعي ـ وهو ظلام الليل ـ والسير في الأودية غير المتوقع سلوكه فيها، ولاسيما المحاطة بالجبال التي تحجب الرؤية أيضاً.. ومن ذلك: مسيره «عليه السلام» نحو العراق أولاً، فلا يستطيعون تزويد العدو بمعلومات لا يمكنهم ضمان صحتها.

وهذا ما فعله «عليه السلام» أيضاً، حيث كان يكمن في الأودية نهاراً، ويسير في الليل.. وقد أعنف في السير ليسبق الأخبار.

فلما وصل إلى قرب أولئك القوم نزل بأسفل جبل كان بينه وبين القوم، ثم سار إليهم فأخبرهم بنفسه، ودعاهم إلى الإسلام، فرفضوا، ثم تواعدوا معه إلى الصباح.

ويبدو: أن الوقت كان متأخراً.. وكان من الطبيعي أن ينشر القوم عيونهم من حولهم، فلما كان الفجر أمر بأن تكعم الخيل، وأن تسرع في سيرها إلى حد العَدْو. فالسير الحثيث، والعَدْو جهد ينشأ عنه الضبح الذي هو صوت أنفاس الخيل، حين تخرج من أجوافها، وهو صوت مبهم وغامض.. وإذا سُمِع في جوف الليل، فإنه لا يدل على حقيقة ما يصدر عنه، فقد تكون أصوات

سباع، أو فحيح أفاعي، أو صوت ترددات الرياح في الوديان والشعاب، أو صوت حفيف أوراق الأشجار، أو هذه الأمور كلها مجتمعة.

والإحتمال الأضعف أن يكون صوت ضبح الخيل، لأن العدو يعرف موضع نزوله «عليه السلام»، فلا يخطر على باله أن تُكعم الخيل.

أما المؤثرات البصرية، فهي قدح الشرر من حوافر الخيل، فإن هذه اللمعات النارية التي لا ترى إلا في الظلام، إذا رآها أي كان من الناس في تلك المناطق الصعبة المسالك، المنقطعة، فلا يظن أنها خيل تحمل رجالاً، وتعدو بهم، وتقدح شرر النار بحوافرها.. ولو كان ثمة رجال في الشعاب، فيفترض أن يخلدوا في الليل إلى الراحة، وأن يشعلوا نيراناً لحاجاتهم.

فهذا تضليل بصري يضاف إلى السمعي، كما قلنا.

ولو قيل: إن الحديث عن العاديات ضبحاً، والموريات قدحاً إنما هو عن حالة الاشتباك مع الأعداء بالهجوم عليهم.. لا في الطريق قبل الوصول إليهم.

فإننا نقول:

إن ذلك وإن كان غير ظاهر من الآيات، فإنها تشمل حالة الاشتباك، وتشمل حالة السلوك إليهم لمباغتتهم، ويمكن أن نتصور تطبيق الآيات على هذه الحالة، حالة الاشتباك أيضاً كما يلي:

إن المطلوب هو: أن تصاحب الهجوم مؤثرات قوية على معنويات العدو، وتكون بحيث تستثير مخيلته، لتضخيم الأحجام، بهدف تكريس الفشل النفسي لديه.. وذلك من خلال مشاركة السمع والبصر معاً في إنتاج التخيل المطلوب. وذلك يكون بأمرين، هما:

ألف: المؤثرات الصوتية التي توحي بشدة اندفاع المهاجمين، وبالسرعة، والجهد، والتصميم المستفاد من قوله: ﴿ضَبْحًا﴾ ومعناه: صوت خروج أنفاس الخيل من أجوافها، وهي أصوات غامضة ومبهمة تصدر عن جهد يبذل، ولاسيما إذا كان في مداه الأقصى..

ب: المؤثرات البصرية التي أشار الله تعالى إليها بقوله: «فالموريات قدحاً» وهي اللمعات النارية الخاطفة الناتجة عن اصطكاك حوافر الخيل بالحجارة، الأمر الذي يوحي من جهة بالشدة والقسوة، وبحجم الخطر الداهم، الذي سيواجهه العدو.

وهو أيضاً من الجهة الأخرى يبهج فرسان تلك الخيل، ويوحي لهم بالفتوة وبالقوة، ويرغبهم في تسريع حركتها، ويزيدهم حماسة واندفاعاً لبلوغ مقاصدهم بها.

وإنما تظهر هذه اللمعات في الليل، وفي الصباح الباكر، قبل انتشار النور.

٢ ـ إن الساتر الطبيعي الذي هو الليل، كما فهم من الآية بسبب ظهور اللمعات النارية، إذا ظهرت فيه هذه المؤثرات يؤدي وظيفتين:

إحداهما: حجب الرؤية عن العدو، فلا يتمكن من تقدير الموقف.

والثاني: هو يطلق العنان للمخيلة لتضخم الأمور، وتزيد الرعب، والخوف لدى العدو..

وللساتر دوره الحساس في جميع مراحل الحرب، ويستفاد منه فيها في أغراض مختلفة، سواء أكان ساتراً طبيعياً كالليل، والغابات، والكهوف، والوديان، أو مصطنعاً، مثل إثارة النقع (الغبار) في النهار من خلال سرعة

حركة الخيل..

وفي أيامنا هذه يستفاد من القنابل الدخانية، أو من الدخان الذي تطلقه بعض الآليات المعدة لأمثال هذه الأمور.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾:

وقد تضمنت هذه الآية الإشارة إلى أمرين أيضاً:

الأول: المفاجأة بالهجوم. وهذا أصل مهم من أصول الحرب.

الثاني: تحديد وقته بأنه وقت الفجر..

فبالنسبة للمفاجأة: وأخذ العدو على حين غرة، يلاحظ:

١ ـ أن المباغتة تؤثر على معنويات العدو، تهزمه نفسياً. والهزيمة النفسية له من أهم عوامل النصر عليه.

٢ ـ المفاجأة تفقد العدو خياراته، ويصبح تابعاً لخيارات مهاجمه.

٣ ـ وكما يفقد زمام المبادرة، فإنه أيضاً يفقد الإبداع والخلاقية، ويصير بانتظار الفعل من المهاجم، لكي يبادر إلى رد الفعل، ويدفع غائلته عن نفسه.

٤ ـ المفاجأة تربك العدو، وتوقعه في المتناقضات، وقد يشرع في أمر، ثم يتركه إلى غيره.

٥ ـ المفاجأة تنقل العدو إلى الأعمال الاحترازية التي قد تختلف في ماهياتها، واتجاهاتها، وفي حاجاتها وتحتاج إلى إعداد، وإلى إمكانات أكبر، واستعدادات أكثر..

٦ ـ وتزداد أعباء هذا التحرز بمقدار سرعة التحرك وتنوع الإمكانات

الهجومية لدى المهاجم.

لماذا الغارة صباحاً؟!:

وعن تحديد وقت الصبح موعداً للغارة نلاحظ أن فيه:

١ ـ الإستفادة من الساتر الطبيعي، وهو الظلام.

٢ ـ إن النور المنتشر ببطء شديد بعد الفجر لا يسمح بالرؤية المستوعبة الكاشفة لدقائق ما في الزوايا والحنايا، حتى من الراصدين والمراقبين.

ويقولون في أيامنا هذه: إن أجهزة الرؤية الليلية تتعطل، أو تقل فعاليتها في هذه الساعة، وفي ساعة أخرى عند الغروب أول الليل.

٣ ـ لا يستطيع العدو تحديد الأشخاص، هل هم له، أو عليه. وإذا ابتعد عن الشيء قليلاً زاد إبهامه.

٤ ـ إن هذا الساتر يجعل العدو عاجزاً عن تحديد المواقع التي اختارها مهاجمه لتمركز بعض قواته لأغراض معينة، ويمنعه من التدقيق في طرائقه القتالية، ومن معرفة أنواع الأدوات والوسائل التي يستفيد منها.

٥ ـ في وقت الصبح يشعر حراس المواقع بالتعب، ويحل عليهم النعاس، وتتضاءل لديهم درجة الحذر، لعلمهم بأن نور النهار زاحف إليهم، ومقبل عليهم، وأصبحت مهمتهم في نهايتها، أو تكاد.. فلا يقاومون سلطان النوم بشدة، بل يشتاقون إلى الحصول على غفوة سريعة.

أما سائر العناصر، فإنهم بين مستغرق في نومه، مستسلم لأحلامه، وبين مسترخ يتحسس في فراشه، وسائر ما حوله قدراً من الدفء والليونة، والنعومة، التي تفرض نفسها عليه، ويبقى هو توّاقاً إليها، وتبقى هي تجتذبه إليها.

ومن يكون في هذا الحال، فإن مفاجأته بالحرب تحت جنح الظلام بهذه الشراسة والعنف، والحركات المفرطة في سرعتها، ومع كثرة تقلباتها.

ومع فقدانه أي تصور مسبق عن المهاجمين، وقدراتهم، ووسائلهم، وأماكنهم، وغير ذلك مما قدمناه.

إن مفاجأة هذا المستسلم لأحلامه، والملتذ بتخيلاته وأوهامه سوف تجعله يغرق في حالة من الضياع، وفقدان التوازن والارتباك.

وسوف يصعب عليه أن ينتقل بأقصى سرعة من هذا الاسترخاء الثقيل إلى حالة قتالية لم يتهيأ لها، فهو لا يزال في لباس النوم، فيحتاج إلى لباس الحرب، وإلى آلة الحرب، وإلى تحديد موقعه فيها، وما إلى ذلك.. ليمارس أعنف الحركات القتالية، ويستوعب الواقع الجديد الذي يفرض نفسه عليه.

فكيف إذا انضم إلى ذلك كله المؤثرات الصوتية، التي تشي بأوضاع غامضة ومبهمة، والمؤثرات البصرية التي تشير إلى الشدة والثبات والقسوة، والحزم، وما إلى ذلك!

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾

قلنا: إن الساتر من أهم الأصول التي يجب اعتمادها في الحرب في أكثر حالاتها وتقلباتها..

وقد أشرنا إلى ذلك ضمن الحديث عن الساتر الطبيعي، وهو ظلام الليل. فإذا انضم إلى ظلمة الليل، قليل من النور، تتبلور الحاجة إلى ساتر آخر مساعد له، مثل الغبار، وهو النقع الذي تثيره الخيل بحوافرها، ونتيجة لسرعة حركتها، أو الدخان الذي تطلقه الآليات، أو القنابل الدخانية المعدة لذلك..

فإن الأمر يصبح أكثر تعقيداً على العدو، حيث إنه:

١ ـ يعطي الجو المزيد من الرهبة والضيق، والضغط النفسي بسبب شعوره بالحصار الذي لا حيلة له في دفعه.

٢ ـ يزيد من توقع المفاجآت، التي تأتي معها بالمزيد من الغموض الذي يكتنفها.

٣ ـ إن تمازج الغبار، أو الدخان مع الظلمة، لا يبقي لذلك النور الضئيل المتسلل إلى حنايا الظلمة أي أثر، ويخيم العمى المطلق على العدو، بالإضافة إلى الجهل المطبق بما يجري، بعد مفاجأته بالهجوم الصاعق.

٤ ـ يضاف إلى ذلك: أن الغبار يشبه الضوء لمن يراه من بعيد، ولكنه شبه ظاهري. إلا أنه في الواقع حاجز وحاجب.

٥ ـ إن ذلك يخرج كل جهاز رصد العدو من دائرة الجدوى نهائياً.

أما المهاجم، فلا يواجه أية مشكلة، فإنه ينفذ خطة رسمها، وعرف فصولها وأهدافها بدقة، وقسّم مهمات قواته، ووزعها بحيث لا تتأثر بالجو الذي فرضه على العدو.

٦ ـ إن هذا العمى المطبق يجبر العدو على هدر طاقات أكبر في تحرُّزه من مهاجميه، وإنما يتحرَّز مسبقاً مما يتوهم أنه ضمن خطة عدوه، وكثيراً ما يكون مجرد وهم باطل.. كما أن بعض وسائل التحرز قد لا تكون متوفرة لديه، أو يحتاج استحضارها إلى وقت وجهد.

٧ ـ لعل الحديث مرة أخرى عن الساتر للإشارة إلى شدة الحاجة إليه، فإذا فُقد الساتر الطبيعي، فعلى قادة الحرب أن يصنعوا ساتراً.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾:

والأصل الأصيل أيضاً هنا: هو الالتفاف والحصار التام للعدو، دون أن يبقى له أي منفذ، فإنه هو الهدف الأقصى والأهم، فإن لم يتيسر ذلك، فما تيسر منه. وهذا:

١ ـ يزيد في إرباك حركة العدو.

٢ ـ يسقط خطته عن الفعالية والتأثير، ويتحول من عنصر فاعل إلى القيام بردات الفعل بعشوائية وارتجال، وبدون تركيز..

٣ ـ يقطع عنه المدد بالمؤن، والعتاد، والرجال.

٤ ـ يصاب بالإحباط.

٥ ـ يدعوه ذلك للتفكير بالاستسلام.

٦ ـ إن ما عرف من أن التطويق والحصار، ينبغي أن لا يكون تاماً، بل يجب إبقاء ثغرة يمكن للعدو أن يتسلل منها، ليس له ما يبرره، بل هو خطأ.. وهذه الآية لم تشر إلى شيء من ذلك.. بل يكون هذا الأمر من أسباب رغبة العدو بالمطاولة والتسويف. وقد تتمكن قواته المحاصرة، أو التي أفلتت من إلحاق أضرار فادحة بأهل الحق، إن لم تكن سبباً للهزيمة لهم.

بقي سؤال يقول:

لماذا كان المحور في هذه الآيات الخمس هو خصوص العاديات، التي هي الخيل، ولم يكن المحور هو أصحابها مثلاً؟!

أو لماذا نحتاج إلى محور أساساً؟! ألم يكن بالإمكان تقرير هذه المعاني

التي أشرنا إليها بصورة عادية، ومن دون توسل بالقسم؟!

ونجيب:

أولاً: بأن التوسل بالقسم ضروري لإظهار أهمية الجهاد في سبيل حفظ الأمة وأنبيائها، وأوصيائهم، وجهودهم وتضحياتهم، ثم في صيانة الإنسانية، بل كل ما في هذا الكون من مخلوقات من الضياع والتلاشي..

وهذا يعطي: أن الإعلام المؤثر والقوي هو الذي يؤسس قواعد ومنطلقات للوعي لحقائق الكون والحياة، ويربط الأمور بركائزها، ويحدد نتائجها وآثارها، وفق ما لها من أثر في مسيرة التكوين، والحياة، وما لها من موقع في منظومة مخلوقات الله كلها.

ثانياً: إنه تعالى يريد أن يفهمنا: أن قداسة الغاية وطهرها وقيمتها، لا تقتصر عليها، بل تترشح منها إلى الأدوات، والوسائل التي أنتجتها، أو أوصلت إليها.. فإذا كان الجهاد لإقامة الدين واجباً، ومحبوباً لله، فلا يصح أن تكون وسيلتنا إلى هذا الأمر المحبوب لله ما هو مبغوض له سبحانه.

وإذا كان حفظ النبي والوصي مطلوباً ومحبوباً، فإن وسائل هذا الحفظ يجب أن تكون محبوبة لله، ولأجل ذلك كانت الخيل العادية في سبيل الله ذات قيمة وشأن عنده تعالى.. حتى لقد أقسم بها في سورة العاديات عدة مرات، فهي التي تعدو، وهي التي تضبح، وهي التي توري حوافرها النار، وتقدح الشرر، وهي التي تغير صبحاً، وهي التي تثير النقع، وهي التي تمكن فرسانها من الإحاطة بالأعداء، لكي تنتهي المعركة بنصر المحقين، وخذلان المبطلين.

القيادة الناجحة في غزوة ذات السلاسل

العاديات مكية أو مدنية؟!:

اختلفوا في هذه السورة.. هل هي مكية أو مدنية؟!

وقد استدل الفريق الأول على مكيتها بعدة أدلة، نذكرها، ونجيب عنها باختصار، وهي التالية:

الدليل الأول على مكية هذه السورة: قصر مقاطع آياتها.

ويجاب عنه:

أولاً: بأن في السور المدنية سوراً تكون مقاطع آياتها قصيرة أيضاً، مثل: سورة الرحمان، وسورة الزلزلة.

ثانياً: إن طول الآية وقصرها ليس مرتبطاً بمكان نزولها، بل هو مرتبط بموضوعها، وبالحالات والأوضاع التي يراعيها، وهو بصدد معالجتها، أو التعامل معها.

الدليل الثاني: إنها استندت إلى القَسَمْ، وكان هذا في السور المكية.

ويجاب:

إنها يستفاد من القسم ويستند إليه، لكسر عناد المخاطب أينما وجد هذا

المخاطب المعاند، وسواء جرى هذا الخطاب في مكة أو في المدينة، فإن القسم طريقة إقناعية، وليس لخصوصية في مكة أو في المدينة.

الدليل الثالث: إنها تناولت موضوع المعاد، وهذا إنما كان في السور المكية.

ويجاب:

أولاً: في السور المدنية أيضاً حديث عن المعاد، كسورة: الزلزلة، والرحمان.. وكان يوجد منكرون للمعاد في مكة، كما كان في أهل المدينة وفي سائر القبائل حولها، وكذا في سائر البلاد، مشركون، ومن ينكر المعاد.

ثانياً: إن الحديث عن المعاد في سورة العاديات ليس لأجل إثباته لهم، كما هو الحال في السور المكية التي كانت تستدل لهم تارة بخلق آدم، وأخرى بخلق عيسى، وأخرى بقدرته تعالى على تسوية بنان الإنسان، وما إلى ذلك.. بل الهدف هو تخويفهم منه، ومنعهم من الاستسلام للمغريات، والشهوات، وتحذيرهم من الإغراق في حب الدنيا، وضرورة النظر إلى مصيرهم في الآخرة.

أما القول بأن هذه السورة مدنية، فيدل عليه أمران:

أولهما: ما سيأتي، من أنها نزلت في قضية غزوة ذات السلاسل، التي كانت في السنة الثامنة بعد هجرة النبي «صلى الله عليه وآله» من مكة إلى المدينة.

ولعل الهدف من زعمهم أن السورة مكية استناداً إلى هذه الأدلة الواهية: هو إلقاء الشبهة حول نزولها في علي «عليه السلام» في هذه المناسبة الجليلة، جحوداً منهم لهذه الفضيلة العظيمة، التي أشبهت غزوة بدر وبني قريظة..

الثاني: إن هذه السورة كما يقتضيه ظواهر آياتها تقسم بخيل المجاهدين في سبيل الله. وما يكون منهم تجاه أعداء الله..

وإنما أذن بالجهاد بعد هجرة الرسول من مكة إلى المدينة.. إذ لم يكن للمسلمين في مكة حـول ولا قـوة، بل كانوا يُعذَّبون، وقتل بعضهم تحت التعذيب، كسمية وزوجها ياسر، وكانوا يُلاحَقون في الهضاب والشعاب، حتى اضطر قسم منهم إلى الهجرة إلى الحبشة..

فلو تحدثت الآيات عن الجهاد في مكة، لجعل ذلك ذريعة لإبادتهم، وقد قتلوهم من دون الدعوة للجهاد، فكيف يكون حالهم مع وجود دعوة كهذه؟!

ثم تحدثت الآية عن موانع الجهاد وكوابحه، مثل: الشح والطمع، وحب الدنيا، فعالجتها السورة بالتذكير بما سيواجهه هؤلاء في الآخرة من خيبة ومقت.

شأن نزول هذه السورة:

وعن شأن نزول سورة العاديات نقول:

١ ـ الرأي المعتمد: هو المروي عن أهل البيت «عليهم السلام»، من أن هذه السورة نزلت في غزوة ذات السلاسل، وسنذكر قصة ذلك.

٢ ـ زعم مقاتل: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» بعث سرية إلى حي من كنانة، فاستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري.. أحد النقباء.

فتأخـر رجوعهم، فقال المنافقون: قتلوا جميعاً، فأخـبر الله عنها بقوله: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً**﴾»(١).

ونقول:

(١) بحار الأنوار ج٢١ ص٦٦ ومجمع البيان (تفسير) ج١٠ ص٤٢٢ وأسباب نزول الآيات ص٣٠٥ .

أولاً: إن المنذر بن عمرو استشهد يوم بئر معونة، وكان أمير السرية. وهي قبل غزوة ذات السلاسل بزمان.

ثانياً: إن مقاتلاً متهم بالكذب، فقد قيل لأبي حنيفة: قدم مقاتل بن سليمان.

قال: إذن يجيئك بكذب كثير(١).

وقال **الجوزجاني**: كان دجالاً جسوراً(٢).

غزوة ذات السلاسل:

والنص المعتمد لهذه الرواية هو ما روي عن الإمام الصادق «عليه السلام»، وعن الإمام أبي جعفر «عليه السلام» في عدة نصوص نذكر هنا خلاصة عنها، وهي التالية:

بلغ النبي «صلى الله عليه وآله» أن قوماً اجتمعوا في وادي الرمل ـ أو الوادي اليابس ـ يريدون أن يبيتوا النبي «صلى الله عليه وآله» في المدينة.. فأرسل النبي «صلى الله عليه وآله» إليهم أبا بكر في جماعة من المسلمين.

وكانوا قد أقاموا رقباء على جباهم، فيرون كل جيش يقصدهم من جهة المدينة، فيأخذون حذرهم فلما خرج إليهم أبو بكر تحرزوا منه ولم يصل إليهم.

وفي نص آخر: خرجوا إليه فهزموه، وقتلوا من المسلمين جمعاً كثيراً..

فعقد «صلى الله عليه وآله» لعمر بن الخطاب، وبعثه إليهم، فهزموه أيضاً.

---

(١) قاموس الرجال ١٠ ص٢٢٤ عن ملحقات الصراح. وراجع حول كذب مقاتل: مرآة الجنان ج١ ص٣٠٩ والآلئ المصنوعة، وابن حجر.

(٢) قاموس الرجال ١٠ ص٢٢٤.

فأرسل إليهم عمرو بن العاص ـ بطلب من عمرو نفسه ـ فهزموه أيضاً، وقتلوا جماعة من أصحابه.

فأرسل إليهم علياً «عليه السلام»، وضم إليه أبا بكر، وعمر، وعمرو بن العاص، ومن كان معه في تلك السرية(١).

وفي رواية أخرى: أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: أرسلته كراراً غير فراراً، وشيعه إلى مسجد الأحزاب، فسار بهم «عليه السلام» نحو العراق، متنكباً الطريق، حتى ظنوا أنه يريد بهم غير ذلك الوجه، ثم انحدر بهم على محجة (أي طريق) غامضة، حتى استقبل الوادي من فمه. وكان يسير بالليل، ويكمن بالنهار.

فلما قرب من الوادي أمرهم أن يكعموا الخيل (أو يطعموا، أو يعكموا الخيل).

فعرف عمرو بن العاص: أنه الفتح، فقال لأبي بكر، وعمر، ووجوه السرية: إن علياً رجل غِرٌّ، لا خبرة له بهذه المسالك، ونحن أعرف بها منه. وهذا الطريق الذي توجه فيه، فيه كثير من السباع، وسيلقى الناس من معرتها أشد مما يحاذرونه من العدو.. فاسألوه أن يرجع عنه إلى الجادة.

فراجعوا علياً «عليه السلام»، فقال: من كان طائعاً لله، ولرسوله منكم فليتبعني، ومن أراد الخلاف على الله، ورسوله، فلينصرف عني(٢).

---

(١) بحار الأنوار ج٢١ ص٧٨ .

(٢) مناقب آل أبي طالب ج٢ ص٣٢٨ وبحار الأنوار ج ٤١ ص٩٢ وج٢١ ص٧٧ والإرشاد ج١ ص١٦٣

وفي نص آخر: إنه «عليه السلام» قال لهم: الزموا رحالكم، وكفوا عما لا يعنيكم، واسمعوا، وأطيعوا، فإني أعلم بما أصنع، فسكتوا، وسار بهم.

(وصارت السباع التي فيها كالسنانير)، إلى أن كبس المشركين، وهم غارون في وقت الصبح، فظفر بالرجال، والذراري، والأموال، فحاز ذلك كله، وشد الرجال في الحبال كالسلاسل.

ولذلك سميت غزوة ذات السلاسل(١).

وفي نص آخر: فقتل منهم مئة وعشرين رجلاً، وكان رئيس القوم الحارث بن بشر، وسبى منهم مئة وعشرين ناهداً(٢).

وفي نص آخر: سبى ست مئة وعشرين ناهداً(٣).

وكان بين المدينة وبين مكان الغارة خمس مراحل.

وفي نفس صبيحة هذه الغارة خرج النبي «صلى الله عليه وآله» فصلى بالناس الفجر، وقرأ سورة العاديات في الركعة الأولى، وقال: «هذه سورة أنزلها الله عليَّ في هذا الوقت، يخبرني فيها بإغارة عليٍّ على العدو».

وفي نص آخر: فلما رجع، واستقبله النبي «صلى الله عليه وآله» والمسلمون، قال له: «لولا أني أشفق أن تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في المسيح عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالاً لا تمر بملأ من الناس إلا

---

(١) الخرائج والجرائح ج١ ص١٦٨ وبحار الأنوار ج٢١ ص٧٧.

(٢) بحار الأنوار ج٢١ ص٨٤ وتفسير فرات ص٥٩٣ .

(٣) البرهان (تفسير) ج٥ ص٧٣٧.

وأخذوا التراب من تحت قدميك»[1].

وفي نص آخر: أنه «عليه السلام» لما بصر بالنبي «صلى الله عليه وآله» ترجل عن فرسه وأهوى إلى قدميه يقبلهما.

فقال له النبي «صلى الله عليه وآله»: اركب، فإن الله تعالى ورسوله عنك راضيان. فبكى «عليه السلام» فرحاً.

وفي نص آخر: ذكر أن الذين أخذوا الراية قبل علي «عليه السلام» هم أبو بكر، وعمر، وخالد..

وفيه: أنه «عليه السلام» نزل بأصحابه أسفل جبل، كان بينه وبين القوم، وأمرهم أن يكعموا دوابهم، فلما كان السحر أمرهم، فطلعوا الجبل، وانحدروا على القوم، فأشرف عليهم.

وقال لأصحابه: انزعوا عكمة دوابكم، فشمَّت الخيل ريح الإناث، فصهلت. فسمع القوم صهيل الخيل، فهربوا، فقتل وسبى، ونزلت سورة «العاديات» على النبي «صلى الله عليه وآله» ثم جاءته البشارة.

وفي رواية القمي عن الإمام الصادق «عليه السلام»: أن الذين هاجمهم «عليه السلام» كانوا اثني عشر ألف فارس، وقد تعاهدوا وتعاقدوا أن يموتوا كلهم أو يقتلوا محمداً وعلي بن أبي طالب.

---

(١) الإرشاد للمفيد ج١ ص١٦٤ و ١٦٥ وبحار الأنوار ج٢١ ص٧٧ - ٧٩ وراجع ص٨٣ و ٨٤ وتفسير فرات، والبرهان (تفسير) ج٤ ص٤٩٨ والمستجاد من كتاب الإرشاد ص١٠٣ وكشف الغمة ج١ ص٢٠٣ و ٢٣١.

وذكرت: أنه «صلى الله عليه وآله» أرسل إليهم، أبا بكر في أربعة آلاف. فسار بأصحابه سيراً رفيقاً. فلما وصل إليهم تهددوه، وأخبروه: أنهم إنما يريدون محمداً أو علياً فقط.

فأمر من حضره بالرجوع، فرفضوا، لكنه أصر عليهم حتى رجع وأرجع من معه.

ثم أرسل «صلى الله عليه وآله» عمر، فصنع كما صنع أبو بكر.

فأرسل «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام»: فسار بأصحابه سيراً عنيفاً، حتى خافوا أن ينقطعوا من التعب، وتفنى دوابهم..

فطمأنهم «عليه السلام»، وبشرهم بالنصر، كما قال له رسول «صلى الله عليه وآله».

ثم سار حتى بلغ مقصده، فأخبرهم بنفسه، ودعاهم إلى الإسلام، فرفضوا، ثم قالوا: موعدنا غداً ضحوة، وانصرفوا، فلم يجبهم «عليه السلام».

ثم أمر «عليه السلام» أصحابه: أن يحسنوا إلى دوابهم، وأن يقضموا، ويسرجوا.. ثم أغار على العدو بعد صلاة الصبح، ونصره الله عليهم نصراً موزراً، ولم يصب من أصحابه سوى رجلين.

وذكرت الرواية: أنه «صلى الله عليه وآله» خرج لاستقبال علي «عليه السلام» في جميع أهل المدينة، حتى لقيه على أميال من المدينة[١].

ونقول:

---

(١) تفسير فرات ص٦٠١.

قد بحثنا هذه الغزوة بشيء من التفصيل، في الجزء الخامس من كتابنا: الصحيح من سيرة الإمام علي «عليه السلام».. فمن أحب الاطلاع على ما كتبناه، فعليه بمراجعة ذلك الكتاب.

غير أننا نشير إلى أن ذكر خالد بدل عمرو بن العاص في بعض الروايات يثير احتمال أن يكون النبي «صلى الله عليه وآله» قد عقد لخالد، وسيَّره إليهم، فجرى له نفس ما جرى لهم، فيكون «صلى الله عليه وآله» قد استنفد جهود جميع الذين كان لهم اهتمام بنيل المقامات، وكان لهم محبون يسعون لمنحهم أوسمة كان غيرهم أحق بها..

ولا نريد أن نحتمل أن الرواة قد صحَّفوا بين اسمي عمرو بن العاص وخالد، فإن التصحيف لا مبرر له هنا، إذ لا تَشَابه بين الكلمتين في التلفظ، ولا تشابه بينهما ولا تقارب في رسم الخط، كما هو الحال في كلمتي قوس، وفرس، أو قبة وقتة، واثنان وابنان، وموج وفوج.

كما لا تقارب بين مخارج الحروف كما هو الحال بين الظاء والذال، والطاء، والتاء.

وقفات مع النصوص المتقدمة:

وبعدما تقدم نقول:

نستفيد من هذه النصوص التي تقدمت عن غزوة ذات السلاسل أموراً كثيرة، نوجزها كما يلي:

١ ـ لقد أرسل النبي «صلى الله عليه وآله» ثلاثة أو أربعة قادة قبل أن

يرسل علياً «عليه السلام»، وهم: أبو بكر، وعمر، وقد منحه النبي «صلى الله عليه وآله» وصف الإخوة لأبي بكر، وعمرو بن العاص..

وذكر في بعض الروايات خالد بن الوليد أيضاً.

وكلهم قد رجعوا مهزومين، وخائفين مرعوبين «يُجَبِّنُ بعضهم بعضاً»، كما في بعض النصوص، وهو نفس التعبير الوارد في غزوة خيبر أيضاً.

فأرسل علياً «عليه السلام»، فكان الفتح على يديه.. مع أن ذلك كله قد حصل في نفس المكان، ونفس الزمان، ونفس العناصر، ومع نفس العدو، ونفس الطريقة، ونفس الخطاب والجواب.

٢ ـ يلاحظ: أن القادة الذين أرسلهم النبي «صلى الله عليه وآله» لملاقاة العدو كلهم قد تعاقبوا على قيادة جماعة واحدة، وقد فشلوا جميعاً، وهُزموا وجماعتهم معهم عدة مرات، وحين تولى علي «عليه السلام» قيادة نفس هذه الجماعة من دون زيادة ولا نقيصة، سجل نصراً عظيماً. كما رأينا.

وهذا أمر عجيب: أن تهزم جماعة بعينها عدة مرات مع عدة قادة، بالرغم من رفقهم بها، ثم تنتصر أعظم نصر حين وجدت القائد الحازم والعارف بالأمور، والواثق بربه ونبيه.. مع أن كل ذلك قد حصل خلال شهر أو شهرين.. ولم يختلف الزمان، ولا المكان، ولا العدو، ولا غير ذلك.. وقد وجهت إليها نفس الوصايا، وصدرت إليها نفس الأوامر.

كما أن ما جرى لها مع القوم كان متشابهاً أيضاً، وكانت النتيجة نفسها، وهي الرعب والهرب والخيبة.

ولو أن الهزيمة حصلت مرة واحدة، لأمكن تبريرها بأنها كبوة جواد،

أو غفلة عارضة، أو غير ذلك.. لكن توالي الهزائم ثلاث أو أربع مرات قد سحب الذرائع الواهية، وأصبح لا بد من الاعتراف بالفشل، ثم جاء النصر المؤزر على يد أمير المؤمنين، بالرغم مما ظهر من حزمه «عليه السلام»، ورفق الآخرين، بل هو قد واجه كبار القوم بحزمه هذا، فما بالك بغيرهم.

٣ ـ إن هذا يعطي: أن مسؤولية الهزيمة في المرات السابقة تقع على القادة بالدرجة الأولى، وأن النصر الذي حصل كان سببه أيضاً القائد. وأما العناصر، فإنهم إذا استفيد منهم بصورة صحيحة ينتصرون، وإذا استفيد منهم بصورة خاطئة يفشلون.

٤ ـ ما تقدم يفيد: أنه لا يجوز تحميل العناصر مسؤولية الهزيمة قبل التحقيق في الأمر، إذ كما أن النصر قد يكون بسبب القائد، ومعه العناصر، قد يكون الأمر بالعكس..

٥ ـ إن توالي الهزائم عدة مرات لنفس المجموعة يجعلها في موقع الصدمة والإحباط، ويجعل علاج الآثار صعباً.

٦ ـ إن استبعاد المجموعة واستبدالها بغيرها يكرس شعورها بالإحباط والفشل.

٧ ـ إن علاج آثار الهزائم يمكن أن يكون بتحصيل النصر للمهزوم، لا باستبعاده، أو بإفهامه أن العيب ليس في الجماعة، وإنما في قادتها، من حيث علاقتها بهم، وخبرتها الحربية، ومعرفتها بالمسالك، وسياستها مع عناصرها، ونظرتها إليهم، وإلى قدراتهم، وآمالهم.

ولكن السياسة الحربية لعلي «عليه السلام»، وعزمه، وخبرته، وثقته بربه،

وبغير ذلك قد جعل كل إعدادات الأعداء ركاماً وحطاماً.

وهذا ما فعله النبي «صلى الله عليه وآله» وعلي «عليه السلام» في هذا المورد وغيره. كما في خيبر، وغزوة بني قريظة.

٨ ـ إن الهزيمة المتكررة لجماعة بعينها تزيد من جرأة العدو عليها، وشراسته ضدها. فلا بد من زيادة قدراتها لمقاومة هذه الشراسة.

٩ ـ إذا كان النصر يكون بالقائد أكثر مما يكون بالعناصر، فلا بد من إعداد قادة أكفاء ذوي خبرات قيادية عالية ومميزة، ولا تكفي الخبرة القتالية وحسب، ولا تكفي الشهادات الجامعية بالكفاءة في العلوم العسكرية، كما لا تكفي الأوسمة التي تمنح.. إلا بعد دراسة مبررات منحها.

١٠ ـ إن النبي «صلى الله عليه وآله» لم يرسل علياً «عليه السلام» مع القادة الذين سبقوه، فعادوا منهزمين.. بدليل ما ورد، من أنه «صلى الله عليه وآله» لم يؤمِّر أحداً على علي «عليه السلام» طيلة حياته.

ولكنه «صلى الله عليه وآله» حين أرسل علياً ـ كقائد ـ جعل القادة السابقين تحت إمرته، وأرسلهم معه، ليروا كيف أن الله تعالى ينصره على أعدائه.. لكي تكون الأمور واضحة، وتتطامن النفوس الجامحة.

١١ ـ ينبغي أن يراعى في القائد مواصفات، نذكر منها:

ألف: الشجاعة والجرأة.

ب: والقدرة على منح عناصره الثقة به، والمحبة له.

ج: وأن يمنحهم هو محبته وثقته.

د: وأن يشعروا بعطفه، وأنه يؤلمه ما يؤلمهم، ويهمه ما يهمهم.

هـ: وأن تكون لديه القدرة على معالجة حالات الإحباط لدى عناصره.

و: وشحنهم بالقوة الروحية، مثل: الثقة بالله، والتأسي بالرسول، والأئمة، والارتباط به تعالى وبهم، والتسليم له ولهم، والرضا بما يرضيهم، لكي يتحول ضعفهم إلى قوة، وهزيمتهم إلى اندفاع، وقلقهم إلى سكينة وثبات.

ز: وأن يجعل عناصره يتلمسون فيه هذه المعاني، وأنه:

١ ـ قوي.

٢ ـ شجاع.

٣ ـ خبير، وبصير، وعارف.

٤ ـ ثابت.

٥ ـ واثق، ومطمئن.

٦ ـ مدير.

٧ ـ مدبر.

فإن تلمسهم كل هذه المعاني فيه لا بد أن يترك آثاراً إيجابية فيهم.

في الطريق إلى العدو:

لقد أمر النبي «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» حين مسيره: أن لا تفارقه العين.. مما يعني: أن عيونه «عليه السلام» كانوا يكشفون له الطرق والمسالك، ويخبرونه بكل ما يرونه فيها، ليضمن عدم وصول خبر مسيره إلى الأعداء ولكي لا يقع في كمين.

ومما جرى في هذا المسير نلاحظ:

١ ـ أن علياً «عليه السلام» حين سار بالمقاتلين نحو العدو لم يقصدهم مباشرة، بل سار إلى جهة العراق حتى ظن الذين معه أنه لا يقصد تلك الجماعة.

وبذلك يكون «عليه السلام» قد ضمن عدم قدرة عيون الأعداء، والمتعاملين معهم على إخبار الأعداء بأن علياً يقصدهم.. لقيام احتمال أن يكون قاصداً جماعة أخرى أمره النبي «صلى الله عليه وآله» سراً بقصدها.

٢ ـ إن ذلك يدل على أنه «عليه السلام» لم يُطلع أحداً من أصحابه على مقصده الحقيقي، وأنهم لم يقدروا على انتزاع أية إشارة بقول أو فعل على خطته.

مما يعني: أنه لا بد للقائد من أن يبالغ في التكتم على نواياه، وأن لا يبوح بخطته إلا لشركائه في الجهد الحربي، مع الاقتصار على ما يعنيهم دون سواه. وهذا هو التطبيق العملي للقاعدة المروية عنه «عليه السلام»: «إن لكم عليَّ أن لا أخفي عنكم سراً إلا في حرب»[1].

٣ ـ إنه «عليه السلام» قد سار بمن معه في مسالك وعرة، وصعبة.. فأدرك عمرو بن العاص: أن علياً سوف يظفر بالأعداء، فحاول التشويش عليه، وتأليب من معه ضده. وذلك حسداً منه له وبغياً.

فاتخذ «عليه السلام» من الذين حاولوا التشويش، وتحريك الناس موقفاً

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج٣ ص٧٩ والأمالي للطوسي ج١ ص٢٢١ و (ط دار الثقافة ـ قم) ص٢١٧ وصفين للمنقري ص١٠٧ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٧٦ و ٤٦٩ وج٧٢ ص٣٥٤ وميزان الحكمة ج١ ص١٢٤ وأعيان الشيعة ج١ ص٤٦٣ والمعيار والموازنة ص١٠٤ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٧ ص١٦.

حاسماً وحازماً، فأمرهم:

أولاً: أن لا يتدخلوا فيما لا يعنيهم.

ثانياً: أخبرهم أنه أعلم بهذه الطرق منهم.

ثالثاً: أخبرهم بأنه يعلم ما يعلمون، وما لا يعلمون.

رابعاً: أمرهم أن يطيعوا ويلزموا رحالهم.. وإلا، فإن على من يرفض الالتزام أن يرجع من حيث أتى.

فإن المسموح به: هو إبداء الرأي لأصحاب القرار، دون سواهم، وينتهي الأمر عند هذا الحد.

ويعطينا هذا الإجراء الحاسم:

ألف: وجوب التصدي للذين يحاولون إثارة البلبلة، ويدعون الناس إلى التمرد، ويثيرون الشكوك والشبهات، ولو اتخذوا لباس الناصح المشفق.

ب: يجب أن يقتصر التصدي على عزل مثيري الشغب عن غيرهم، وفرض الإقامة عليهم في الأماكن المخصصة لهم.. أو مغادرة المعسكر.

ج: لا يجوز السماح للعناصر بالتدخل فيما لا يعنيهم. وكون الأمر لا يعنيهم إدانة قانونية لهم، فلا مجال للسماح به.

د: دل هذا الموقف: أن على القائد أن يتعامل مع هذا النوع من الناس بحزم، وبسرعة ولا يفسح المجال للنقاش والأخذ والرد، وتداول الموضوع أبداً..

هـ: إن هذا يعطي: أن على الجميع أن يلتزموا بأوامر القائد، والكون في المواقع التي يحددها لهم.

و: إن إفساح المجال للتشكيك في قرارات القيادة يضعف الثقة بها،

وبقراراتها، وأهليتها.

ز: إذا عرف القائد: أن المثيرين للشغب والشبهات هدفهم إضعاف هيمنته، وإظهار علمهم وجهله، وقوتهم وضعفه.. فعليه أن يعلن بأنه يتحمل المسؤولية عما يقدم عليه، وان ضمانته هي علمه بما علموا، وبما جهلوا. وهذا يفقدهم ذريعتهم للتضليل، وإثارة الشبهات..

ح: على القائد أن يدرس طبيعة عناصره ويعرف ميولهم وتوجهاتهم وسوابقهم التي لها ارتباط بالمهمات الموكلة إليهم..

٤ ـ على القائد أن يكون عارفاً بجغرافيا منطقة العمليات، ومسالكها، وجبالها، ووديانها وكهوفها، وأنهارها، و.. و.. بصورة صحيحة ودقيقة، وأن يعرف أيضاً: المواضع التي يمكن أن يستفيد منها العدو لزرع الكمائن، أو لوضع العيون على المسالك الفردية والجماعية.

٥ ـ على القائد أن يضع في حسابه كل الاحتمالات التي يمكن أن يلجأ إليها العدو في تدبيراته، وفي استفادته من قدراته القتالية، ووسائله، وأن يعد العدة لمواجهة ذلك كله.

٦ ـ إنه «عليه السلام» بسلوكه في المسالك الوعرة قد ضيع على عيون العدو فرصة كشفه من مواضع رصدهم للمسالك التي يشرفون عليها من رؤوس الجبال.

٧ ـ إنه «عليه السلام» كان يكمن النهار، ويسير في الليل، فدل ذلك على لزوم التخفي.

٨ ـ أمر علي «عليه السلام» أصحابه ليلة الغارة بثلاثة أمور، هي:

أولاً: أن يحسنوا إلى دوابهم، بإنزال أحمالها عنها، ووضعها في مكان مناسب يقيها الحر والبرد، وإظهار الرفق بها، والمحبة لها بالمسح على سوقها وأعناقها.. فإن للحيوانات نفوساً ومشاعر، وهي تحب وتبغض، وتألف وتحقد، كما نراه في الإبل، التي تتحين الفرص لتنتقم لنفسها ولو بعد أيام، ممن أساء إليها.. والكلب أيضاً يدافع عن صاحبه وأهل بيته، ويخضع لهم، ويدفع ويهاجم كل غريب يقترب منهم.. وربما مات في هذا السبيل، فليس الحيوان مجرد آلة تتحرك حسبما يريد صاحبها، وخصوصاً الخيل الأصيلة، فإن لها رفقاً به، ومحبة له يعرفها أصحابها منها.

وقد وصفت الروايات ما فعله جواد الحسين حين استشهاد الإمام، وحديث الهدهد، وذكائه، وفهمه، ومشاعره، وإيمانه، والنملة في القرآن شاهد آخر على ما نقول.

ثانياً: أن يقضموا دوابهم، بتقديم العلف لها، فإن ذلك يعطيها قوة ونشاطاً، ورضى، وسكينة، ويسلس قيادها، فلا تتمرد على صاحبها، ولا تعانده حين تصادف بعض ما تسد به جوعتها.

وربما يستفاد من هذا ضرورة النظر في حاجات آليات العمل، ورفع نقائصها، وتعاهدها بكل ما يزيد في جودتها.

ثالثاً: أن يسرجوا دوابهم، إعداداً لها للحركة بمجرد الحاجة إلى ذلك، فلا ينشغل المقاتل بإصلاح حال دابته، في اللحظة التي يحتاج فيها إلى دفع عدوه، أو إلى مباغتته.

وإسراج الدابة يهيئ الدابة نفسها إلى العمل، ويخرجها من حالة

الاسترخاء إلى الاستعداد.. بل إلى أشد حالات النشاط والحركة، فيسهل عليها أن تبادر إلى الحركات السريعة في أية لحظة، ولا يوجب ذلك لها إرباكاً، ولا تحصل منها أية اختلالات، ولا يظهر منها أي ضعف، أو عدم مرونة.

ونستفيد من ذلك أيضاً:

ألف: ضرورة تهيئة وإعداد وسائل الحرب مسبقاً.

ب: أن تكون هذه الوسائل في أفضل حالاتها.

ج: أن يتفقد مدى جودتها وفاعليتها، ويتعرف على الفاسد، أو ما يحتاج إلى ترميم وإصلاح منها.. فيبادر إلى إصلاحه، أو استبداله..

د: أن يبلغ إعدادها وتأهيلها مراحله النهائية لتصبح صالحة للاستعمال الناجز.

هـ: إن التأخير في الإعداد قد يواجه بظروف تمنع منه في اللحظات الأخيرة، أو تؤدي إلى عدم اكتماله، أو إلى عدم الدقة فيه، فتبقى فيه فجوات، أو أخطاء واختلالات.

٩ ـ إنه «عليه السلام» حين قرب من الوادي الذي فيه العدو أمر أصحابه أن يكعموا الخيل، لأن الأصوات هي التي تدل على أصحابها في الليل، فالمطلوب هو: أن لا تصهل ولا تحمحم الخيل قبل أن تشرف على العدو، لكي لا يسمع العدو صهيلها، فيحترس منهم.. وللأصوات في الليل مدى أوسع وأبعد.

مما يعني: أنه لا بد من التسلل إلى المواقع المتقدمة مع العدو بمزيد من الحيطة والحذر، على أن لا تصدر عنهم الأصوات ذات الدلالة الواضحة

على وجودها، ومعرفة أحوال مصادرها، وتحديد خصوصياتهم، وصهيل الخيل، وحمحمتها من هذا القبيل..

فيجب الاستعاضة عنه بأصوات غامضة ومبهمة وتضليلية، مثل: صوت ضبح الخيل الذي لو سمعه العدو قد تذهب الأوهام به في كل اتجاه.. ويكون وسيلة تضليل له.

ثم إنه حين أشرف على القوم أمرهم: أن ينزعوا عنها كعامها، لكي تصهل في لحظة كان العدو فيها نائماً، فيستيقظ مذعوراً، ويأخذه الرعب الذي هو من أعظم عوامل النصر..

والكعام: هو الحديدة التي توضع معترضة في فمها لتمنعها من الصهيل والحمحمة.

١٠ ـ وحين بلغ علي «عليه السلام» بمن معه إلى أماكن قريبة من الأعداء، واستقر بمن معه حيث يريد، دعا الأعداء إلى ترك القتال، وإلى الإيمان بالله ورسوله. فأبوا إلا القتال، وأصروا على قتل النبي والوصي، وحددوا هم ساعة البدء. فأصبح له الحق بقتالهم..

١١ ـ إن علياً «عليه السلام» لم يظهر لهم موافقته على تحديد ساعة الصفر، بل اكتفى بالرجوع إلى موقعه الأول.

وهذا يعطي: أن العدو إذا أصبح محارباً، لم تعد لقراراته قيمة، إلا إذا صرح الطرف الآخر له بالموافقة عليها.

١٢ ـ وحيث لم يستجب «عليه السلام» لرغبة عدوه، فقد أعدَّ واستعدَّ له، وهاجمه في اللحظة التي اختارها هو «عليه السلام».

١٣ ـ لا يحق للعدو أن يعترض على هذا، بأن يدَّعي نقض العهد أو الاتفاق، إذ لم يكن هناك عهد، بل هو اقتراح من الأعداء، ولم يأتهم جواب عليه.. ومثل هذا يدخل في المأثور من كون الحرب خدعة.

١٤ ـ إن ما قاله «عليه السلام» في جوابه على تهديد المشركين يدلنا على لزوم رعاية ما يلي:

ألف: لا ينبغي تهديد العدو بالحرب، بل ينحصر الرد على تهديده بها، بالتأكيد على العزم على رد العدوان.

ب: يجب عدم تهديد العدو بما نملك من قوة ذاتية، بل نرد على تهديده: بأننا نستعين بالله تعالى عليه، وبملائكته وبالمسلمين. أي أن علينا أن نفرض عليه هذا الغيب الذي نؤمن به.. كما أن علينا أن نشرك معنا جميع المسلمين، ليعلم أننا ننطلق من قضية إيمانية، عقائدية يشاركنا فيها، وفي جهدنا من أجلها، وفي التضحيات في سبيلها كل من يحمل هذه العقيدة، ويدين بدين الإسلام.

والعدو يعلم: أنه إنما يقاتلنا بمن يرى مصلحته الدنيوية في قتالنا، وأما الآخرون فلا يضمن مشاركتهم، أو ليس لديه ما يضمن أن يكونوا يرون أن قتالنا يجلب لهم نفعاً. أو يدفع عنهم ضراً.

ج: ينبغي التركيز على أن كل ما لدينا من قوة وحول فهو من الله، فربنا يحبنا، وهو راع وحام لنا، فليعودوا هم إلى أنفسهم ليروا إن كان حالهم يشبه حالنا، أو أنهم متروكون لجهدهم، وقدراتهم الذاتية.

د: علينا أن نذكِّر العدو بما لا يستطيع إنكاره من هذه الرعاية الربانية،

والنصر الإلهي الذي حبانا الله تعالى في العديد من المناسبات.

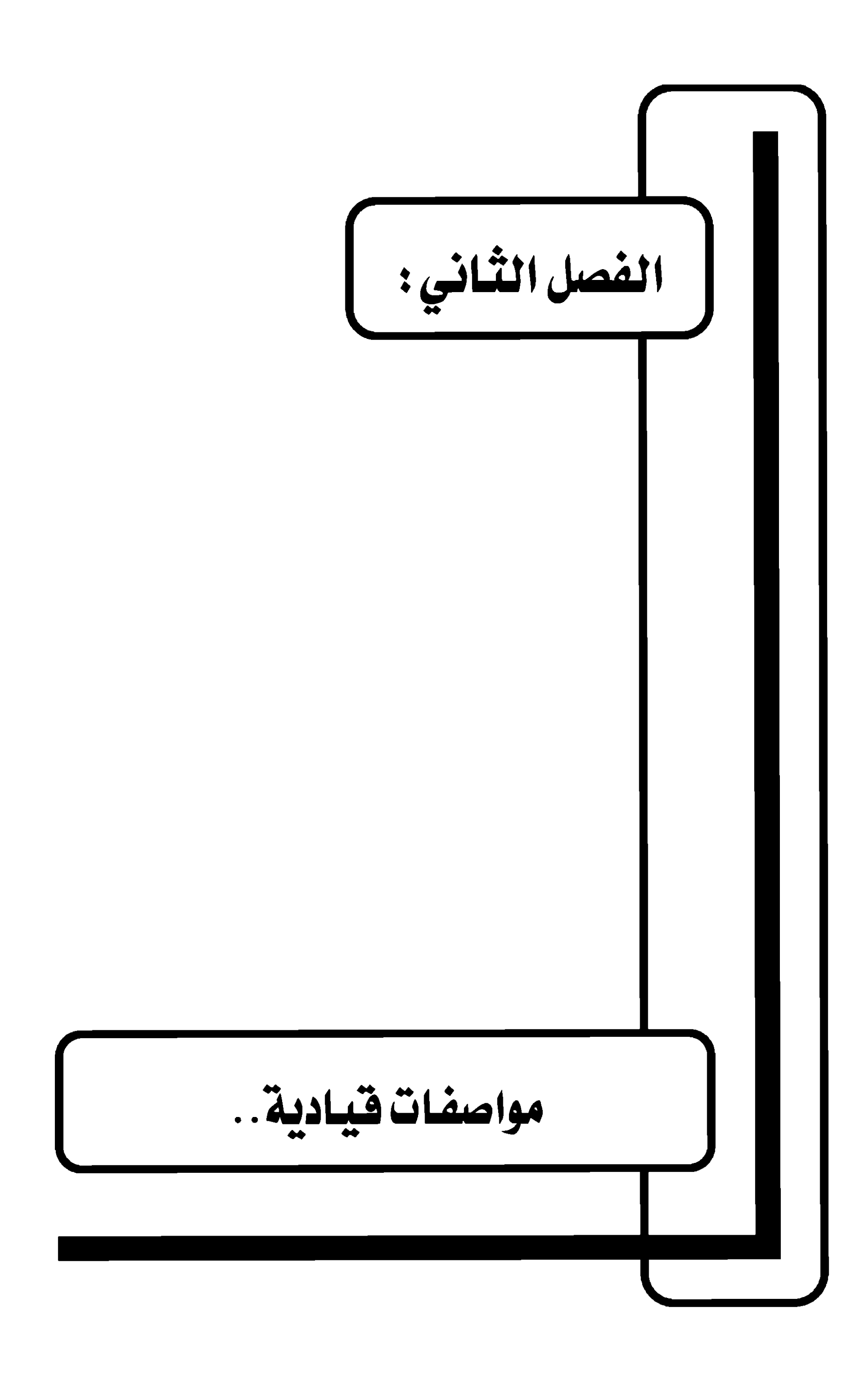
هـ: على القائد أن يثني على سائر من ساهم في تحقيق الإنجازات، وقدم التضحيات من سائر المسلمين، من حضر منهم، ومن غاب.. فإن هذا يسهم في إذكاء الرغبة لديهم، بأن يمنحه الله النصر، وأن يشاركوه في الثواب والأجر، ويكون موضع اعتزازهم، والفخر.

و: إن ربط الأمور بالله ورسوله، واعتبار جهدهم امتثالاً لتكليف إلهي يمنح المجاهدين الصبر، رغبة في الثواب والأجر.

أما من يقاتل من أجل مكسب دنيوي، فهو لا يريد أن تبلغ الأمور حد التضحية بالنفس، أو المال أو الولد.. لأنه يقاتل من أجل حفظ ماله وبقاء ولده، وصون نفسه.

١٥ ـ في غزوة مؤتة أمر النبي «صلى الله عليه وآله» المقاتلين بعدم التعرض للديار والأشجار.. وعلينا نحن أن نصدر تعليماتنا لعناصرنا أن لا يتعرضوا لشيء من ذلك بسوء.

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.



الفصل الثاني:

مواصفات قيادية..

حديث طالوت درسٌ لا يُنسى

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين..

وبعد.. فقد قال تعالى في سورة البقرة الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥٢ ما يلي:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ونقول:

في هذه الآيات الكريمة دلالات كثيرة، ودروس وعبر نحتاج إليها، ويمكن ذكر بعضها فيما يلي:

دلت الآية الأولى المتقدمة برقم ٢٤٦، على الأمور التالية:

١ ـ إن قوماً من بني إسرائيل، هُزموا في الحرب التي خاضوها ضد قوم آخرين، وأُخرجوا من ديارهم وأبنائهم.

٢ ـ إن هؤلاء المهزومين كانوا أشتاتاً، ليس لهم من يجمعهم ويقودهم.

٣ ـ إنهم لم يبادروا إلى تمليك أحد عليهم، بل لجأ الملأ منهم (وهم أهل العظمة والأبهة) إلى نبي لهم..

إما لعدم اتفاقهم على رئيس بسبب تنافسهم على الرئاسة والزعامة.

أو لفقد من يرون أنه جامع للشرائط والأوصاف المؤهلة لهذا المنصب الخطير، حيث يقولون: إن مِلكَهم يجب أن يكون كثير المال، فلعل هذا الشرط لم يتوفر في أحد منهم، بسبب الحروب التي خاضوها، وخسروها، وخسروا معها الأموال، والأنفس والأبناء، أو لأنه لم يكن فيهم أحد من سلالة الملوك

لكي يرث المُلك منهم، حيث يرون: أن المُلْك لا يكون إلا بالوراثة من هذه السلالات.

٤ ـ إن من حق هذا النبي العارف بمواقفهم، وبتاريخهم التخاذلي، وبآرائهم في من يستحق الملك ومن لا يستحقه، سواء من أجل أنه ليس من السلالات التي لها ذلك، أو ليست لديه الأموال التي تؤهله لهذا المقام.

إن من حق هذا النبي: أن يستوثق من صدقهم في وعدهم.. فإن هذا الاستيثاق ضروري ولازم، لاسيما وهو يرى أن سلوك وتاريخ من يتعامل معهم لم يكن تاريخاً مشرفاً، بل أثبتت التجارب: أنهم لا يفون بوعودهم، ولا يثبتون أمام عدوهم، وليسوا من أهل التضحية، ولا هم ممن يمكن الاعتماد عليهم في شيء، لأنهم يؤثرون اللذة الحاضرة على وعد الله في الآخرة.

إن هذا الاستيثاق قد نتج عنه تصريحهم بعزمهم على تغيير مسارهم، وبصدق نواياهم بالقتال حتى النصر..

٥ ـ إن هذا النبي قد ألمح لهم إلى أن تاريخهم غير مشرِّف، فقد فرّوا من الزحف حتى تمكن عدوهم منهم، وقال لهم: إن كنتم على نفس الطريقة، فلا حاجة إلى بعث ملك لكم، وإن غيرتم وبدَّلتم، وأصبحتم على استعداد للقيام بما يجب عليكم من حرب عدوكم، وغيره، فإن نصب الملك لكم لا يعفيكم من جهاد عدوكم، بل يحتم عليكم ذلك.

٦ ـ لقد انتزع نبيهم منهم تعهداً بالقتال في سبيل الله، واستدلوا على أن هذه القناعة راسخة لديهم بأمرين، هما:

ألف: أنهم قد أخرجوا من ديارهم.

ب: أنهم قد حرموا من أبنائهم، وهذا يحتم عليهم القتال، فلا معنى للتشكيك والجدال.

٧ ـ ثم إنهم بالرغم من ذلك كله، نكثوا، وأخلفوا، وتولوا إلا قليلاً منهم.

٨ ـ لقد دلّ قول النبي «عليه السلام» لهم، وما سمعه منهم، ثم ما كان منهم: أن على القائد أن يأخذ بنظر الاعتبار تاريخ الناس الذين يريد أن يقودهم، ويقيس عليه مستقبلهم، وأن لا يغتر بما يراه منهم في حالتهم الحاضرة، لأنها قد تكون من مفردات الخداع، والتضييع، أو غير ذلك.

٩ ـ لقد دلّ طلب القوم من بني إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكاً ـ دل ـ إما على عجزهم عن الاتفاق على هذا الأمر بسبب تشتت آرائهم، واختلاف أهوائهم..

وإما على أن المركوز في أذهانهم بعد فقدانهم من يصلح لهذا المقام في السلالات التي ترث الملك بزعمهم، أو فقدان تلك السلالات للأموال الوفيرة التي هي من شروط استحقاق الملك بنظرهم، فكان أن لجأوا إلى نبيهم ليختار هو لهم ملكاً، ولو من فقراء تلك السلالات.

١٠ ـ إنهم طلبوا من نبيّهم بعث الملك، لا نصبه، أو جعله، ربما ليكون اختياره من السلالة التي يحق لها أن تملك.

١١ ـ إنهم اعتبروا أنفسهم أصحاب القرار بالقتال، فجاء الجواب من نبيّهم: أن القرار ليس لهم، بل هو لله تعالى.. وذلك في قول نبيهم: ﴿**هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا**﴾.

وأشارت الآية المتقدمة برقم ٢٤٧ إلى الأمور التالية:

١ ـ إن ذلك النبي «عليه السلام» حين تصدى لما طلبوه منه، في بعث الملك لم يقحم صفته الشخصية في اختيار ذلك الملك.

٢ ـ إنه بعد أن أخرج نفسه كشخص تكلم وتصرف من موقع النبوة التي تخبر عن الله، فقال: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً﴾(١).

٣ ـ يلاحظ: أن هذا النبي قال لهم: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ﴾. فهل قال ذلك لأن طالوت كان ملكاً من الأساس، ولكن بعثه إليهم قد تأخر إلى الآن؟!

وكأن المراد بذلك الإلماح إلى أن جامعية الصفات المطلوبة في الملك، تجعل من هي فيه، ملكاً بالفعل، وإن لم يمارس الملك بعد، كالنبي الذي هو نبي لكنه يمنع من ممارسة دوره لفترة من الزمن.

وهذا المعنى يجعل من يجمع الصفات هـو الملك المتوقع الذي لا يحق لغيره أن ينازعه، وإن لم يعرفه أو لم يعترف به الناس، بسبب جهلهم، أو عصبيتهم، أو حسدهم، أو ما إلى ذلك.

كما أن هذه الملكية لا تعني التسلط القاهر لهم، ولأجل ذلك لم يقل عليكم، بل قال لكم، فإن اللام تدل على أن هذا البعث هو لأجلهم ولمصلحتهم.

٤ ـ لكن بني إسرائيل اعترضوا على ما اختاره الله تعالى لهم، واعتبروه باطلاً، بالرغم من أنهم هم الذين طلبوا هذا الاختيار.

٥ ـ إنهم قد برَّروا رفضهم بأمرين:

---

(١) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة.

أولهما: أنهم أحق بالملك من طالوت، الذي لم يكن من سلالة الملوك.

ثانيهما: إن طالوت لم يؤت سعة من المال تميّزه عليهم، وتعطيه أرجحية لتولي هذا المقام.

٦ ـ وحيث إن هذا المنطق يمكن أن يخدع بعض الغافلين، أو يشككهم، ويوهن عزائمهم فإن على النبي، والعالم، والقائد أن يبيِّن وهن وضعف هذا الكلام، وقد ذكر ذلك النبي لهم أموراً تحسم هذا الموضوع، وهي:

الأول: أن الله تعالى هو الذي اختار طالوت ملكاً، وليس لأحد أن يعترض على الله تعالى فيما يختار، وإذا كان جعل الملك فيهم قد جعل لهم حقاً، فلماذا لا يكون جعل الملك لطالوت موجباً لثبوت الحق له، فإن العلة لاستحقاق الملك التي هي الاصطفاء حاصلة في الموردين. قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ**﴾(١).

وهذا الاصطفاء يظهر أن الله تعالى يرضى سلوكه وخلقه، وسائر أحواله.

الثاني: إنه تعالى قد زاد طالوت بسطة في العلم وفي الجسم.

والعلم بمصالح العباد، وحسن سياستهم، وتدبير أمورهم، والقدرة الجسمية على بذل الجهود المضنية هما الشرطان اللازمان لقيادة الأمة إلى السعادة والفلاح، والكرامة والنجاح، والعزة والقوة.

أما ماله الشخصي، فليس له أثر في إصلاح الملك، وفي تقويته وتدبيره. بل ربما تكون كثرة ماله وحاجته إلى تدبيره من أسباب ضعفه، أو إعاقته عن القيام بما يجب أن يقوم به من مسؤوليات.

---

(١) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة.

الثالث: إن الملك لله وحده، وصاحب الملك يتصرف في ملكه كما يشاء، وليس لأحد أن يعترض عليه، أو أن يفرض عليه خطة عمل فيه.

والله تعالى الحكيم العليم، يعلم مصالح العباد، وهو رحيم بهم، وهو كريم لا يبخل عليهم بما يسعدهم ويوصلهم إلى أعلى الدرجات، وهو حكيم، يدبر شؤونهم بحكمته، ولكنه ليس مقهوراً للمصلحة، ولا محكوماً بها، ولا تحتم عليه استمرار العطاء إلى ما لا نهاية..

إذ قد يحجب الله عطاءه عن عباده إذا أسرف العباد على أنفسهم، وتاهوا في ظلمات الغي والضلال، لأن مصلحة العباد في مثل هذه الحال هي في حجب العطاء عنهم، لأنه سيكون في خدمة الانحراف والضلال، ومن موجبات الشقاء والبلاء لهم.

من مرحلة إلى أخرى:

وقد انتهت بذلك مرحلة إبطال المنطق الذي استند إليه بنو إسرائيل في رفضهم قبول حقيقة: أن يكون الملك لطالوت.

وكانت هذه الحجج كافية لِلَجم جماح عقولهم القاصرة، وترويضها، ومنعها من الخضوع للأهواء، وللشبهات والأباطيل.

ولكن مع ذلك، كانت هناك حاجة إلى إخضاع النفوس أيضاً، وتطهيرها من الشوائب التي ألحقتها بها الشبهات والأهواء، والتخيلات الباطلة.

مرحلة العلاج النفسي:

لقد كان ذلك الشعب المهزوم، المشرد عن أوطانه، والمحروم من أبنائه، والذي يهيمن عليه الشعور بالضعف، والخيبة والإحباط بأمس الحاجة إلى

استعادة ثقته بنفسه، وإلى سكون نفسه إلى حكومة طالوت التي فوجئ بها.

ولم تكن الاستدلالات العقلية تكفيهم في ذلك، بل كانوا بحاجة إلى ما يصدم وجدانهم، وضميرهم لكي تتمزق وتتلاشى، وتتساقط كتل الصدأ التي أطبقت عليه بسبب تراكمات الذنوب والمعاصي، والشبهات واتِّباع الأهواء.

ولم يكن لديهم من الإيمان ما يكفي لجلاء ذلك الصدأ، وإعادتهم إلى التوازن، وإحياء معاني الشجاعة، والنبل، والكرم، والوفاء، والتضحية، والإقدام، والعزم على مواجهة الشدائد فيهم.

ولم يكن لديهم قدرة على تمييز الخير من الشر، والحق من الباطل بسبب ضعف معرفتهم، وتماديهم في جهلهم، فهم لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. بل ركنوا إلى جهلهم وبعدهم عن الله، فكان الشيطان بانتظارهم، فتلقفهم، وسخَّرهم في مقاصده.

فكان من مفردات هذا العلاج النفسي أو الروحي، الذي يؤهلهم لخوض غمار حرب كبرى مع جالوت العالي والمستكبر، وعد ذلك النبي بإظهار آية خارقة للعادة.. وهو أن يأتيهم التابوت الذي كانوا قد فقدوه، وكانوا يتبركون به، وقد وضع فيه موسى حين ولد، وألقته أمه في اليم، فالتقطه آل فرعون.

وبقي هذا التابوت في بني إسرائيل حتى استهانوا به، وصار الصبيان يلعبون به في الطرقات، وكانت فيه الألواح، ودرع موسى، وما كان عنده من آيات النبوة، فلما عمل بنو إسرائيل بالمعاصي، واستخفوا بالتابوت رفعه الله عنهم.

فإعادة التابوت بما فيه إليهم، من شأنه أن يمنحهم السكينة والرضا، وتتبلور لديهم القناعة بصحة اختيار طالوت للملك، وأنه سيكون قادراً على

تحقيق الأهداف المتوخاة.

ويبدو: أن الملأ من بني إسرائيل هم الذين طلبوا الآية والدليل المعجز، الذي يثبت صحة ما قاله لهم نبيهم.

ومن جهة أخرى، فإن كبار هؤلاء القوم، وعظماءهم، والمفترض أن يكونوا هم الأكثر وعياً وعلماً، لم يكتفوا بالأدلة التي ساقها لهم نبيهم، بل عبَّروا عن شكِّهم بصدقه وأمانته، وحتى أحوجوه إلى إظهار آية تثبت صدقه.

وقد حصل ذلك حتى بعد استدلال نبيِّهم عليهم بما يسقط مزاعمهم وأوهامهم، حتى لم يعد أمامهم أي مجال لأي تعلل، أو التوسل بأية إثارة، مهما كانت هزيلة.

الإمتحان ضرورة:

وبعد كل هذه التقلبات والتحولات التي بدأت بالهزائم لبني إسرائيل أمام أعدائهم، وانتهت بنهاية بشعة بتشكيكهم بصدق نبيهم في بعث الله طالوت ملكاً لهم، فإنه لا تبقى ثقة له برضى بني إسرائيل بحكومة طالوت، وانقيادهم له إذا حمي الوطيس، لأن السكوت بسبب غلبة الحجة والمعجزة، لا يعني انقياد قلوبهم، ورضاهم بتقديم التضحيات الجسام في مواقع الحرج.

وكان طالوت بحاجة في معركته مع جالوت إلى جيش:

١ ـ يحمل في داخله يقيناً بحقه.

٢ ـ لديه نية وتصميم على نيل هذا الحق.

٣ ـ يضاف إلى ذلك: توطين النفس على تقديم التضحيات مهما عظمت.

وكان ظاهر حال قوم طالوت يشي: بأن اليقين بالحق قد أصبح متوفراً

بعد إيضاحات نبيهم لهم، واستدلاله عليهم، وبعد وعد نبيهم لهم بإظهار معجزة تدلهم على صحة بعث طالوت ملكاً عليهم.

ومن المفترض أيضاً: أن تكون نية الحصول على ذلك الحق المتيقن متوافرة، لاسيما بعدما عاينوه من ظلم جالوت لهم، وبعد إخراجهم من أوطانهم، وأبنائهم.

ولكن على طالوت أن يتثبت من توفر المرحلة الثالثة، وهي: أن يكونوا موطِّنين أنفسهم على بذل كل غال ونفيس، ولا يبخلوا بأرواحهم في سبيل دفع عدوهم، في ساحات الجهاد، في سبيل الله.

وكانت الحكمة، وحصافة الرأي تقضي بإجراء امتحان لهم يكشف حقيقة أمرهم.

فجاء الامتحان العملي على مرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي الامتحان بموضوع الشرب من النهر الذي تقدم ذكره قد بيَّنت قدراً من الوهن.

ثم بينت المرحلة الثانية ـ وهي المتمثلة بوضعهم في المواجهة مع جالوت ـ: المزيد من الوهن الأكيد والشديد.

وأنهم يفقدون أهم العناصر التي يريد طالوت أن تكون متوفرة فيهم، ليتمكن من محاربة جالوت.

ومن هذه العناصر:

١ ـ أن يكون لديهم من قوة الإرادة والسيطرة على أنفسهم، ما يكفي للهيمنة على أنفسهم حين حضور ما يثير الشهوات، والنزوات، والغرائز.

٢ ـ أن يكون لديهم الصبر الكافي على المشاق والمتاعب، والآلام، مهما عظمت.

٣ ـ أن يكون لديهم صبر على الحرمان من الملذات مهما طال الزمن.

٤ ـ الصبر على عدم الوصول إلى الحاجات، حتى ما كان ضرورياً منها، وما يكون به قوام الحياة، كالماء والغذاء.

٥ ـ حسن الانقياد، وبذل الطاعة التامة للقادة.

٦ ـ الاستعداد للبذل والعطاء، وتقديم التضحيات مهما جلَّت وعَظُمت.

وقد تكفلت المرحلة الأولى من الامتحان لحسم الأمر في بعض هذه الأمور، فإنه إذا كان الجيش قد قطع المسافات، وأصبح محتاجاً إلى الماء ليبل غليله، فإن الإمساك عن الماء بعد أن رآه العطشان، الذي تدعوه حاجته الطبيعية للشرب منه، ويدعوه إليه حبه للتلذذ به، ويدعوه إلى التزوُّد منه خوفه أيضاً من أن تطول فترة حرمانه منه، أو اشتداد حاجته إليه. فامتحنهم طالوت بالنهر، فجعل الناس في هذا الامتحان ثلاثة أقسام:

الأول: مَنْ لم يذق من ذلك شيئاً.. فهؤلاء هم أصحابه الأوفياء له.

الثاني: من شرب من ذلك النهر.. وهؤلاء ليسوا من طالوت.

الثالث: من اغترف غرفة بيده، فهؤلاء لا دليل على أنهم من طالوت.

وهؤلاء هم الذين لم يحسم أمرهم، بل يُخشى منهم النفاق والفشل، والجزع، والاضطراب، وعدم التحمل.

فلا بد من امتحان آخر يبين حال هؤلاء، فإنه بعد أن ظهر أن طائفة من هؤلاء ليسوا من طالوت، وقد حصل ذلك، حين مواجهتهم بجيش جالوت، فقد ظهر أنه لا يصح الاعتماد عليهم، وأن على طالوت أن يستبعد أيضاً من

اغترف غرفة بيده، فقد ذكرت الآيات الشريفة: أنه بعد أن انتهى الامتحان بالشرب من النهر سار طالوت بالجنود نحو العدو، وظهر ضعفهم حين واجهوا الخطر الجدي لحرب توقعوا أن تكون كبيرة ومهولة، وتحركت فئة محاربة جالوت بقيادة طالوت.

ويبدو: أن الذين رفضوا ذلك متذرعين بقولهم: ﴿**لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾ هم الذين اغترفوا من ذلك النهر غرفة بأيديهم، وانفصلوا عن طالوت، وبقي معه الذين لم يطعموا من ذلك النهر، الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم، فقد قالوا: ﴿**كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ**﴾.

وقد تضمنت كلمتهم هـذه تقرير الدعوى مع دليلها، فإن الوقـائع الحسية أثبتت كثرة غلبة الفئات القليلة للفئات الكثيرة بإذن الله..

ثم تحقق هذا المعنى عملياً في الحرب بين طالوت وجالوت، حيث غلبت الفئة القليلة التي لم يزد عددها على ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلاً على جالوت الذي كان يقود جيشاً كبيراً أخاف ضِعَاف النفوس.

وآخر كلمة نقولها:

إن القائد إذا احتاج إلى تصفية جنده من أهل الريب، والمنافقين، والمتخاذلين باعتماد أسلوب الاختبار والامتحان، فعليه أن يبادر إلى ذلك، وأن يجعله وسيلة لتصفية الجسم المقاتل، وأن يكرر الامتحان إذا احتاج إلى ذلك، وهو الذي يختار طريقة الامتحان، ويحدد شرائطه التي يتوخاها، وأساليبه الناجعة.

القيادة والعمل الحربي

نصائح علي لأحد قادة جنده:

ذكروا: أنه لما أراد علي «عليه السلام» المسير إلى النخيلة ـ في طريقه إلى صفين ـ دعا زياد بن النضر، وشريح بن هاني، وكانا على مذحج، والأشعريين، وقال:

«يا زياد، اتق الله في كل ممسى ومصبح، وخف على نفسك الدنيا الغرور، ولا تأمنها على حال من البلاء.

واعلم: أنك إن لم تزع نفسك عن كثير مما يُحَبُّ مخافة مكروهه، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضر.

فكن لنفسك مانعاً وازعاً من البغي، والظلم والعدوان، فإني قد وليتك هذا الجند، فلا تستطيلن عليهم، وإن خيركم عند الله أتقاكم.

وتعلم من عالِمِهم، وعَلِّم جاهلهم، واحلم عن سفيههم، فإنك إنما تدرك الخير بالحلم، وكف الأذى والجهل.

فقال زياد: أوصيت يا أمير المؤمنين حافظاً لوصيتك، مؤدباً بأدبك، يرى الرشد في نفاذ أمرك، والغي في تضييع عهدك[1].

---

(١) صفين للمنقري ص١٢١ و ١٢٢ وبحار الأنوار ج٣٢ ص٤١٠ وراجع ج٣٣

فجعل «عليه السلام» شريح بن هاني على طائفة من الجند، وزياد على جماعة، فأخذ شريح يعتزل بمن معه من أصحابه على حدة، ولا يقرب زياد بن النضر، فكتب زياد إلى علي «عليه السلام»:

أما بعد.. فإنك وليتني أمر الناس، وإن شريحاً لا يرى لي عليه طاعة، ولا حقاً، وذلك من فعله بي استخفاف بأمرك، وترك لعهدك. والسلام[١].

وكتب شريح إلى علي «عليه السلام»:

أما بعد.. فإن زياد بن النضر حين أشركته في أمرك، ووليته جنداً من جنودك، تنكر واستكبر، ومال به العجب والخيلاء والزهو إلى ما لا يرضاه الرب تبارك وتعالى من القول والفعل. فإن رأى أمير المؤمنين أن يعزله عنا ويبعث مكانه من يحب فليفعل، فإنَّا له كارهون. والسلام[٢].

فكتب إليهما علي «عليه السلام»:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى زياد بن النضر وشريح بن هانئ..

سلام عليكما، فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو.

ص٤٦٥ ونهج السعادة ج٢ ص١١٦ ـ ١١٨ وراجع ج٨ ص٣٢٦ و ٣٢٧ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٣ ص١٩١ والمعيار والموازنة ص١٤٠ وراجع: تحف العقول ص١٩١ ومصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٤ ص٢٢٢.

(١) صفين للمنقري ص١٢٢ و ١٢٣ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٣ ص١٩١ و ١٩٢.

(٢) صفين للمنقري ص١٢٢ و ١٢٣ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٣ ص١٩٢.

أما بعد.. فإني قد وليت مقدمتي زياد بن النضر وأمَّرته عليها، وشريح على طائفة منها أمير، فإن أنتما جمعكما بأس، فزياد بن النضر على الناس، وإن افترقتما فكل واحد منكما أمير الطائفة التي وليناه أمرها.

واعلما أن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم، فإذا أنتما خرجتما من بلادكما، فلا تسأما من توجيه الطلائع، ومن نقض الشعاب والشجر والخمر في كل جانب كي لا يغتركما عدو، أو يكون لكم كمين.

ولا تسيرن الكتائب [والقبائل] من لدن الصباح إلى المساء إلا على تعبية. فإن دهمكم داهم أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدمتم في التعبية.

وإذا نزلتم بعدو أو نزل بكم، فليكن معسكركم في قُبُلِ الأشراف أو سفاح الجبال، أو أثناء الأنهار، كي ما يكون ذلك لكم ردءاً، وتكون مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين.

واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال، وبأعالي الأشراف، ومناكب الهضاب، يرون لكم، لئلا يأتيكم عدو من مكان مخافة أو أمن.

وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً، وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً، وإذا غشيكم ليل فنزلتم فحفوا عسكركم بالرماح والأترسة، ورماتكم يلون ترستكم ورماحكم. وما أقمتم فكذلك، فافعلوا كي لا تصاب لكم غفلة، ولا تلفى منكم غرة، فما قوم حفوا عسكرهم برماحهم وترستهم من ليل أو نهار إلا كانوا كأنهم في حصون.

واحرسا عسكركما بأنفسكما، وإياكما أن تذوقا نوماً حتى تصبحا إلا غراراً أو مضمضة، ثم ليكن ذلك شأنكما ودأبكما حتى تنتهيا إلى عدوكما.

وليكن عندي كل يوم خبركما، ورسول من قبلكما، فإني ـ ولا شيء إلا ما شاء الله ـ حثيث السير في آثاركما.

عليكما في حربكما بالتؤدة.

وإياكم والعجلة، إلا أن تمكنكم فرصة بعد الإعذار والحجة.

وإياكما أن تقاتلا حتى أقدم عليكما، إلا أن تُبْدأا، أو يأتيكما أمري إن شاء الله. والسلام(١).

ونقول:

قائد، أو مجلس قيادة؟!:

يمكن أن نتصور القيادة الميدانية بأنحاء مختلفة من حيث وحدة القائد، وتعدد القادة، لأنها قد تتوافق في مهماتها، وفي طبيعة تركيبها، وقد تختلف، ونشير هنا إلى ثلاثة أنحاء هي التالية:

الأولى: أن يكون لجماعة المقاتلين، أو للمجموعات ذات المهمات الخاصة والمحدودة قائد واحد من خلال تفويض ونصب مباشر وصريح من القائد الأعلى، أو ممن له حق الرفع والوضع...

---

(١) صفين للمنقري ص١٢٣ـ ١٢٥ وراجع: مصباح البلاغة (مستدرك نهج البلاغة) ج٤ ص٤١ ـ ٤٣ ونهج السعادة ج٤ ص٢٣٤ والمعيار والموازنة ص١٤١ ونهج البلاغة (بشرح عبده) ج٣ ص١٢ الكتاب رقم ١١ وتحف العقول ص١٩٠ والأخبار الطوال للدينوري ص١٦٦ وبحار الأنوار ج٣٢ ص٤١٠ وراجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٣ ص١٩٢.

الثانية: أن يكون هناك تراتبية قيادية في طول الزمان، يفرضها مرسوم يصدر عن القائد الأعلى .

والمثال الواضح لهذا هو: ما قرره النبي «صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ» في غزوة مؤتة، فقد جعل القيادة لجعفر بن أبي طالب، فإن استشهد، فالقائد هو زيد بن حارثة، فإن استشهد، فعبد الله بن رواحة...

الثالثة: القيادة الجماعية من خلال حصر القائد الأعلى تفويضه بأشخاص بأعيانهم.

ومن المعلوم:

١ ـ أن هذه الأنحاء الثلاثة يمكن دمجها في سياق واحد.. فإن التراتبية لا تتنافى مع وحدة القائد، بل هي إجراء احتياطي قد تفرضه بعض الأخطار التي يرى القائد الأعلى أنها تفرض إجراء كهذا. وربما فرضها إدراكه لطبيعة قدرات، أو علاقات، أو ظروف أمنية لقادة الصف الأول.

٢ ـ إن المطلوب من القائد ما يلي:

ألف: دفع العدو، وإحباط مخططاته.

ب: حفظ أرواح الناس، خصوصاً من هم في دائرة مسؤوليته، وصيانة مستقبلهم.

ج: المطلوب أيضاً: حفظ الدين والذب عن حياضه..

د: حفظ الأموال والأعراض، والكرامة والعزة، وما إلى ذلك..

سلبيات وإيجابيات:

وعلى هذا نقول:

إن القيادة الجماعية لها فوائد جمة، كما أن لها في المقابل سلبيات لا يصح تجاهلها.

أما الفوائد، فلعل أهمها: أن القرارات والخطط التي هي نتاج عمل الجماعة قد تكون أكثر نضجاً، وأشد إتقاناً، وأوضح سلامة.. وهو يعطي من يتولى تنفيذها مزيداً من الثقة، والحزم، والعزم.

غير أننا نقول:

أولاً: إن هذه الفوائد غير مضمونة الحصول، وإن كانت محتملة..

ثانياً: إن هذه الفوائد يمكن الحصول عليها من خلال هيئات إستشارية، تتشكل من قادة كبار، ذوي خبرات عالية، مهمتهم وضع الخطط، واجتراح الحلول للمعضلات، من دون أن تكون لهم شراكة في اختيار القرار العملي، بل يكون القرار للقائد الميداني واحداً كان أو أكثر..

ثالثاً: قد تنتاب الجماعة حالات من التكاسل والتواكل في أداء المهمات، خصوصاً في المسؤوليات المشتركة. وربما كان لاختلافهم في الرأي وللتسويلات الشيطانية الخفية، التي تتعزز وتتنامى بالطموحات الكامنة، وبالرغبات غير الحميدة، بمحاولة التسويق لحالات ضعف لدى الآخرين، الذين يرون فيهم منافسين لهم، ويريدون كسر عنفوانهم، ورؤية الخيبات في أفعالهم، فيدَّعون أنها تمثل فشلاً، أو ضعفاً في التنفيذ، في حين أن الفشل قد يكون نتيجة قصور في الخطة، التي شاركوا هم في وضعها. فيلقون بالتبعة على من هم برءاء منها، ليكونوا هم البدائل عنهم.

على أن نفس اختلاف النظرة، وتعدد الآراء، وكثرة التحفظات قد تحدث خللاً في الخطة، وتحد من تأثيرها، ولا تدع أية فرصة للقائد الميداني للإستفادة

من الفرص التي تعرض له، بل تقيد يديه، وتضيع الفرصة عليه، وتحوِّله إلى مجرد آلة تنفيذ، بل تفرض عليه أن يخالف قناعاته أحياناً، وأن يصبح يرى نفسه كمن يسعى إلى حتفه بظلفه، وأن يرى أمله يحتضر بين يديه، بل يكون هو الذي يجهز عليه...

وهذا من شأنه: أن يخمد جذوة الحماس في نفس القائد، ويتضاءل لديه الشعور بالمسؤولية عن تدارك أي خلل، أو فشل، حين يرى أن أية مبادرة قد ترتد عليه، وتعطي ذريعة للنيل منه، والتطاول عليه.

إن القرار يجب أن يكون لشخص واحد، حتى لو كانت الخطط نتيجة عمل مجلس تخطيط ودراسة، فإن خطط هذا المجلس يجب أن تعطي القائد الميداني فسحات، وتمنحه المزيد من الخيارات التي يستطيع التحرك فيها، ولاسيما في الحالات المستجدة، التي لو أراد أن يرجع فيها إلى هيئات التخطيط والدراسة لضاعت الفرصة، أو لوقع المحذور الكبير، الذي لا بد من دفعه بأقصى سرعة ممكنة.. وإنما يراجع مجلس التخطيط حين تكون هناك فسحة، ولا يكون في التأخير ضرر، أو خطر.

الحالات الطارئة:

قـدَّم أمير المؤمنين «عليه السلام» لنا نموذجاً عملياً، ظهرت فيه بعض سلبيات تعدد القيادة، والتشريك فيها، حيث بدا أنه بمجرد أن اشتم بعض القادة الذين تعامل معهم رائحة هذا التشريك، الذي لم يقترب منه «عليه السلام»، بل كان بصدد تكريس الوحدة، والاستقلال في القرار، وسد باب التشريك.. بل قرَّب المسافة في المجالات العملية بين قائدين كبيرين معروفين،

فظهرت ـ بسبب هذا التقريب الذي فرضته الوقائع ـ التباينات بينهما بسرعة قياسية..

وبعد هذه التمهيدات نقول:

لا بد من التوقف عند ما قاله علي «عليه السلام» لقائديه، موجهاً الخطاب لأحدهما، ليدل عملياً على أنه هو المسؤول الأول، إذا كان لا بد لهما من المواجهة الجماعية للعدو، فلاحظ ما يلي:

مواصفات لا بد منها:

إن أهم شيء يحتاج إليه القائد في مجاله العملي هو تقوى الله، فقد استؤمن على أرواح الناس، وكلف بمهمة جليلة هي دفع الأعداء عن الأموال، والأعراض، والأنفس، والكرامات، وحفظ مستقبلهم، ودينهم، وعزتهم، ومصالحهم، وما إلى ذلك.

فإن هذا القائد أصبح كراكب الأسد الجموح، وهو نفسه التي بين جنبيه والتي تحتاج إلى ترويض وكبح جماح في كل حين.

وقيادته لجماعة من الناس، في مثل هذا الأمر المصيري والحساس تجعله بحاجة إلى الاقتناع بأن أعز شيء عليه، وهو نفسه التي بين جنبيه، هي أساس بلائه، ومصدر الخطر عليه وعليهم.

ومن المعلوم: أن الإنسان لا يكاد يصدق بأنها قد تجره إلى المهالك والمزالق.

ولو أنه صدق بذلك في برهة يسيرة، فسرعان ما ينسى ذلك، ويعود ليطلق لها العنان في سعيها للحصول على رغباتها، من حل، أو من حرام، وباستعمال وسائل معقولة، ومقبولة تارة، وبالمجازفة بركوب الأخطار، واحتمال الأوزار

تارة أخرى.

وهذا كله يوضح لنا معنى قول رسول الله «صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وآلِهِ» لأصحابه في بدر: رجعتم من الجهاد الأصغر وبقي عليكم الجهاد الأكبر. فسأله أحدهم إن كان هناك جهاد أكبر من جهاد بدر. فأجابه بما ذكر.

ولأجل ذلك نلاحظ: أنه «عليه السلام» قال لزياد بن النضر «اتق الله في كل ممسى ومصبح»، فإن لليل شياطينه، وللنهار شياطينه التي لا بد أن يحذر من الوقوع في شراكها.

وقد بيَّن «عليه السلام» لزياد بمرأى ومسمع من شريح أهم الشراك التي يمكن أن يبتلى بها، وذلك على النحو التالي:

١ ـ قال «عليه السلام»: «وخف على نفسك الغرور»، فقد أمره «عليه السلام» بالخوف من عروض الغرور له، ولم ينسب إليه أنه مبتلى بالغرور بالفعل، ربما لأنه لم يكن قد أصيب بهذه العاهة إلى تلك الساعة، وحتى لو كان مبتلى بها، فإن مواجهته بها بصورة علنية، قد تدعوه للإنكار، ولو على سبيل المكابرة والإصرار.

كما أن ذلك يلحق به عاراً قد لا يجد خلاصاً منه، ولا مناصاً عنه، وقد يصل الأمر إلى سقوطه عن درجة الأهلية بنظر الكثيرين، ويفتح عليه أبواباً من التنقص له، والنيل منه بصورة عشوائية ومؤذية.

ولعل الأمور قد تتعاظم وتتفاقم إلى حد إثارة الأوهام والشكوك في عليٍّ نفسه، الذي يذكر ذلك عنه، ثم ينصبه لأمر خطير كهذا...

ولكنه «عليه السلام» أراد أن يزرع فيه الخوف من حصول أمر مشين له

كهذا، وأن يجعل منه رقيباً على نفسه، متهماً ومحاسباً لها، إلى أن ينكشف له حقيقة أمرها، وتظهر براءتها مما يخشى عليه منها.

٢ ـ ثم قال: «ولا تأمنها (نفسك) على حال من البلاء».. وهذا ترقٍ في التحذير، وإلزام له بضرورة الحذر في كل امتحان يواجه نفسه الأمارة، فهناك أمور كثيرة يواجهها الإنسان، ويخطئ في فهمها، وفي التعامل معها، فيقع في شرك إغراءاتها، ويقصر عن درك دلالتها..

والبلاء قد يكون ببذل الملذات التي تشتاق إليها النفس، وقد يكون بلاء بأمر مكروه ومتعب، لا يدرك عاقبته، وما يجلبه من خيرات ومنافع، وتفضيلات، إلا من امتحن الله قلبه للإيمان.

٣ ـ وقال «عليه السلام»: «تكن لنفسك مانعاً ووازعاً من البغي، والظلم، والعدوان، فإني قد وليتك هذا الجند الخ..».

والمانع هو الذي يكون حاجزاً عن الوقوع في الشيء، والوازع هو الذي يقال عن الشيء وزعه: كفه ومنعه وحبسه.. فوزعه تأتي حين يكون الإنسان أقرب إلى مباشرة ما يراد دفعه عنه.

ويمكن تلخيص ما نرمي إليه هنا بما يلي:

إن من سلبيات انقياد القائد لنفسه، وإطلاق العنان لها:

١ ـ أن يصاب القائد بالزهو والخيلاء، حيث يصبح في موقع الآمر الناهي، والمتصرف. ويرى أنه جدير بهذا المقام، بسبب مؤهلاته، ومزاياه.

٢ ـ أن يتوهم أن مقامه هذا امتياز له، يخوله أن يستثمره في منافعه الشخصية، ووفق ما يروق له..

٣ ـ أن يتوهم أن من حقه فرض طاعته المطلقة، على من هم تحت يده، وعلى غيرهم، فيما يحق له، وما لا يحق له، حتى فيما يرتبط بأموره الشخصية.. حيث تختلط عليه الأمور، فلا يعرف حده ليقف عنده، فيبوء بالظلم لمن هم تحت يده، فيطلب منهم القيام بمهمات، لا يحق له أن يطلبها منهم، ويفرض قرارات ليس له أن يفرضها عليهم..

٤ ـ كما أنه قد يجعل من هذه القوة التي بيده وسيلة للعدوان على الآخرين، وانتهاك حرماتهم، أو التعدي على أموالهم، وغيرها من حقوقهم.

٥ ـ أن يصبح شديد الطلب لما ليس له، الأمر الذي ينتج عنه شدة الإضرار بالغير، ويجسد مفهوم البغي الذي يمقته الله، ويستتبع العقاب الأليم.

العلاج الناجع:

لقد ألمح «عليه السلام» في كلامه لزياد بن النضر بمعالجته الناجعة لهذا الداء، فقال: «واعلم أنك إن لم تزع نفسك عن كثير مما تحب مخافة مكروهه، سمت بك الأهواء إلى كثير من الضرّ، فكن لنفسك مانعاً وازعاً إلخ..».

ففي هذه الكلمة المباركة لمحات رائعة، نجملها، ونذكر منها:

١ ـ إن المطلوب من القائد: أن يراقب نفسه حتى لا يطغى، ولا يظلم، ولا يعتدي. ولكنه «عليه السلام» لم يقل له: لا تظلم، ولا تبغ، ولا تعتد، لأن هذا النحو من الخطاب، قد يفهم منه: أنه يريد أن يكون نفس إنشائه لهذا النهي، هو المؤثر في الإمتناع عن هذه الأمور.

وربما يكون الإنقياد لمجرد الأمر والنهي الصادر إنما يعني الاستسلام لإرادة الغير، وهذا ثقيل على النفس، أو مكروه لها.. لأنها تميل إلى الإستقلالية

والحرية، التي ترضي غرورها، وتعطيها بعض الزهو والإنتعاش.

٢ ـ إنه «عليه السلام» قد ساق الكلام في البداية بطريقة تجعل المتلقي يغفل عن خصوصية الإنقياد لإرادة الغير، وينساق إلى وعي الخصوصيات والحيثيات الموجبة، بحيث يصبح الإقدام على الفعل، أو الإمتناع عنه قراراً له، نابعاً من عمق ذاته..

٣ ـ ثم إنه «عليه السلام» لم يقتصر على ذلك، بل عطف الكلام أيضاً إلى إنشاء أوامر وزواجر، من شأنها أن تعاضد ذلك القرار الذي صدر عنها.. وتتضافر بها المحفزات، والدواعي، وتؤثر الأثر المطلوب في مقام العمل..

٤ ـ إن تلك الأوامر والزواجر، وإن كانت قد اتخذت صورة الأمر، أو النهي الإلزامي.. ولكنه يوحي بأنه يأتي في سياق الحث والتحريض من منطلق المحبة والحرص، لا على سبيل الفرض والقهر، والإلزام، والإخضاع للإرادة، بتسلط إرادة أخرى عليها.

٥ ـ ويدل على ما ذكرناه: أنه «عليه السلام» قد أيد ذلك بالتنويه بأن عدم الإبتعاد عن البغي، والعدوان، والظلم، سيؤدي إلى مواجهة الكثير من الضرر والأذى في نفسه، وفي كل ما يعود إليه، ويهمه أمره..

٦ ـ ثم تجاوز موضوع إلزامه بالإبتعاد عن البغي والظلم والعدوان، إلى ما هو أدنى من ذلك.. حيث ألزمه بكف النفس عن كل ما يحتمل وجود المكروه فيه، وإن كانت النفس تحبه، وتندفع إليه، وتتهافت عليه..

ولا بد أن ينتج له الإلتزام بهذا وذاك، هيمنة وسيطرة له على نفسه، تمكنه من ضبط حركتها، وتوجيهها بالإتجاه الصحيح..

يضاف إلى ذلك: أنه يحتم عليه التريث، وعدم الإقدام على أي شيء قبل اكتساب المعرفة التامة به، والوقوف على خصوصياته، وتفاصيله ودقائقه. فإن الإنسان العادي، وإن كان قد يملك خصوصيات وميزات، وعلوماً يتميز بها على غيره، وتؤهله لمقام القيادة.

لكن ذلك لا يمنع أن يستفيد من غيره بعض ما غاب عنه لغفلة أو لغيرها، فإن بعض الناس قد يملك خبرة في أمر بعينه، تقصر عنها خبرة ذلك القائد، لكن لذلك القائد خبرة أعظم في مجالات كثيرة أخرى تكون هي التي أهلته لمقام القيادة.

وربما يحتاج القائد إلى استكشاف بعض ما خفي عليه في بعض المناطق، فيلجأ إلى بعض الرعاة أو الساكنين فيها، فإنهم أعرف بها، ولكن ذلك لا يعني أنهم أحق بقيادة الجيش منه، وإن احتاج إليهم في هذه الجزئية. لأن المفروض أن هؤلاء القادة غير معصومين، وغير مسددين بالغيب، ولا يملكون علم الإمامة ليقال: إن ذلك يجعلهم في غنى عن غيرهم.

علّمهم وتعلّم منهم:

وبعد أن ذكر «عليه السلام» لابن النضر ما يمكن أن يدخل في دائرة معرفة الإنسان بنفسه من خلال التوجيهات الهادفة إلى معرفة سياسة النفوس.. انتقل لبيان ما يرتبط بعلاقة القائد بجنده، ومن هم تحت يده، فذكر له أموراً، هي التالية:

أولاً: أن عليه أن يعرف حده فيقف عنده، فلا يستطيل على من هم تحت يده.. مؤكداً ذلك بنون التوكيد الثقيلة، التي تفيد مضاعفة التأكيد والتشديد

فيه، فقال: «لا تستطيلنَّ».

والإستطالة هي: طلب الزيادة في الطول ليبزَّ به الآخرين، ويتجاوزهم، فيصيروا دونه، وهو فوقهم.

وإختيار هذا التعبير يدل على أن الأساس عنده «عليه السلام» أن القائد متساو مع جنده. وأن جعلهم تحت إمرته لا يمنحه زيادة تجعله يخرج نفسه من هذا التساوي، ليتفرد بالطول عنهم، لأن هذه الزيادة مصطنعة وغير واقعية، وهي مجرد ادِّعاء فارغ، وسراب خادع..

وبذلك يكون «عليه السلام» قد أفرغ هذا الطول الذي ادَّعاه ذلك القائد لنفسه من محتواه، وجعله خواء وهباء بنفس كلمة «لا تستطيلن»..

ثانياً: إنه «عليه السلام» لم يكتف بالنهي عن الإستطالة، ولا اقتصر على هذه الصيغة الدالة على أن هذه الإستطالة مُدَّعاة ومصطنعة.. بل صرح له بالمعيار والميزان الذي توزن به الرجال. وأعطاه الأساس الواقعي للتفاضل بين البشر، فقال: «وإن خيركم عند الله أتقاكم»..

ويلاحظ هنا:

ألف: أن الخيرية عنوان حقيقي وواقعي، يمكن تلمّسه من خلال تلمّس آثاره في الحياة، وفي الواقع العملي، المتمثل بإسهامات ذلك الذي هو خير في المسار العام بما يفيد في صلاحه، وفي كماله، ويسهم في تناسقه وانسجامه مع سائر المكونات التي يفترض فيها أن تتخذ مساراً ينتهي بالموجودات إلى كمالاتها، وإلى تحقيق أهدافها السامية..

وبهذه الخيرية استحق هذا المخلوق التشريف والتكريم الإلهي..

ب: إنه «عليه السلام» قد ذكر العنصر الأهم في إنتاج هذه الخيرية للإنسان التي توجب له التعظيم والتكريم. وهو عنصر التقوى. فكلما أوغل الإنسان فيها، كلما أنتجت له المزيد من الخير والبركة، وأعطت من النتائج ما هو أفضل وأمثل..

ولأجل ذلك وردت بصيغة أفعل التفضيل أيضاً، فقال: «أتقاكم».

ج: والأهم من ذلك: أنه «عليه السلام» لم يتحدث عن الخيرية بصورة مطلقة، والسبب في ذلك: أنه قد يروق لكل واحد من الناس: أن يظن الخير في مكان، أو في مسار أو نهج، أو غير ذلك. وهو مخطئ في ظنه أو توهمه.. لأن المبررات التي اعتمدها لهذا الظن، والمنطلقات في تحديد الخير من غيره لم تكن صحيحة، ولا دقيقة..

ولذلك أرجع «عليه السلام» تحديد ما هو خير، وتمييزه عما عداه إلى خالق الكون والحياة، والعالم بالخفيات، والواقف على كل الحقائق والدقائق، والمناشئ، والأهداف، والبدايات، والمسارات، والآثار، والغايات..

فقرر «عليه السلام»: أن الله وحده هو الذي يحدد ما هو خير، ويميزه عن غيره.

ثالثاً: إنه «عليه السلام» بعد أن قرر مبدأ المساواة واستدل عليه بقوله: «وإن خيركم عند الله أتقاكم» طبق ذلك، وفرع عليه أمره لهذا القائد: بأن يتعلم من العالم، الذي يكون في جملة من هم تحت يده، فإن كونه قائداً له في الحرب لا يعني أن له امتيازاً عليه في كل شيء، بل الإمتياز يكون لذلك العالم بعلمه.

أما القائد، فله على العالم حق الطاعة فيما يعود إلى تدبير أمور الجند، والحرب في حدود ما أوكل إليه، وللعالم على القائد حق التعليم والهداية في العلم الخاص به.

كما أن هذا يدل على أن المهمات الحربية لا تعني الإكتفاء بها عن غيرها، بل على القائد أن يتابع في نفسه تحصيل كل ما يحتاج إليه في أمور دينه حتى وهو يدير أمر الحرب، ولا تعفيه قيادته من سائر الواجبات عليه.

رابعاً: ثم أمره «عليه السلام» أن يعلم جاهلهم. وهذا يدل على أن على القائد بالإضافة إلى القيام بالمهمات الموكلة إليه أن لا يهمل القيام بمهمة تعليم الجاهل. أي أن مهمات القائد لا تنحصر بشؤون الحرب، بل تتعداها إلى التربية والتعليم، ورفع المستوى العلمي لمن هم تحت يده..

خامساً: قال «عليه السلام»: «واحلم عن سفيههم، فإنك إنما تدرك الخير بالحلم».

وهذا أمر آخر جديد أصدره «عليه السلام» للقائد. يرشده إلى ضرورة عدم التشدد على الآخرين في مؤاخذاته لهم على ذنوبهم، لأن ذلك يوجب الضيق والنفور منهم، ويزين لهم الإبتعاد عنه.

وأما الحلم عنهم، فيحببهم به، ويقربهم منه، ويجعلهم يأنسون إليه..

غير أن علينا أن نوضح: أن الحلم الذي يدعو «عليه السلام» إليه هنا إنما هو حين يكون السفه على الأمير في أموره الشخصية، لا فيما يرتبط بالمهمات الموكلة إليه، والتي يوجب التغاضي عنها اختلالاً في مسار الأمور.

ولكن حلم القائد عن جنده في الأمور الشخصية، مشروط بأن لا يصل

إلى حد الإفراط، فيوجب المزيد من الجرأة عليه، وإسقاط هيبته، والإستهتار به.

موجبات إدراك الخير:

وقد قال أمير المؤمنين «عليه السلام»: «فإنك إنما تدرك الخير بالحلم، وكف الأذى، والجهل». فجعل «عليه السلام» إدراك الخير مستنداً إلى توفر ثلاثة عناصر:

الأول: الحلم.

الثاني: كف الأذى عن الآخرين.

الثالث: كف الجهل، ومنع الجاهل من المضي على جهله.

وقد تلخص مما تقدم: أن من الصفات التي ينبغي توفرها في القائد العسكري ما يلي:

١ ـ تقوى الله في كل ممسى ومصبح.. وفي هذا تأكيد على لزوم استمرار حالة التقوى في كل زمان.

٢ ـ أن يراقب نفسه باستمرار حتى لا يغترّ بالدنيا.

٣ ـ أن يكون ممن لا يأمن الدنيا على حال، سواء في حال البلاء، أو الرخاء.

٤ ـ أن يمنع نفسه مما تحب، حتى لا يقع بما هو أشر وأضر.

٥ ـ أن يمنع نفسه من البغي، والظلم، والعدوان.

٦ ـ أن لا يكون ممن يستطيل على من هم تحت يده، أو على غيرهم.

٧ ـ وينبغي اختيار الأتقى على من عداه.

ومن وظائف القائد:

ألف: تعليم الجاهل.

ب: التعلم من العالم.

ج: الحلم عن السفيه.

وهذه الثلاثة الأخيرة، وإن كانت مطلوبة من كل مؤمن.. ولكن ذكرها ضمن التوجيهات للقائد يشير إلى أنه يريد أن يجعل بعض الخطرات التي يوحي بها مقام القيادة، والتي تعني المسؤولية ـ يجعلها ـ تحت السيطرة، لكي لا تترك آثاراً سلبية على الروح، وعلى السلوك..

القائد واحد:

قد يستحسن بعض الناس اعتماد مبدأ الشورى في إدارة الحروب، وفي تولي الأمور العامة، ولاسيما القيادة العسكرية منها، لأن المطلوب هو حفظ أرواح الناس، وحفظ مستقبلهم، أو حفظ الدين. بالإضافة إلى حفظ الأموال، والأعراض، والكرامات، وما إلى ذلك..

والشورى تعني: المشاركة في البحث والتقصي، واستنباط أفضل السبل، لتحقيق تلك الغايات الحساسة، والمصيرية..

ويفترض أن يكون رأي الجماعة الذي يأتي بعد الدراسة والبحث والتقصي، أقرب إلى تحقيق الأهداف والغايات..

غير أننا نقول:

١ ـ إن تفويض أمر القيادة إلى جماعة من الناس.. قد يكون أكثر ضرراً، وأشد خطراً مما يظن.. وذلك بسبب ما يعرض للجماعة التي تتولى القيادة من تواكل وتكاسل في أداء المهمات، ومن اختلاف في الرأي الذي يؤخر

ويؤثر سلباً على اتخاذ القرار.. بالإضافة إلى تضاؤل الشعور بالمسؤولية.. وغير ذلك من سلبيات.

٢ ـ إنه إذا كان القائد واحداً، فبالإمكان تدارك النقص في البحث والتقصّي بإنشاء مجلس تخطيط، أو مجلس استشاري، أو مجلس قيادة يكون القرار بيد رئيسه، فيبذل هذا المجلس الجهد لاستنباط الحلول، ووضع الخطط، ودراسة القرارات، وتمييز الصالح والأصلح من غيره..

ثم يكون القرار النهائي للرئيس أو للقائد.. على قاعدة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(١).

فيكون قد جمع بذلك بين الجهد الجماعي، وبين الإلتزام بوحدة القيادة مع تلافي سلبيات القيادة الجماعية، والنأي بالنفس عن التفرد في الدراسة والبحث، واستنباط الخطط، بعيداً عن الإرتجال والتسرع فيه..

٣ ـ لقد قرر «عليه السلام» هنا وفي جميع حروبه مبدأ وحدة القيادة، وأعطى نموذجاً لسلبيات الإشراك في القيادة، حين جعل «عليه السلام» رجلين قائدين على جماعتين، حين كانت هناك حاجة لإرسال هاتين الجماعتين في مهمتين منفصلتين..

وحين انتفت الحاجة للإنفصال، أصبح الإجتماع ضرورياً، لمواجهة العدو، الذي فرض عليهم الحرب، فحصر «عليه السلام» القيادة في رجل واحد، وألغى عملياً قيادة الآخر، ولم يعطه أي دور معه، بل جعله هو ومن

---

(١) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

معه تحت إمرة القائد الآخر كسائر من كانوا معه..

الشاهد والدليل:

غير أن اللافت هنا: أن نفس هذا المورد الذي قرر فيه «عليه السلام» وحدة القيادة قد حمل لنا الدليل القاطع والبرهان الساطع على عدم صحة التشريك في القيادة..

حيث اتخذ إجراءً قرَّب فيه المسافة العملية بين قائدين كبيرين معروفين، لهما مكانتهما المميزة، واحترامهما الكبير.. فكان من نتائج هذا التقريب ظهور التباينات بينهما بسرعة قياسية.

ولعل السبب في ذلك: هو ارتفاع مستوى التوقعات، وتبلور الشعور بالرقابة، وبالتنافس لدى كل منهما تجاه الآخر بصورة مفاجئة، وتبع ذلك اختلالٌ تفاقم واستعصى حتى احتاج كل من القائدين إلى الشكوى من زميله لدى الإمام «عليه السلام» نفسه.

فإذا كانت هذه هي أولى النتائج لهذا الربط الخفيف، والتقريب اللطيف، فكيف ستكون الحال لو كانا شريكين شراكة تامة في القيادة وفي القرار؟!

هذا.. وقد سبق أن حدث نظير هذا في عهد رسول الله «صلى الله عليه وآله» حين أرسل «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» وخالداً في مسيرين مختلفين، مع معرفته بأن الأمر سينتهي باجتماعهما، وجعل القيادة حين الإجتماع منحصرة بأمير المؤمنين «عليه السلام»..

فإن النتيجة كانت مشابهة للنتيجة التي جرت لعلي «عليه السلام» هنا، فقد أظهر خالد في هذه المناسبة كل ما يبطنه من حقد وحسد، لعلي «عليه

السلام». وانجر معه آخرون في التعبير عما تكنه صدورهم من ذلك، حين حاول أن يشتكي عليه لدى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، في أمر جارية اصطفاها «عليه السلام» من السبي، فكانت عاقبة عمله: أن غضب رسول الله «صلى الله عليه وآله» عليه، وأعلن إدانته لكل من أبغض علياً «عليه السلام» وناوأه وآذاه..

مع أن ما فعله رسول الله «صلى الله عليه وآله» أيضاً لم يبلغ درجة التشريك في القيادة، وإن اشتم خالد رائحة هذا التشريك.

وعلى كل حال، فإن أمير المؤمنين «عليه السلام» قد أكمل ما بدأه رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وكان من حكمة تكرار هذه التجربة أنه إن كان هناك من يتوهم أن ما جرى في عهد الرسول «صلى الله عليه وآله» إنما كان لأسباب أخرى لا تتصل بموضوع توهم التشريك، فإن ما فعله علي «عليه السلام» في موضوع زياد بن النضر، وشريح بن هاني قد أزال كل شبهة، وأبعد كل ريب في ذلك.

الإستطلاع:

إن الإستطلاع الدقيق والشامل والمتواصل، هو من أهم الأعمال التي يقوم بها الجيش المحارب.. وبه يرتبط مصير الجيش، وعليه يتوقف النصر والهزيمة، والموت والحياة.

وقد تعرض أمير المؤمنين «عليه السلام» في الكتاب المتقدم إلى بعض موارد الإستطلاع، وهو موضوع تأمين سلامة الجيش، أو بعض قطعاته في حال الإنتقال والنزول، فألقى «عليه السلام» بعض الضوء على هذا المجال،

وحدد لنا بعض معالمه على النحو التالي:

الرصد والإستطلاع:

١ ـ لقد بيَّن «عليه السلام»: أنه لا بد من فرز مجموعات معينة تكون مهمتها رصد تحركات العدو، وكيفية انتشار عناصره، والمواقع التي اختارها لمراصده ورقبائه.. وتحديد خطوط إمداده، ومعرفة كل شاردة وواردة عنه..

وتسمى هذه المجموعات بـ: «الطلائع».

٢ ـ إن هذه الطلائع تكون عادة مندمجة مع الفرقة التي يطلق عليها اسم مقدمة الجيش، وهي الفرقة التي تتقدم الجيش عادة، لتكون ردءاً له، وتقوم بمهمة التمهيد له.

٣ ـ إنه «عليه السلام» قد اعتبر جميع من في المقدمة عيوناً لصالح الجيش كله، ترصد العدو في كل اتجاه. ولا يقتصر الأمر على مجموعات الطلائع المولجة بهذا الأمر.

أما الطلائع، وهي المجموعات الصغيرة التي مهمتها الرصد والإستطلاع، فهم عيون للمقدمة نفسها، يهتمون بما يعنيها هي بالدرجة الأولى، وإن لم يكن يهم الجيش الآتي على إثرها.

فمثلاً: لو أن الأعداء وضعوا كميناً يستهدف المقدمة، أو وضعوا في طريقها عوائق وموانع، فإذا أزالتها المقدمة، أو إذا تخلصت من ذلك الكمين، وقضت عليه، أو تجاوزته، فذلك مما لا يجب إخبار الجيش اللاحق به.

وأما لو وجدت المقدمة من خلال نشاط أفرادها دلائل تشير إلى وجود مجموعات كامنة لذلك الجيش الأعظم، وتريد الإلتفاف عليه، والإيقاع به،

فلا بد من إيصال هذه المعلومة فوراً إليه.

هذا وقد أوجز «عليه السلام» هذه الأمور بقوله: «إن مقدمة القوم عيونهم، وعيون المقدمة طلائعهم».

طريقة عمل الطلائع:

ثم ذكر «عليه السلام» أسلوب عمل تلك الطلائع، فقال: «فلا تسأما من توجيه الطلائع، ومن نقض الشعاب، والشجر، والخمر في كل جانب، كي لا يغترّكما عدو، أو يكون لكما كمين».

فقد تضمنت هذه الفقرة ما يلي:

١ ـ إن تنقل القطعات العسكرية في البلاد الآمنة لا ضير فيه، ولا مانع منه، ولا يطلب منها أن تكون لها مقدمة، أو طلائع، أو عيون، وغير ذلك.

٢ ـ إذا بلغت القوات العسكرية بلاد العدو، فلا بد من توجيه الطلائع، لأجل الرصد والإستطلاع. ولو امتد إلى مسافات بعيدة..

٣ ـ إن توجيه الطلائع في كل اتجاه يجب أن يستمر، ويتواصل، لأن العدو قد ينكفئ عن المواضع التي يصل إليها الراصدون والمراقبون، فإذا رأى العيون والطلائع قد أنهت مهمتها، وعادت أدراجها، عاد إلى الإنتشار في المواقع التي انكفأ عنها، ليورد ضربته في الوقت المناسب..

ولكن إذا كان توجيه الطلائع متواصلاً من دون سأم أو ملل، فإنه لن يجد الفرصة لأي عمل..

٤ ـ لا بد من البحث والتحري والتفتيش بصورة متواصلة عن العدو

وعناصره، وعيونه، وكمائنه في كل مكان، ويجب عدم الإقتصار على إجراء مسح ظاهري وسطحي، بل يجب أن تدخل الطلائع في كل شعب وواد، وأن تنظر بين أغصان كل شجرة، والتحري عما في داخل كل ما يمكن أن يكون ساتراً.. سواء أكان بيتاً، أو حائطاً، أو صخرة، أو زرعاً، أو منخفضاً، أو منعطفاً.. أو غير ذلك..

٥ ـ وقد علل «عليه السلام» ذلك كله بأمرين:

أولهما: أن «لا يغترهما عدو»، فيخفي نفسه عن عيونهم بين الشجر، وفي الخمر، وفي الشعاب، ثم يفاجئهم بضربته القاصمة والمهلكة..

الثاني: أن لا يكون للعدو كمين يريد أن يضرب وينسحب، ليربكهم ويشوش حركتهم، ويسقط معنوياتهم، ويدخل الرعب إلى قلوبهم تمهيداً للقائهم في ميدان القتال، وهم مرعوبون وعلى غير نظام، ومهزومون من الداخل، قبل أن يدخلوا الحرب.

هكذا يسير الجيش:

وقد عرّفنا «عليه السلام»: أن لمسير كتائب الجيش أيضاً قانوناً، ونظاماً، تجب مراعاته.

فأولاً: يجب أن يكون السير في النهار وليس في الليل، إلا في حالات خاصة، كما هو الحال في غزوة ذات السلاسل، حيث اختار علي «عليه السلام» طرقاً التفافية بعيدة جداً لا تخطر على بال.. مع مراعاته الحذر الشديد، ووضع المعالجات للكمائن لو وجدت..

فالسير في النهار إنما هو في الظروف العادية، وحيث يقوى احتمال مراقبة

العدو لحركة جيش أهل الإيمان، وسعيه للإيقاع به.. والحكمة في هذا الإجراء واضحة، فإن إمكانية وضع الكمائن لهم، أو أخذهم على حين غرة تصير في الليل كبيرة وواضحة.. ولا تصح المجازفة بأرواح الناس..

ثانياً: قال «عليه السلام»: «ولا تسيِّرن الكتائب من لدن الصباح إلى المساء إلا على تعبئة».

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» لم يتكل هنا أيضاً على مجرد إصدار الأمر، والإلتزام به.. بل تعدى ذلك إلى اعتماد الأسلوب الإقناعي العملي، فقال: «فإن دهمكم داهم، أو غشيكم مكروه كنتم قد تقدمتم في التعبئة».

والمراد بالتعبئة: رفع درجة الإستعداد إلى الحد الأقصى.

ثالثاً: سيأتي: أن السير يجب أن يكون في غير أوقات الحر، فقد قال «عليه السلام» في رسالته لمعقل: «وسر البردين».

رابعاً: سيأتي أيضاً قوله لمعقل: «ورفِّه في السير». أي لا تتعب الجند بالسرعة، أو باختيار المراكب الصعبة، أو الطرق الوعرة، وما إلى ذلك. إلا إذا اقتضت الخطة العسكرية الحذرة جداً مثل هذه الأمور، كما هو الحال في غزوة ذات السلاسل، كما تقدمت الإشارة إليه..

إختيار مواضع النزول:

إن الجيش حين ينهي مسيره في الصباح أو المساء، ويريد أن ينزل للراحة، وكذلك حين تصل الكتائب إلى ساحات المواجهة مع العدو، فإن أول ما يحتاجه القائد هو اختيار الموقع المناسب الذي ينزل فيه عسكره، حيث لا بد من رعاية بعض المواصفات والحيثيات في مواضع النزول.. وفي الإجراءات المتخذة..

وكذلك حين ينزل العدو المحارب بالقرب منهم، فقد تمس الحاجة إلى تعويض المكان الذي ينزل فيه عسكر أهل الإيمان.. وقد ذكر «عليه السلام» ما يفيد في معالجة هاتين الحالتين، فقال:

«وإذا نزلتم بعدو، أو نزل بكم، فليكن معسكركم في قبل الأشراف، أو سفاح الجبال، أو أثناء الأنهار».

وإنما يتكلم «عليه السلام» عن معسكرين متحاربين لا يملكان من وسائل الحرب مثل ما أصبح متداولاً في عصورنا هذه، وإنما كانت وسائل حربهم السيوف والرماح، والسهام، والمنجنيقات وغيرها.. وربما استفادوا من العصي والحجارة، ونحو ذلك أيضاً..

والمناسب لمثل هذه الحرب هو: أن يفرض على العدو أن يأتيه من وجه واحد، أو وجهين على أبعد تقدير. أما سائر الإتجاهات فتكون مسدودة أمام العدو، إما بنهر يجري، أو بجبل، أو حائط، أو أي مانع آخر..

كما أن الحرب إنما تدور بين المشاة، وربما كانت هناك خيول، أو فيلة..

وقد أوصى «عليه السلام» باختيار نزول العسكر في الموضع الذي فيه الأوصاف التالية:

١ ـ أن يكون نزولهم في قبل الأشراف.. والأشراف: الأماكن المرتفعة المشرفة على العدو، والمقابلة له. فإن الإشراف عليه يمكّن من رصد جميع تحركاته، ولا يتمكن هو من رصد الكثير من تحركات من هم فوقه.

كما أن من المفضل أن يكون المعسكر مواجهاً للعدو من جهة واحدة، وتكون باقي الجهات، بسبب ارتفاعها، وشدة انحدارها من موجبات منع

العدو من الوصول إليهم منها..

٢ ـ أن يكون النزول في سفوح الجبال، فتكون الجبال هي المانع الطبيعي للعدو من الإلتفاف، والمحاصرة.. والقوى المحاصرة تتدنى مستويات تأثيرها، بسبب توزع القوى، وعدم إمكان التعاون الفاعل والمؤثر بين العناصر المحاصرة.

٣ ـ أن يكون نزول الجيش في أثناء الأنهار ومنعطفاتها، فإن الموانع المائية توفر على القوات الكثير من الجهد للحماية، ولها دور في إبطال الخطط الإلتفافية والهجومية.

وقد علل «عليه السلام» لزوم اختيار أحد هذه الثلاثة، بأمرين:

أولهما: أن النزول في هذه المواضع من موجبات الأمن من كيد العدو، من تلك الجهات التي يصعب على العدو الوصول إليهم منها..

الثاني: أن يكون القتال مع العدو من وجه واحد، أو من وجهين.. فلا تتوزع القوى، ولا يتلاشى الجهد، ولا يقع الخلل.

مواضع الرصد:

أما الرقباء الذين يرصدون تحركات العدو، وخطوط إمداده، وغير ذلك، فلهم توجيهات خاصة بهم، وقد حدد «عليه السلام» لاستقرارهم ثلاثة مواضع هي:

١ ـ صياصي الجبال. والصياصي: هي الأماكن المحصنة، الواقعة في قمم الجبال عادة، والتي لا يستطيع العدو الوصول إليهم فيها، وقد اختارها «عليه السلام»، لأن المطلوب للرقيب أمران:

أولهما: أن يكون في موضع مشرف على العدو..

الثاني: أن يكون الرقيب في مأمن من أن يصل العدو إليه، ويأسره، أو يقتله.

والحصون في أعالي الجبال قادرة بحصانتها وبإشرافها على توفير هذين العنصرين.

٢ ـ أعالي الأشراف. وهي الأماكن العالية المشرفة.

٣ ـ مناكب الهضاب.

المنكب: هو مجمع عظمي الكتف والعضد.

والهضبة: هي الجبل المنبسط على وجه الأرض..

فانبساط الجبل قد يمنع من يقف في أعلاه من رؤية بعض المواضع القريبة منه، فلذلك طلب «عليه السلام» أن يجعل الرقباء في منكب الجبل، أي في طرف كتفه، ليتمكن الرقيب من رؤية تلك الجهة من الجبل، ثم رؤية سفحه، ثم الأرض المنبسطة بعده..

وقد أشار «عليه السلام» إلى هذه الأمور الثلاثة بقوله: «واجعلوا رقباءكم في صياصي الجبال، وأعالي الأشراف، ومناكب الهضاب».

لماذا الرقباء؟!:

وقد دل كلامه «عليه السلام» هنا: على أن الداعي لوضع هؤلاء الرقباء هو:

أولاً: رؤية تحركات العدو، والإبلاغ بها لحظة بلحظة، وقد قال «عليه السلام»: «يرون لكم»، ليدل على أن على الرقباء أن ينقلوا كل شاردة وواردة

إلى قيادة الجيش، لكي تحللها، وتتعرف على مقاصد العدو منها، ثم تضع الخطط لتلافي الأخطار التي ربما تكشفها لها بعض قرائن أحواله.. فقد يقوم العدو ببعض التحركات للتضليل والتمويه.

ثانياً: ربما يستفاد من قوله: «يرون لكم» ضرورة الإبلاغ الفوري المتواصل، لأن العين حين ترى لصاحبها، فإنه يدرك ما تراه على الفور.

بل قد يقال: إنها تدل على لزوم الإبلاغ الفوري عن كل ما يرونه للقيادة، لكي تميز بين ما ينبغي المبادرة لمعالجته، وبين ما يمكن السكوت عنه، أو تأجيله للوقت المناسب، ولا ينبغي ترك تحديد هذا وذاك للعيون أنفسهم.

ثالثاً: إن مراقبتهم لا بد أن تكون مستوعبة لجميع المواضع، حتى التي لا يظن الناس أن العدو سيأتيهم منها. فإن العدو يحاول أن يفاجئ عدوه، بسلوك أمثال هذه الطرق المأمونة.

رابعاً: إن تحقيق هذا الهدف، وهو: أن لا يأتيهم العدو من أي موضع كان، يستدعي شمولية واستمرار الرقابة في كل وقت وحين، ولكل مكان، ومن دون انقطاع.

كيف ينزل الجيش، وكيف يرتحل؟!:

إن لكيفية نزول الجيش، واختيار عناصره لمواقعهم، وكيفية حراسة نفسه من تحرشات العدو ضوابط، ومقررات، لا بد من مراعاتها. وهذه المقررات وإن كانت قد وردت في أيام كان فيها السيف والرمح والوسائل البدائية هي التي تستعمل في الحرب، ولكن ذلك لا يمنع من تطويرها باستفادة معان وحيثيات عامة منها يمكن بواسطتها تسرية هذه الضوابط حتى إلى زماننا هذا..

ومهما يكن من أمر، فإننا نقول:

لقد ذكر «عليه السلام» بعض هذه المقررات هنا كما يلي:

١ ـ أمر «عليه السلام» قادة ذلك العسكر (المقدمة) بعدم التفرق في النزول، فلا يختار كل فريق موضعاً لنفسه ولمن معه، فينزل فيه.. بل يجب عليهم أن ينزلوا جميعاً، فقد قال «عليه السلام»: «وإياكم والتفرق، فإذا نزلتم، فانزلوا جميعاً».

وهكذا يجب أن يكونوا أيضاً في حال الإرتحال..

قال «عليه السلام»: «وإذا رحلتم فارحلوا جميعاً».

وسبب ذلك واضح، فإن التفرق إلى جماعات تنزل كل واحدة منها على حدة، أو تنفرد في سيرها، يهيء للعدو الفرصة لنفوذ عناصره في الفجوات التي تكون بين تلك الجماعات.. وبذلك يسهل عليهم جمع المعلومات، عن مكونات هذا الجيش، وعن حجمه وعن أسلحته، وعن أدق التفاصيل فيه.

كما أن هذا التفرق يمكّن العدو من بث عناصره في تلك الفجوات، والقيام بضربات صغيرة في كل اتجاه، تؤدي بذلك الجيش إلى الفوضى والإرتباك، حيث لا يعرف العدو من الصديق، وينتهي الأمر بما يشبه فتنة داخلية يختلط فيها الحابل بالنابل، وربما ينتهز العدو الفرصة لشن هجوم صاعق يقضي على الأخضر واليابس.

أما في حال الإرتحال، فإن ذلك يمكّن العدو من اقتطاع قسم من الجيش، أو الإستفراد ببعض الفئات، وتسديد ضربة موجعة لها دون أن يعينها أحد.

٢ ـ فيما يرتبط بالحراسة الليلية حال النزول، نرى أنه «عليه السلام» خصصها

بقسط وافر من اهتمامه، فأمر قادة مقدمته بما يلي:

أولاً: أمرهم باعتماد نظام الإنذار المبكر، بالإستفادة من الإمكانات المتوفرة لهم، فقال «عليه السلام»: «وإذا غشيكم ليل، فنزلتم، فحفوا عسكركم بالرماح والأترسة». أي أن تجعل الأترسة التي هي صفائح حديد قائمة على الرماح، ومستندة إليها، على نحو تسقط على بعضها عند أدنى ملامسة، أو اصطدام لها، فيحدث وقوعها أصواتاً توجب لفت نظر الحراس القريبين منها.

ثانياً: وقد يكون مراده «عليه السلام»: أن تجعل الرماح في صف آخر، غير صف الأترسة، وتزرع بحيث تصادف المهاجم الذي لا يراها في ظلمة الليل، فيرتطم بها من اقتحمها، وربما تسببت بالأذى والإرباك للمتسللين حين يظهر له أن أمرهم قد انكشف، مع احتمالهم وجود عوائق أخرى، تزيد من انكشاف أمرهم لعدوهم، وأنهم أصبحوا بانتظارهم ليوقعوا بهم.

ثالثاً: ثم يكون خلف هذين المانعين مانع ثالث، وهو فريق الرماة المتأهب لإطلاق سهامه المميتة باتجاه مصدر الصوت، حين يصطدم القادمون بالأترسة التي يحدث اختلالها ووقوعها أصواتاً لافتة، أو باتجاه مصدر الحركة حين تكون الرماح قد فعلت فعلها في العدو المهاجم، وأربكته، وآذته.. فإذا صبوا سهامهم على عدوهم، فلن يجد أمامه إلا الفرار الذليل، والخيبة القاتلة، والفشل الذريع..

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» قد جعل الرماة هم الحاجز الثالث بعد الرماح والأترسة، ولم يجعل حراساً من المسلحين بالسيوف أو الرماح، لأنه يريد أن يلحق الضرر بالعدو المهاجم القريب والبعيد قبل الإلتحام معه.

ولو كان السلاح هو السيوف أو الرماح، وحصل الالتحام بالعدو، فإن الفرص تصبح متكافئة، وربما يلحق الحراس ضرر كبير.. وقد يتغلب عليهم المهاجمون بكثرتهم، أو بمهاراتهم القتالية.

أما البعيد الرامي بالسهام لمصدر الصوت، أو إذا رأى الأشباح، فيبقى سالماً، ويمكنه أن يجد لنفسه مهرباً ومناصاً..

٤ ـ أمر «عليه السلام» أن يستمر هذا التدبير طيلة فترة نزولهم، في ليل أو نهار.

واللافت هنا:

ألف: أن العدو لا يحاول التسلل إلى عدوه في الليالي المقمرة، بل يتسلل في الظلام الدامس الساتر لشخصه عن الحراس والرقباء..

ب: إنه «عليه السلام» قد بيَّن أسباب هذا التدبير، فقال: «كي لا تصاب لكم غفلة، ولا تلفى منكم غِرّة..».

أي أن إهمال هذه الإجراءات قد يؤدي:

أولاً: إلى أن يغفل المسؤولون عن الحراسة، ولو عن بعض المهمات الموكلة إليهم، ولو بأن ينشغلوا بأمور أخرى. كأن يجتمعوا مع بعضهم للحديث، أو للمزاح، ولو لفترة وجيزة.

ثانياً: أن يلاحظ العدو وجود ثغرة معينة كانت تحتاج إلى تدبير خاص، فيبادر إلى الإستفادة منها..

ج: رأى «عليه السلام»: أن هذا التدبير ـ وهو جعل الأترسة والرماح، والرماة حول الجيش ـ من شأنه أن يجعل الجيش في منعة وقوة، وكأنه في

حصن حصين..

القائد يحرس ولا ينام:

وقد لفت نظرنا هنا: قوله «عليه السلام» للقائدين الذين وجه إليهما هذا الخطاب: «واحرسا عسكركما بأنفسكما، وإياكما أن تذوقا نوماً حتى تصبحا، إلا غراراً، أو مضمضة».

فإن هذا التوجيه تضمن ما يلي:

١ ـ إن للقائد تكليفاً خاصاً يختلف فيه عن سائر من عداه، وهو: أن عليه أن يحرس عسكره بنفسه..

وهذا خلاف ما نعهده لدى القادة العسكريين أو غيرهم على مدى التاريخ إلى يومنا هذا، فإنهم ما زالوا يرون أن الحراسة هي أدنى الأعمال في الجيش، ويوكلون أمرها إلى غيرهم وإلى الناس العاديين، ممن لا يحتاجون إليه، وينصرفون هم إلى شؤون أخرى خاصة بهم، أو عامة يرون أنها تليق بهم.

بل إنك لو قلت لقائد، أو لمن هو أدنى منك رتبة أو بمراتب: لماذا لا تحرس ولو ساعة واحدة؟! لاعتبر ذلك إهانة عظيمة له، ولربما بادر إلى عقوبتك بما يرى أنك تستحقه.

ولكن أمير المؤمنين «عليه السلام» يقرر هنا: أن على القائد أن يتولى مهمة الحراسة بنفسه.. وذلك يرفع من شأن هذه المهمة، ويدل على عظيم خطرها وحساسيتها.

٢ ـ إن هذا الإجراء إنما يقصد به الحراسة الليلة في الأكثر، كما دل عليه قوله: «وإياكما أن تذوقا نوماً إلخ..».

٣ ـ إن الحراسة تقتصر عادة على ساعة أو ساعتين، أو أكثر أو أقل، حسب الجدول الموضوع لجماعة الحراس، حيث توزع ساعات الليل عليهم، فإذا تولاها من حضر وقت حراسته أخلد الباقون إلى الراحة، أو إلى النوم إن شاؤوا..

أما القائد، فإن عليه أن يحرس العسكر الليل بطوله..

٤ ـ إن المعمول به هو: أنه إذا قام بالحراسة أحد، سقط هذا الواجب عن غيره.. لكن الإمام يقرر هنا: أن القيام بواجب الحراسة من الناس لا يسقطها عن القائد، بل يجب عليه أن يقوم بهذا الواجب أيضاً حتى لو تولى الحراسة غيره.

٥ ـ هناك تكليف آخر يتوجه إلى القائد، ولا يتوجه إلى أحد سواه، وهو: أن النوم ممنوع عليه طوال الليل.. إلا غراراً أو مضمضة..

مع أن المعمول به لدى غير المؤمنين هو: أن القائد هو الذي ينام، بل هو الذي يحق له النوم دون كل أحد، ولا يستطيع أحد أن يعترض عليه في ذلك.

٦ ـ إن الفترة التي سمح بالنوم فيها للقائد هي ما لا يتجاوز حد الغرار والمضمضة، وهذا التعبير يدل على أنها فترة متناهية في القصر، لأن المطلوب هو أن لا يمتد وقتها إلى حد يحتمل معه مضي وقت يكفي لتحرك عناصر العدو باتجاههم، بنحو يشكل أدنى خطر عليهم.

ولعل السبب في ذلك:

أولاً: أن العدو، إنما يلتمس ساعات الغفلة، ليورد ضرباته السريعة،

والمؤثرة، فإن كان الحراس فقط هم المستيقظون، فإن العدو يبادر إلى مهاجمتهم، لعلمه بأن الحارس لا يستطيع أن يدير حرباً، أو أن يضع خطة، أو يتخذ قراراً، ولا تطاع أوامره التي يصدرها.. بل ربما استهين به، وأوذي، وطرد من قبل زملائه، ومن يرون أنهم أرفع منه رتبة وشأناً، وأسد منه رأياً، وأكثر خبرة وعلماً.

أما إذا كان القائد هو الساهر، والحاضر والناظر، فإنه بسبب خبرته، ومعرفته بالإمكانات التي لديه، وبمواقع القوة، ومفاتيحها، ولأنه هو المطاع أمره ونهيه، فإنه سيكون قادراً على معالجة أي اختلال، وامتصاص آثار أية مفاجأة، وربما يقلب بتدبيره، ونفوذ أوامره الأمور على رؤوس مهاجميه..

ثانياً: إن العسكر كله، وخصوصاً الحراس، إذا رأوا أن القائد الأول فيهم يشاركهم في السهر والحراسة، ويتفقد أحوالهم لحظة بعد أخرى، ويرون ما يبذله من تعب وجهد.. فإنهم سيشعرون بالرضا، وبالعزة، والكرامة، والقيمة.. وأنهم ليسوا مجرد وسائل يستفيد منها الحاكم لبسط نفوذه، وقهر عدوه، بل هو يريد أن يحفظهم، كما يريد أن يحفظ نفسه، بل يريد أن يقيهم بنفسه، ويتحمل من العناء والسهر أكثر مما يتحملون، ويبذل من نفسه مثل ما يبذلون.

ثالثاً: إن هذا يدل الحراس على قيمة عملهم أيضاً، وأنه من الأهمية والقداسة بحيث يكون كبار القادة على استعداد لبذل كل غال ونفيس فيه.. وأن ما يقوله القائد لمن هم تحت يده ليس مجرد شعارات يراد بها إثارة الحماس لا أكثر، ولا أقل..

لا مجال للتهاون بهذه الأوامر:

وقد جرت العادة في الشؤون العامة، بأن تنفذ الأوامر بحماس ودقة في

البداية، ثم يبدأ التراخي والإهمال، وتبدأ الثغرات بالظهور، ولاسيما فيما يرتبط بالمراقبة، وكل ما يحتاج إلى بذل جهد متواصل، في مجال له امتداد زمني، ينقسم إلى أيام، ثم إلى ساعات، ودقائق، ويصبح توالي الثواني كتوالي الأنفاس، فإن هذا الروتين والإنتظار الطويل والممل يؤدي إلى عدم التركيز، وربما يدعو إلى صرف النظر عن الواجب للحظات تقصر تارة وتطول أخرى.

من أجل ذلك: جاء التأكيد من أمير المؤمنين «عليه السلام» على لزوم مواصلة الإلتزام بهذه الأوامر، وعدم التواني والإهمال فيها مهما طال الزمن، وحتى مع علمه ببعد العدو عنهم، لأن أي إخلال بشأن الحراسة، ودقتها قد ينتهي بكارثة حقيقية وهائلة، فقال «عليه السلام»: «ليكن ذلك شأنكما ورأيكما إلى أن تنتهيا إلى عدوكما».

الإتصالات:

ومن الأمور البالغة الأهمية في الحرب: الإتصال المتواصل بالقيادة، ووضعها في صورة ما يجري، وتعريفها بكل صغيرة وكبيرة، لحظة بلحظة، حتى كأن القائد حاضر معهم، وناظر لما يجري.. ولا يختص ذلك بالعمليات العسكرية، بل يشمل حتى حال المسير والإنتقال، وسائر التقلبات والأحوال، الداخلية منها، والخارجية.

التسرع مرفوض في الحرب:

١ ـ وحيث إن للحرب طبيعة حادة، مبدؤها التشنج، والإنفعال، ثم محاولة استباق الأمور، والمباغتة للعدو. وقوامها العنف والبطش الشديد، فإنها قد ترفع تبعاً لذلك من مستوى السرعة في اتخاذ القرارات إلى حد التسرع

والإرتجال فيها. الأمر الذي يجعلها في معرض الإخلال، والاختلال.

وربما أدى ذلك إلى تجاوز الخطط الموضوعة، والمدروسة بعناية فائقة.. فينشأ عن هذه العجلة والتسرع الوقوع في محاذير كبيرة، وخطيرة، وربما مميتة.

فجاء أمره «عليه السلام» للقائد هنا، ليؤكد على لزوم السيطرة على النفس، وضبط المشاعر، فلا يخرجه رهج الحرب عن توازنه، ولا تبهره ضوضاؤها، وعجيجها، وضجيجها، وشعاراتها، وانفعالاتها، عن تماسكه، ولا توجب هيمنة مشاعره، وانفعالاته، على عقله، ودرايته..

كما أن هذا التشنج والإنفعال يجب أن لا يقوده إلى ترك ما يجب عليه من إقامة الحجة على مناوئيه، وتركهم يسبحون في بحار شبهاتهم، وأباطيلهم، ولا يقدِّم لهم ما يكون به عذره عند الله تعالى في حربهم، ويزعزع يقينهم بباطلهم، لكي يضعف شهيتهم للحرب..

٢ ـ ثم استدرك «عليه السلام» على ذلك، بأن قال: إنه إن أقيمت الحجة على الأعداء، وأصروا على بغيهم، وعلى باطلهم، وعدوانهم، وأصبح لا بد من الحرب.. وسنحت فرصة لحسم الأمر بأقل الخسائر، فلا مانع من انتهازها في هذه الحال.

قرار الحرب والإنضباط التام:

وقد فرض «عليه السلام» على قادة مقدمة جيشه، الإلتزام بعدم الإقدام على أي عمل حربي.. إلا في موردين هما:

الأول: أن يهاجمهما العدو، فيدافعانه ويدفعانه عن أنفسهم.

الثاني: أن يأتيهما الأمر بالقتال منه «عليه السلام».

فدلنا بذلك:

أولاً: على لزوم الإنضباط التام.

ثانياً: أن قرار الحرب بيده وحده، وليس لأحد أن يفتئت عليه فيه. إلا فيما استثناه.

ثالثاً: أن الصورة المستثناة إنما هي مورد الدفاع عن النفس، حيث لا يمكن انتظار القرار ليأتي من موقع بعيد عن ساحة القتال.. فدل ذلك على أن الحرب الدفاعية مشروعة في نفسها.

للبحث صلة:

ونشير أخيراً إلى أن لأمير المؤمنين عليّ «عليه السلام» وصية أخرى كتبها لمعقل بن قيس حين أرسله على رأس مجموعة من المقاتلين إلى بلاد الشام، تحدث فيها عن الموضوعات المتقدمة المرتبطة بتنقلات الجيش. وسنرى أنها تضمنت خصوصيات وأوامر تختلف عن الأوامر التي أصدرها لزياد بن النضر ورفيقه. ربما لاختلاف الظروف والحالات، وطبائع الأشخاص، وغير ذلك.

فلا بد للقارئ الكريم من النظر فيما أوصى به «عليه السلام» معقلاً أيضاً، وضمه إلى ما ذكرناه هنا، لتكتمل الصورة لديه..

ولعلنا نفعل ذلك في فرصة أخرى، إن شاء الله تعالى..

الفصل الثالث:

في الإعداد والاستعداد..

للإختبار معاييره

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد والصلاة والسلام على محمد وآله..

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا

---

(١) الآية ١٠ من سورة الممتحنة.

هُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١).

ونقول:

وردت كلمة الإمتحان في القرآن في هذين الموردين فقط، وقد دلت هذه الآيات المباركة على أمور عديدة، نذكر منها ما يلي:

١ ـ بالنسبة لما ورد في سورة الممتحنة، نقول:

إن أول ما لفت نظرنا: أن آية سورة الممتحنة جعلت امتحان النساء المهاجرات وسيلة لتحصيل العلم بإيمانهن، ليكون ترتيب الآثار على هذا الإيمان المعلوم.

وذكرت الآية المباركة: أن من هذه الآثار التي يراد ترتيبها:

عدم إرجاعهن إلى بلاد الكفر، وتعويض أزواجهن عما أنفقوه عليهن، ثم تأتي أمور أخرى تتفرع على ذلك، ذكرتها الآية المباركة.

وقد دلت هذه الآية أيضاً على ما يلي:

ألف: إن المراد بالعلم في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ هو العلم العرفي، وهو ما يساوق الاطمئنان، وسكون النفس، فهذا هو المبرر للنجاح، ويسمح بترتيب آثاره، وإسناد المسؤوليات، وتولي المناصب.

ولعل حساسية المناصب تزيد من درجة التشدد في النتائج التي تخول إسناد المسؤوليات. فيحتاج حتى إلى أكثر من الاطمئنان والعلم العرفي.

والشاهد على إرادة العلم العرفي: هو قوله تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾.

(١) الآيات ٢ ـ ٥ من سورة الحجرات.

ب: إن الإيمان هو من أفعال القلوب التي يصعب تحصيل العلم فيها، لأن الوسائل إلى كشف ما في القلوب محدودة وقاصرة عن الإيصال إلى اليقين، فلا بد من اللجوء إلى تراكم القرائن، والدلالات، ليتضاءل احتمال الخلاف بصورة تدريجية، حتى يلحق بالعدم واللامعقول..

ج: يلاحظ هنا: أنه تعالى جعل متعلق العلم هو كلمة «مؤمنات».

مما يعني: أن المطلوب هو كشف وإزاحة الستار عن نفس الإيمان، وهو شيء مستقر في القلب..

وهذا يزيد من حجم المسؤولية التي تقع على عاتق من يتولى مهمة الامتحان.

د: إن هذا يعني: أن الإكتفاء بما يكتبه الممتحَن ـ بفتح الحاء ـ على الورق لا يصح، إن لم يكشف عن واقع المضمون، لأن ما يُكتب أو يُسمع قد يكون من الأمور التي تحفظ في الذاكرة إلى أن تؤدي مهمتها في إيصال الكاتب إلى ما يطمح له، أو الناطق به إلى ما يسعى إليه، من خضوعه للامتحان..

فلا بد من التأكد من رسوخ المعاني في القلوب، ومن خضوع النفوس والعقول لها، والتفاعل معها، والاعتزاز والاندماج بها.

هـ: إن ما تترتب عليه الآثار المذكورة في الآية هو العلم بوجود نفس الإيمان.. فلا يكفي الظن بوجوده لنزع المرأة من زوجها، ثم الحكم بحرمتها عليه، وتعويضه عما أنفقه عليها، ثم جواز تزويجها من رجل آخر.

و: ويكشف ما تقدم، عن أن نسبة النجاح في المكتوب والمسموع يجب أن تصل إلى حد يقرب من المئة في المئة، ولا يصح الاعتماد على أية نسبة أخرى.. فلا تكفي الخمسون أو الستون، أو السبعون، أو الثمانون، أو التسعون.

٢ ـ بالنسبة لما ورد في سورة الحجرات، نقول:

ألف: إنه تعالى قد نهى المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وعن الجهر له بالقول كجهر بعضهم لبعض.

ب: إنه تعالى ذكر أن الذين يمتثلون هذه الأوامر ويلتزمون بهذا الأدب الرفيع.. إنما يفعلون ذلك لأنهم مروا بامتحان عملي، واجهوا فيه أموراً صعبة، وقد زاد هذا الإمتحان في قوتهم، وهيأهم لتحمل المسؤوليات الجسام، حين تستقر التقوى في تلك القلوب الطاهرة، والقادرة على تحمل أعباء اختيارهم نيل مقامات القرب والزلفى عند الله.

ونستفيد من هذه الآية: أن الأمانات العظمى، والمسؤوليات الكبرى، لا تعطى جزافاً لهذا أو لذاك، بل لا بد من إعداده العملي، وصقل مواهبه، وكشف طاقاته..

ج: ونستفيد أيضاً: أن الامتحان الكتبي والشفاهي، لا يصح أن يكون هو المعيار في الرد أو القبول..

د: ويستفاد من أن الله تعالى هو الرقيب الدائم، والحسيب الذي لا يغفل: أن الرقابة يجب أن تستمر لحظة بلحظة، ولا يصح الاكتفاء بالاختبار الإعدادي الأول.

هـ: إن الرقابة يجب أن تكون عن قرب، وفي غاية الدقة.

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

الإختبار العملي هو الأنجح

عن عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، عَنْ أَبِيه، عَمَّنْ ذَكَرَه [في عدد من المصادر: عن جماعة من رجاله]، عَنْ يُونُسَ بْنِ يَعْقُوبَ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ الله «عليه السلام»، فَوَرَدَ عَلَيْه رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ صَاحِبُ كَلَامٍ وفِقْه وفَرَائِضَ، وقَدْ جِئْتُ لِمُنَاظَرَةِ أَصْحَابِكَ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام»: كَلَامُكَ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ الله «صلى الله عليه وآله»، أَوْ مِنْ عِنْدِكَ؟!

فَقَالَ: مِنْ كَلَامِ رَسُولِ الله «صلى الله عليه وآله»، ومِنْ عِنْدِي.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام»: فَأَنْتَ إِذاً شَرِيكُ رَسُولِ الله.

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَسَمِعْتَ الْوَحْيَ عَنِ الله عَزَّ وجَلَّ يُخْبِرُكَ؟!

قَالَ: لَا.

قَالَ: فَتَجِبُ طَاعَتُكَ كَمَا تَجِبُ طَاعَةُ رَسُولِ الله «صلى الله عليه وآله»؟!

قَالَ: لَا.

فَالْتَفَتَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام» إِلَيَّ، فَقَالَ: يَا يُونُسَ بْنَ يَعْقُوبَ!

هَذَا قَدْ خَصَمَ نَفْسَه قَبلَ أَنْ يَتكَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: يَا يُونُسُ، لَوْ كُنْتَ تُحْسِنُ الْكَلَامَ كَلَّمْتَه.

قَالَ يُونُسُ: فَيَا لَهَا مِنْ حَسْرَةٍ.

فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، إِنِّي سَمِعْتُكَ تَنْهَى عَنِ الْكَلَامِ وتَقُولُ: وَيْلٌ لأَصْحَابِ الْكَلَامِ، يَقُولُونَ: هَذَا يَنْقَادُ، وهَذَا لَا يَنْقَادُ، وهَذَا يَنْسَاقُ، وهَذَا لَا يَنْسَاقُ، وهَذَا نَعْقِلُه، وهَذَا لَا نَعْقِلُه.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام»: إِنَّمَا قُلْتُ: فَوَيْلٌ لَهُمْ إِنْ تَرَكُوا مَا أَقُولُ، وذَهَبُوا إِلَى مَا يُرِيدُونَ.

ثُمَّ قَالَ لِي: اخْرُجْ إِلَى الْبَابِ، فَانْظُرْ مَنْ تَرَى مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ فَأَدْخِلْه.

قَالَ: فَأَدْخَلْتُ حُمْرَانَ بْنَ أَعْيَنَ، وكَانَ يُحْسِنُ الْكَلَامَ، وأَدْخَلْتُ الأَحْوَلَ، وكَانَ يُحْسِنُ الْكَلَامَ، وأَدْخَلْتُ هِشَامَ بْنَ سَالِمٍ، وكَانَ يُحْسِنُ الْكَلَامَ، وأَدْخَلْتُ قَيْسَ بْنَ الْمَاصِرِ، وكَانَ عِنْدِي أَحْسَنَهُمْ كَلَاماً، وكَانَ قَدْ تَعَلَّمَ (لعل الصحيح: قد تُعُلِّمَ) الْكَلَامَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ «عليه السلام».. فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِنَا الْمَجْلِسُ، وكَانَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام» قَبْلَ الْحَجِّ يَسْتَقِرُّ أَيَّاماً فِي جَبَلٍ فِي طَرَفِ الْحَرَمِ فِي فَازَةٍ لَه مَضْرُوبَةٍ قَالَ: فَأَخْرَجَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام» رَأْسَه مِنْ فَازَتِه، فَإِذَا هُوَ بِبَعِيرٍ يَخُبُّ، فَقَالَ: هِشَامٌ ورَبِّ الْكَعْبَةِ.

قَالَ: فَظَنَنَّا أَنَّ هِشَاماً رَجُلٌ مِنْ وُلْدِ عَقِيلٍ كَانَ شَدِيدَ الْمَحَبَّةِ لَه.

قَالَ: فَوَرَدَ هِشَامُ بْنُ الْحَكَمِ، وهُوَ أَوَّلُ مَا اخْتَطَّتْ لِحْيَتُه، ولَيْسَ فِينَا إِلَّا مَنْ هُوَ أَكْبَرُ سِنّاً مِنْه.

قَالَ: فَوَسَّعَ لَه أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام» وقَالَ: نَاصِرُنَا بِقَلْبِه ولِسَانِه

وَيدِه، ثُمَّ قَالَ: يَا حُمْرَانُ كَلِّمِ الرَّجُلَ.

فَكَلَّمَه، فَظَهَرَ عَلَيْه حُمْرَانُ، ثُمَّ قَالَ: يَا طَاقِيُّ(١) كَلِّمْه، فَكَلَّمَه، فَظَهَرَ عَلَيْه الأَحْوَلُ.

ثُمَّ قَالَ: يَا هِشَامَ بْنَ سَالِمٍ، كَلِّمْه فَتَعَارَفَا..

ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام» لِقَيْسٍ الْمَاصِرِ: كَلِّمْه.

فَكَلَّمَه، فَأَقْبَلَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام» يَضْحَكُ مِنْ كَلَامِهِمَا مِمَّا قَدْ أَصَابَ الشَّامِيَّ، [في نص آخـر: وأقبل أبو عبد الله «عليه السلام» يتبسم من كلامهما، وقد استخذل الشامي في يده] فَقَالَ لِلشَّامِيِّ: كَلِّمْ هَذَا الْغُلَامَ ـ يَعْنِي هِشَامَ بْنَ الْحَكَمِ.

فَقَالَ: نَعَمْ.

فَقَالَ لِهِشَامٍ: يَا غُلَامُ، سَلْنِي فِي إِمَامَةِ هَذَا.

فَغَضِبَ هِشَامٌ حَتَّى ارْتَعَدَ(٢)، ثُمَّ قَالَ لِلشَّامِيِّ: يَا هَذَا، أَرَبُّكَ أَنْظَرُ لِخَلْقِه، أَمْ خَلْقُه لأَنْفُسِهِمْ؟!

فَقَالَ الشَّامِيُّ: بَلْ رَبِّي أَنْظَرُ لِخَلْقِه.

قَالَ: فَفَعَلَ بِنَظَرِه لَهُمْ مَاذَا؟!

---

(١) طاقي: نسبة إلى مكان في بغداد يدعى «باب الطاق»، وكان أبو جعفر الأحول ينسب إليه.

(٢) إنما غضب هشام من سوء أدب الشامي، حيث ذكر الإمام «عليه السلام» باسم الإشارة.

قَالَ: أَقَامَ لَهُمْ حُجَّةً ودَلِيلاً كَيْلَا يَتَشَتَّتُوا أَوْ يَخْتَلِفُوا، يَتَأَلَّفُهُمْ، ويُقِيمُ أَوَدَهُمْ، ويُخْبِرُهُمْ بِفَرْضِ رَبِّهِمْ.

قَالَ: فَمَنْ هُوَ؟! [في نص آخر: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟].

قَالَ رَسُولُ الله «صلى الله عليه وآله».

قَالَ هِشَامٌ: فَبَعْدَ رَسُولِ الله «صلى الله عليه وآله»؟!

قَالَ: الْكِتَابُ والسُّنَّةُ.

قَالَ هِشَامٌ: فَهَلْ نَفَعَنَا الْيَوْمَ الْكِتَابُ والسُّنَّةُ فِي رَفْعِ الِاخْتِلَافِ عَنَّا؟!

قَالَ الشَّامِيُّ: نَعَمْ.

قَالَ: فَلِمَ اخْتَلَفْنَا أَنَا وأَنْتَ، وصِرْتَ إِلَيْنَا مِنَ الشَّامِ فِي مُخَالَفَتِنَا إِيَّاكَ؟!

قَالَ: فَسَكَتَ الشَّامِيُّ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام» لِلشَّامِيِّ: مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟!

قَالَ الشَّامِيُّ: إِنْ قُلْتُ لَمْ نَخْتَلِفْ كَذَبْتُ، وإِنْ قُلْتُ إِنَّ الْكِتَابَ والسُّنَّةَ يَرْفَعَانِ عَنَّا الِاخْتِلَافَ أَبْطَلْتُ، لأَنَّهُمَا يَحْتَمِلَانِ الْوُجُوه، وإِنْ قُلْتُ قَدِ اخْتَلَفْنَا وكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا يَدَّعِي الْحَقَّ فَلَمْ يَنْفَعْنَا إِذَنِ الْكِتَابُ والسُّنَّةُ.. إِلَّا أَنَّ لِي عَلَيْه هَذِه الْحُجَّةَ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام»: سَلْه تَجِدْه مَلِيّاً.

فَقَالَ الشَّامِيُّ: يَا هَذَا، مَنْ أَنْظَرُ لِلْخَلْقِ، أَرَبُّهُمْ أَوْ أَنْفُسُهُمْ؟!

فَقَالَ هِشَامٌ: رَبُّهُمْ أَنْظَرُ لَهُمْ مِنْهُمْ لأَنْفُسِهِمْ.

فَقَالَ الشَّامِيُّ: فَهَلْ أَقَامَ لَهُمْ مَنْ يَجْمَعُ لَهُمْ كَلِمَتَهُمْ، ويُقِيمُ أَوَدَهُمْ، ويُخْبِرُهُمْ

بِحَقِّهِمْ مِنْ بَاطِلِهِمْ؟!

قَالَ هِشَامٌ: فِي وَقْتِ رَسُولِ الله «صلى الله عليه وآله»، أَوِ السَّاعَةِ؟!

قَالَ الشَّامِيُّ: فِي وَقْتِ رَسُولِ الله، رَسُولُ الله «صلى الله عليه وآله»، والسَّاعَةِ مَنْ؟!

فَقَالَ هِشَامٌ: هَذَا الْقَاعِدُ الَّذِي تُشَدُّ إِلَيْه الرِّحَالُ، ويُخْبِرُنَا بِأَخْبَارِ السَّمَاءِ والأَرْضِ وِرَاثَةً عَنْ أَبٍ عَنْ جَدٍّ.

قَالَ الشَّامِيُّ: فَكَيْفَ لِي أَنْ أَعْلَمَ ذَلِكَ؟!

قَالَ هِشَامٌ: سَلْه عَمَّا بَدَا لَكَ؟!

قَالَ الشَّامِيُّ: قَطَعْتَ عُذْرِي، فَعَلَيَّ السُّؤَالُ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام»: يَا شَامِيُّ، أُخْبِرُكَ كَيْفَ كَانَ سَفَرُكَ، وكَيْفَ كَانَ طَرِيقُكَ.. كَانَ كَذَا وكَذَا.

فَأَقْبَلَ الشَّامِيُّ يَقُولُ: صَدَقْتَ، أَسْلَمْتُ لله السَّاعَةَ.

فَقَالَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام»: بَلْ آمَنْتَ بِالله السَّاعَةَ. إِنَّ الإِسْلَامَ قَبْلَ الإِيمَانِ، وعَلَيْه يَتَوَارَثُونَ ويَتَنَاكَحُونَ، والإِيمَانُ عَلَيْه يُثَابُونَ.

فَقَالَ الشَّامِيُّ: صَدَقْتَ، فَأَنَا السَّاعَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَه إِلَّا الله، وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله «عليه السلام»، وأَنَّكَ وَصِيُّ الأَوْصِيَاءِ.

ثُمَّ الْتَفَتَ أَبُو عَبْدِ الله «عليه السلام» إِلَى حُمْرَانَ، فَقَالَ: تُجْرِي الْكَلَامَ عَلَى الأَثَرِ فَتُصِيبُ.

والْتَفَتَ إِلَى هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ، فَقَالَ تُرِيدُ الأَثَرَ ولَا تَعْرِفُه.

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى الأَحْوَلِ، فَقَالَ: قَيَّاسٌ رَوَّاغٌ، تكْسِرُ بَاطِلاً بِبَاطِلٍ. إِلَّا أَنَّ بَاطِلَكَ أَظْهَرُ. (أي أنه يظهر على الخصم ويغلبه)

ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى قَيْسٍ الْمَاصِرِ، فَقَالَ: تَتَكَلَّمُ وأَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنَ الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ الله «صلى الله عليه وآله»، أَبْعَدُ مَا تَكُونُ مِنْه، تَمْزُجُ الْحَقَّ مَعَ الْبَاطِلِ، وقَلِيلُ الْحَقِّ يَكْفِي عَنْ كَثِيرِ الْبَاطِلِ. أَنْتَ والأَحْوَلُ قَفَّازَانِ حَاذِقَانِ.

قَالَ يُونُسُ: فَظَنَنْتُ والله أَنَّه يَقُولُ لِهِشَامٍ قَرِيباً مِمَّا قَالَ لَهُمَا.

ثُمَّ قَالَ: يَا هِشَامُ، لَا تَكَادُ تَقَعُ تَلْوِي رِجْلَيْكَ إِذَا هَمَمْتَ بِالأَرْضِ طِرْتَ، مِثْلُكَ فَلْيُكَلِّمِ النَّاسَ، فَاتَّقِ الزَّلَّةَ، والشَّفَاعَةُ مِنْ وَرَائِهَا، [في بعض المصادر: مِنْ وَرَائِك] إِنْ شَاءَ الله(١).

ونقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

وبعد.. فقد تضمنت هذه الرواية المباركة أموراً مهمة يحسن الوقوف عندها، نذكر منها ما يلي:

١ ـ إن هذا الرجل الشامي قد ادَّعى لنفسه أمراً عظيماً، كان لا بد من

---

(١) الكافي ج١ ص١٧١ ومدينة المعاجز ج٥ ص٢٦٥ ومرآة العقول ج٢ ص٢٦٨ والإحتجاج ج٢ ص٢٧٧ ـ ٢٨٢ والإرشاد للمفيد ج٢ ص١٩٣ ـ ١٩٩ ومناقب آل أبي طالب (باختصار) ج٤ ص٢٤٣ وإعلام الورى ج١ ص٥٢٩ ـ ٥٣٤ وبحار الأنوار ج٢٣ ص٩ وج٤٧ ص١٥٧ و ٢٤٧ وج٤٨ ص٢٠٣.

الكشف عنه، لاسيما وأن هذا الادِّعاء له مساس بعقائد الناس وبدينهم، ومواريثهم وشرائعهم. فبادر الإمام «عليه السلام» إلى تسديد الضربة القاصمة لهذه الدعوى، من خلال استدراجه من أهون وأقصر سبيل، وظهر بطلان ما ادَّعاه لنفسه من صناعة الكلام، على قاعدة: من فمك أدينك. التي هي من أهم طرق الاستدلال وأيسرها.

٢ ـ اعتمد الإمام الصادق «عليه السلام» على محاصرة الشامي بالاستفادة من المشتركات التي تستأسر لها العقول، ولا تجد عنها محيصاً.

فالشامي يعتبر نفسه مسلماً، موحداً، ويدَّعي أنه خبير بالكلام، وبالفقه، وفرائض المواريث، وقد وقع في الهفوة القاتلة في السؤال الأول، حين ألزمه «عليه السلام» بما يقتضيه كلامه، الذي لا يستقيم إلا إذا كان يدَّعي أنه شريك لرسول الله «صلى الله عليه وآله»، ثم توالت الأسئلة التي تفرغ ما يأتي به من أي قيمة، فهو لم يسمع من النبي «صلى الله عليه وآله»، ولا أخذ من الوحي، ولا تجب طاعته. وبذلك يفقد كلامه هذا أية قيمة.

٣ ـ لقد مثل حوار الشامي مع الإمام صدمة عظيمة جداً له. ولعله «عليه السلام» رآه مستحقاً لهذه الصدمة، لأنه يمارس البغي، والادعاء الباطل على أهل الحق، ليدحض به حقهم. فكان جزاؤه من جنس عمله.

٤ ـ إن الامتحان لا يكون منصفاً إذا كان يتجاهل ما يدَّعيه الممتحن لنفسه، بل يكون من الحوار الباطل أيضاً.. لأن السكوت عنه سوف يوهم الآخرين إمكان أن يكون محقاً فيما يدَّعيه.. وهذا يعطيه الفرصة لتسويق ضلالاته وترَّهاته.

٥ ـ إن هؤلاء الرجال الخمسة الذين ذكرت أسماؤهم، وهم:

١ ـ حُمْرَانَ بْنَ أَعْيَنَ.

٢ ـ مؤمن الطاق (محمد بن النعمان الأَحْوَلَ).

٣ ـ هِشَامَ بْن سَالِمٍ.

٤ ـ قَيْسَ بْن الْمَاصِرِ.

٥ ـ هِشَامَ بْن الحكم.

هم من النموذج الأرقى من أصحاب الإمام «عليه السلام» في ضمن الفئة التي تتصدى للمناظرة والكلام مع أرباب المذاهب الأخرى، ولهم مكانة متميزة، واحترام عظيم عند المؤالف والمخالف.

لكن عظمتهم ومكانتهم، وتقدمهم هذا، لم يمنع الإمام «عليه السلام» من الإشراف على عملهم، وتثمين أدائهم، وبيان مؤاخذاته الإصلاحية عليه، حيث يفترض أن تكون هذه الملاحظات من أسباب فرحهم، لأنها تسهم في تحسين أدائهم، ومضاعفة قوتهم في نصرة دينهم.

وعلينا نحن أيضاً: أن لا تمنعنا مكانة الأشخاص، ومواقفهم، من اختبار جدارتهم، وبيان مواضع ضعفهم لهم، لكي تكون معرفتهم بها من أسباب رقيهم في أعمالهم.

٦ ـ وهنا درس آخر نستفيده من تصدي الإمام نفسه لمراقبة، وتقييم عمل هؤلاء الصفوة، وهـو: أن لا يوكل أمر اختبار الطبقة القيادية، وأي طبقة أخرى يراد لها أن تكون في المواقع الحساسة، إلى أقرانها..

فإن كل إنسـان إنما يقوِّم الآخرين من موقع المقارنة بنفسه، والموافقة

لأحواله، ومـا لديه من طرائق، ومن خبرات، بل لا بد وأن يُجري الاختبار الأرقى للأدنى.

٧ ـ على القائد: أن يصارح من اختبرهم بالنتائج التي توصل إليها.

٨ ـ على القائد أيضاً: أن يجهر بالنتائج أمام جميع من جرى الإختبار لهم، مهما كانت قاسية وصعبة بالنسبة لبعضهم، لكي تكون درساً للجميع، يأخذون ما فيها من إيجابيات، ويتحاشون السلبيات التي وقع فيها أي واحد منهم، لأن سنخ المطلوب من جميعهم واحد، فلا بد من دلالتهم على موارد خروجهم عـن المسـار الصحيح.. لكي تكـون اهتماماتهم في صـياغة برامجهم المستقبلية، وتنمية قدراتهم، وفق ما عرفوه في هذا الاختبار، فتكون نقطة تحول حقيقي في بناء شخصيتهم القيادية، وتصحيح مسارهم.

٩ ـ إن هذا الاختبار لم يكن نظرياً، بل كان عملياً تطبيقياً، فهو يشبه أستاذاً في الطب، يشرف على أعمال تلامذته، ثم يدلهم على مواقع الخلل فيها، ويضمِّن توجيهاته لهم فوائد وعوائد يرى أنه يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار.

١٠ ـ على أساس هذا الاختبار تعطى شهادة الصلاحية، لكل فرد منهم، ووضعه في الموقع الذي يناسبه، حسبما أرشدت إليه نتائج هذا الاختبار، ثم يتم تحويل المهام إلى الناجح، بمرسوم صادر ممن أجرى الاختبار نفسه.

١١ ـ يلاحظ: أنه «عليه السلام» لم يقل لهشام: كلِّم الناس أنت، بل أصدر قاعدة عامة، جعل هشاماً أحد المشمولين لها، حيث قال له: «مِثْلُكَ فَلْيُكَلِّمِ النَّاسَ».

وهذا درس مفيد لنا أيضاً في اختيار مواد الإختبار، والتقليم والتطعيم

في العناصر التي يجب التركيز عليها فيه.

١٢ ـ وجدنا أن ملاحظات الإمام «عليه السلام» على تلك الصفوة لم تتجاوز دائرة اختصاصاتهم، وكأنها وضعت الحدود، وبيَّنت القيود، وأوضحت الأسس التي لا بد من مراعاتها والانطلاق منها.

وهذا يحتم علينا نحن أيضاً: أن نراعي ونلتزم بهذه الأمور ولا نتجاوزها.

١٣ ـ إن كلام الإمام لأصحابه صريح بأنهم جميعاً، فرداً فرداً، قد غلبوا ذلك الشامي في مناظرتهم له..

ولكن الإمام لم يقتصر على هذا، بل بيَّن لهم فرداً فرداً، قيمة كلامهم في ميزان الحق والباطل، لكي يلزمهم بالتزام الطريقة الصحيحة.. لأن ما يهمه «عليه السلام» هو الحق، وحفظه لكل أحد حتى للخصوم، ما داموا في خط السلامة والمسالمة، ولا يهمه الغلبة على المخالف لمجرد الغلبة، حتى لو أوجبت تأييد الحق.. لأن قوة وقيمة الحق كامنة في نفسه، فتحتاج إلى مجرد الإظهار..

١٤ ـ إن من ينجح بالاختبار لا يصبح معصوماً من الزلل، فإن الزلل يبقى متوقعاً منه.. وهذا يحتم عدم الاستنامة له في جميع ما يقول ويفعل..

بل تجب مطالبته الدائمة بالحذر من الزَلّة، ومراقبته، فإن وقعت منه، تحمل مسؤولية ذلك.

١٥ ـ يلاحظ: أن من نجح في الامتحان اثنان، هما: حمران بن أعين بدرجة جيد، أو جيد جداً، وهشام بن الحكم بدرجة امتياز.

١٦ ـ إن الاستغراق في أمر بعينه، وفصله عن العوامل الأخرى التي يجب أن تكون هي المرتكز، والمعيار، ويفترض أن تكون من المسلمات واليقينيات

التي تفرض نفسها توضيحاً أو تصحيحاً ـ إن هذا الإستغراق ـ يؤدي إلى الوقوع في مزالق قد توصل إلى المهالك.

وهذا ما أشار إليه الإمام «عليه السلام» بقوله: «فَوَيْلٌ لَهُمْ إِنْ تَرَكُوا مَا أَقُولُ، وذَهَبُوا إِلَى مَا يُرِيدُونَ».

وذلك لأن الفنَّ الذي يمارسونه، وهو صناعة الكلام، يقوم على التشبث بالمشهورات، والمسلمات بين المتحاورين، لتكون هي التي تفصل النزاع في عملية البحث والإحتجاج والاستدلال.

وهذا يعني: أن المسلم، المعتقد بالإمامة لا يحق له اعتماد آرائه وترك اليقينيات التي هي أقوال أئمته «عليهم السلام»، وأقوال النبي «صلى الله عليه وآله»، وما نص عليه القرآن، بل عليه أن يعتمد هذه المسلمات في براهينه، ما وجد إلى ذلك سبيلاً. بل يجب اعتمادها كمرجعية نهائية وفاصلة أيضاً.

١٧ ـ إن الأكثر خطورة من ذلك كله: أن يضع فريق نصب أعينهم أهدافاً بعينها، يريدون تكريسها بأية حيلة ووسيلة، ولو لم تكن مرضية لإمامهم، فمن كان هذا حاله، فهو تابع لهواه، عاصٍ لأمر مولاه، ولا يرجى منه خير ولا صلاح، ولا نجاح أو فلاح.

وهذا ما أشار إليه «عليه السلام» بقوله الآنف الذكر: «وَذَهَبُوا إِلَى مَا يُرِيدُونَ».

وهذا درس مهم، ينبغي الاستفادة منه في جميع الحالات، فليس لأحد أن يبحث عن تحقيق غاياته هو، بل عليه أن يحقق غايات إمامه وقائده، ودينه وقرآنه، واعتماد منطق هؤلاء، لا اعتماد أهوائه.

١٨ ـ إنه «عليه السلام» جعل ترك قوله من قبل جماعة والاستعاضة

عنه بالكلام.. معناه الرضا باتباع الأوهام والظنون، وترك الحق الذي لا محيص عنه.. وهو قوله «عليه السلام»: «وَذَهَبُوا إِلَى مَا يُرِيدُونَ». أي اتباع الظنون والأوهام. وهذا مدان ومرفوض في مختلف الشؤون.

١٩ ـ قد يقال: يفهم من الرواية: أن قيس الماصر قد تعلم الكلام من الإمام زين العابدين «عليه السلام»، فكيف يمزج الحق بالباطل، ويكون قفازاً (أي وثاباً حاذقاً)؟! وكيف يكون أقرب ما يكون من الخبر أبعد ما يكون منه؟! كما ورد في كلام الإمام الصادق «عليه السلام».

ويجاب:

بأننا لم نتحقق من أن قيس بن الماصر قد أدرك الإمام السجاد «عليه السلام»، فلعل كلمة تعلم في قوله: «وكَانَ قَدْ تَعَلَّمَ الْكَلَامَ مِنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ «عليه السلام» مبنية للمجهول، فهي «تُعُلِّم» بضم التاء والعين، وكسر اللام المشددة، وليست مبنية للمعلوم.

فيكون المراد: أن هذا العلم قد أُخِذَ من الإمام السجاد «عليه السلام»، دون تحديد لمن أخذه، وهل هو فرد، أو جماعة.

٢٠ ـ إن ما كان شائعاً ولا يزال، من أن الكلام والمناظرة لا يحتاج إلى تعليم، لأنه يعتمد القياسات والاستحسانات، وحسن التخلص من الأمور المحرجة، ولو بالإيهام والتمويه، والتعمية للسبل التي توصل إلى الحق، ـ إن هذا ـ غير صحيح، لأنه يعني أن هذا ليس هو علم الكلام الذي يوصل إلى الحق، بل هو أضاليل وأباطيل تزيد الحق بعداً، والباطل حضوراً وقرباً.

أما الكلام الذي يتحدث عنه الإمام «عليه السلام» ويمارسه أصحابه،

فهو علم يوصل إلى الحق، وهو يحتاج إلى تعليم، وتحديد لمصادر المعرفة، والتزام بها، ومعرفة بالأحاديث الثابتة التي يعترف الخصم بثبوتها، فضلاً عن الآيات، وكذلك ما أجمعت عليه الأمة.

ولا يقبل استعمال الباطل، والأضاليل فيه.

٢١ ـ يلاحظ: أن هذا الاختبار العملي التطبيقي قد جاء مفاجئاً للتلامذة، ولم يسبقه إخبار لهم، أو استعداد منهم، أو إعداد أو مراجعة، أو فرصة لصياغة الحجج، واختيار الموضوعات.

٢٢ ـ إنه «عليه السلام» حين استحضر هؤلاء الخمسة لمناظرة ذلك الرجل طلب إدخال أي متكلم حاضر خارج الباب، ولم يسمِّ أسماء معينة، ولم يستثنِ أحداً ممن أدخلهم عليه.

٢٣ ـ إن نتائج هذا الاختبار جاءت على خلاف ما توقعه يونس بن يعقوب، ولم نجد أحداً من هؤلاء الصفوة، قد اعترض أو ناقش، أو سأل، أو أبدى عذراً عن الخطأ الذي سجله عليه الإمام «عليه السلام». وهذه دروس أخرى لا بد من التأكيد عليها.

فما نشهده في أيامنا هذه من محاولة البعض الاعتراض على النتائج، أو الاعتراض على الجهر بها أمام سائر الزملاء، أمر غير مقبول.

٢٤ ـ إن هشام بن الحكم الذي كان فتى في مقتبل عمره، لم يمنع ذلك من إعلان فوزه وتقدمه على من هم أكبر منه سناً.

وحين أعلن الإمام «عليه السلام» فوز هشام على هؤلاء لم نشعر أن أحداً منهم تلوَّم من هذه النتيجة، ولا ظهر منه ما دل على أدنى درجة من

عدم الرضا، أو الحسد لهذا الشاب الناجح.

كما أن أحداً منهم لم يُظْهِر تشكيكاً بموقف ومؤهلات هشام، أو ربماً في نصرته أهل البيت بقلبه ولسانه ويده.

٢٥ ـ ذكرت الرواية: أن الإمام «عليه السلام» حين رأى الشامي قد استخذل في يد قيس الماصر أقبل يبتسم [يضحك] من كلامهما.

مع أن الإمام «عليه السلام» قد سجل مؤاخذة على قيس بعد ذلك، مفادها: أنه يمزج الحق بالباطل.. مع أن قليل الحق يكفي عن كثير الباطل. فكيف نجمع بين هذين الأمرين؟!

ونجيب:

بأن تبسُّمه «عليه السلام» إنما هو من حيث إن الشامي قد قطع المسافات الشاسعة محاولاً أن يجادل بالباطل ليدحض به الحق، وإذ به قد أصيب بأعظم الخيبات المذلة، حتى على يد من يخلط الحق بالباطل أيضاً.

وحتى على يد فتى في مقتبل العمر، حيث جاءته الضربة القاضية من قِبَلِ هشام بن الحكم الذي لا نجد في جميع ما تفوه به غير الحق. ولم يمتد الكلام بينهما إلا إلى بضع دقائق فقط.

٢٦ ـ إن للكلام والمناظرة شروطاً، منها: عدم المكابرة، ومنها: إنصاف الخصم، ومنها: الاستدلال عليه بالمسلمات.

وهذا ما لم يراعه هشام بن سالم بصورة دقيقة، كما أشير إليه بقوله «عليه السلام» له: «تُرِيدُ الأَثَرَ ولَا تَعْرِفُه». فإن المراد بالأثر: هو السنَّة المنقولة عن النبي «صلى الله عليه وآله»، لأن المحاور يخضع لهذا الأثـر. وعدم معرفة هشام

بهذا الأثر، يفقده حجة تحسم الأمر، وتنهي المناظرة.

وهذا من موارد الضعف غير المقبول.

٢٧ ـ لا يصح الاعتماد في إيكال المهمات على حسن الظن، بل لا بد من الاختبار الدقيق للخبرات والمؤهلات.

٢٨ ـ كما لا بد من المراقبة المستمرة لضمان بقاء المواصفات على ما هي عليه، لأن الإنسان كما يتطور للأحسن، قد يتحول للأسوأ.

وقد تجد من يضل أو يهتدي في أواخر عمره.

٢٩ ـ دلت هذه الرواية على أنه يحق للأستاذ أن يصرِّح أمام الآخرين بما يزعج تلميذه، ويدل على مواضع ضعفه، بهدف دفعه للتدارك والإصلاح، حتى لو كان ذلك الغير هو الخصم الذي فرغ من مناظرته للتو.

٣٠ ـ قوله «عليه السلام» لهشام بن الحكم: «والشَّفَاعَةُ مِنْ وَرَائِهَا»، أو مِنْ وَرَائِك. يدل على أن خطأ العالم الحاذق، الباذل للجهد في المناظرة والحوار ليس مغفوراً، بل يطالب به، ويحاسب عليه، ربما لأن هذا الخطأ سيكون خطيراً جداً، لأنه قد يوقع في الشبهات والمهالك، فهو ليس كالخطأ في أي أمر آخر.

ولذلك لا بد من بذل غاية الجهد لتحاشي أي خطأ، أو زلة، فإن الزلة هنا قد تعني الهلاك.

٣١ ـ ومما يجدر ذكره: هو مبادرة الإمام الصادق «عليه السلام» إلى تسجيل تحفظ على كلام الشامي، فدل بذلك على ضرورة رصد ما يتفوه به جليسه، لأن السكوت عن بعض ما يقوله جليسه قد يوقع سامعه الساكت

عنه في مشكلة، بل قد تنال هذه المشكلة في تبعاتها وآثارها أمة من الناس تدين الله بالاعتقاد بإمامته، وتعتقد بعصمته «عليه السلام»..

وقد يكون الإشكال في لوازم الكلام، لا في الكلام نفسه.

فإن لازم قول الشامي: أَسْلَمْتُ للهِ السَّاعَةَ: أنه لم يكن مسلماً قبلها.

وهذا يتضمن الحكم بالكفر على من لم يعتقد بإمامة الإمام الصادق «عليه السلام».. فإذا اعتبر سكوت الإمام الصادق عن التوضيح أو التصحيح رضا بمضمونه، فيكون أيضاً قد حكم بالكفر على من لم يأخذ بهذا الاعتقاد، وقد يكون هذا الأمر من أسباب الفتن الكبرى في الأمة.

فلا بد للقائد، من أن يراقب كلام ولوازم كلام جليسه، فضلاً عن كلامه نفسه.

نحتاج إلى الفرق الاستشهادية..

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد..

فقد ذكروا ما يلي:

١ ـ أن علياً «عليه السلام» قد أنشأ فرقة خاصة سماها «شرطة الخميس».

والخميس: الجيش. سمي بذلك، لأنه مؤلف من خمسة أقسام: المقدمة، والساقة، والميمنة، والميسرة، والقلب.

والشَرَط ـ بفتحتين ـ الجند. وشرط السلطان: نخبة أصحابه.

٢ ـ إن الفرقة التي أنشأها أمير المؤمنين «عليه السلام» كانت مؤلفة من ستة آلاف رجل(١).

---

(١) راجع: إختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ص٥ و ٦ و (نشر مؤسسة آل البيت لإحياء التراث) ج١ ص٢٤ وبحار الأنوار ج٣٤ ص٣٧١ والإختصاص ص٢ ـ ٥ و (ط دار المفيد) ص٧ وراجع: خلاصة الأقوال للعلامة الحلي ص١٩١ و

أو خمسة آلاف رجل[١]. سماها: شرطة الخميس.

٣ ـ هذه الفرقة إستشهادية، ويدل على ذلك النصوص التالية:

ألف: عن علي بن الحكم قال:

أصحاب أمير المؤمنين «عليه السلام» الذين قال لهم: تشرَّطوا، فأنا أشارطكم على الجنة، ولست أشارطكم على ذهب ولا فضة، إن نبينا «صلى الله عليه وآله» فيما مضى قال لأصحابه: تشرطوا، فإني لست أشارطكم إلا على الجنة.

[و][٢] (هم): سلمان الفارسي، والمقداد، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وأبو ساسان، وأبو عمرو الأنصاريان، وسهل البدري، وعثمان بن حنيف الأنصاري، وجابر بن عبد الله الأنصاري..

إلى أن قال: وكان من شرطة الخميس أبو الرضي عبد الله بن يحيى [نجي] الحضرمي، وسليم بن قيس الهلالي، وعبيدة السلماني المرادي، عربي[٣].

كما أن الأصبغ بن نباتة كان من شرطة الخميس، وكان فاضلاً[٤].

---

١٩٢ وقاموس الرجال للتستري ج١١ ص٤٤ ونفس الرحمان ص٣٧٢ ومستدرك سفينة البحار ج٥ ص٣٩.

(١) راجع الهامش السابق.

(٢) يبدو لنا: أن هذه الواو مقحمة، والأولى حذفها.

(٣) بحار الأنوار ج٣٤ ص٢٧١ و ٢٧٢ والإختصاص ص٢ و ٣.

(٤) الإختصاص ص٦٥ وبحار الأنوار ج٣٤ ص٢٨٠.

وكذلك مالك بن حبيب(١).

ب: عن الأصبغ بن نباتة: أن علياً «عليه السلام» كان يقول لهم: تشرَّطوا، تشرَّطوا، فوالله ما اشتراطكم لذهب ولا فضة، وما اشتراطكم إلا للموت. إن قوماً من قبلكم، من بني إسرائيل تشارطوا بينهم. فما مات أحد منهم إلا كان نبي قومه، أو نبي قريته، أو نبي نفسه. وإنكم بمنزلتهم، غير أنكم لستم بأنبياء(٢).

ج: روي: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» قال لعبد الله بن يحيى [نجي] الحضرمي يوم الجمل: فإنك وأبوك من شرطة الخميس حقاً. لقد أخبرني رسول الله «صلى الله عليه وآله» باسمك، واسم أبيك في شرطة الخميس. والله سماكم «شرطة الخميس» على لسان نبيه «صلى الله عليه وآله»(٣).

---

(١) وقعة صفين للمنقري ص١٣٣ وبحار الأنوار ج٨٨ ص٣٨١ وج٩٧ ص٤٥٥.

(٢) إختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ص٣ و ٤ و (ط مؤسسة آل البيت سنة ١٤٠٤ هـ) ج١ ص١٩ و ٢٠ وبحار الأنوار ج٤٢ ص١٥٠ و ١٥١ عنه، وخاتمة مستدرك الوسائل ج٣ ص٢٩٦.

(٣) إختيار معرفة الرجال (رجال الكشي) ص٤ و (ط مؤسسة آل البيت سنة ١٤٠٤ هـ) ج١ ص٢٤ وبحار الأنوار ج٤٢ ص١٥١ ومستدرك سفينة البحار ج٥ ص٣٩٠ وخلاصة الأقوال ص١٩١ و ١٩٢ وسماء المقال للكلباسي ج٢ ص٢٤٦ و ٢٤٧ وقاموس الرجال للتستري ج١١ ص٤٤ ونفس الرحمن في فضائل سلمان ص٣٧٢.

وفي الإختصاص: سماكم الله به في السماء[١].

وسأل رجل الأصبغ بن نباتة: كيف سميتم «شرطة الخميس» يا أصبغ؟!

فقال: إنَّا ضمنا له الذبح، وضمن لنا الفتح[٢].

فوائد وعوائد:

وبعدما تقدم نقول:

إن الإمام «عليه السلام» هو الأسوة والقدوة لنا في مختلف الأمور. وهذه النصوص تعطينا دروساً قيمة نافعة في الموضوعات التي أشارت إليها. فإنشاء فرقة من هذا القبيل فيه الكثير من الفوائد، والعوائد، التي تفتح أمام أهل الخبرة أبواباً واسعة، ليطل منها على واحات شاسعة، حافلة بالكثير الطيب..

ونذكر هنا من هذه الأمور ما يلي:

مهمات هذه الفرقة:

١ ـ قالوا: إن هذه الفرقة هم أول طائفة من الجيش تشهد الوقعة[٣]،

---

(١) الإختصاص ص٧ وبحار الأنوار ج٣٤ ص٢٧٤.

(٢) الإختصاص ص٦٥ وبحار الأنوار ج٤٢ ص١٨٠ و ١٨١ عنه، ومستدرك سفينة البحار ج٥ ص٣٩٠ و ٣٩١ ونهج السعادة ج٧ ص٤٦٣ ومجمع البحرين ج٢ ص٤٩٩.

(٣) راجع: النهاية في غريب الحديث ج٢ ص٢١٣ و (ط مؤسسة إسماعيليان) ص٤٦٠ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٦٣٢ وج٤٢ ص١٥١ وج٦٥ ص٤٤.

وزاد الفيروزآبادي قوله: وتتهيأ للموت[1].

وفي حديث ابن مسعود: «وتشرَّط شرطة للموت، لا يرجعون إلا غالبين»[2].

وهذا يعطي: أن تشكيل فرقة استشهادية مشتهرة بالشدة، والإقدام على الموت، وتتهيأ له، أمر مطلوب.

٢ ـ وينبغي أن تكون هذه الفرقة هي أول من يشهد الوقعة، فإن ذلك يكبت العدو، ويربكه إلى حد كبير.. لأنه سوف يتأكد لديه: أنه لا يوجد أنصاف حلول، ولا تنازلات، ولا مجال للمساومة..

٣ ـ إنها تشد عزائم الجيش، وتمنحه المزيد من الشجاعة والإقدام، وتمنحه الطمأنينة والسكينة.

٤ ـ إن علياً «عليه السلام» كان يستعين بهذه الفرقة بالذات لحل العقد الصعبة في حروبه، ولاسيما في صفين.. وهذه وظيفة يحتاج الجيش المحارب إلى نظائرها في الأزمات والشدائد. وتكون كقوة تدخل سريع، وقادرة على حسم الأمور لمصلحة أهل الحق والإيمان حين يحتاج الأمر إلى ذلك.

٥ ـ إنها يجب أن تكون قوة ضاربة، ذات أعداد تتناسب في حجمها

---

(١) القاموس المحيط ج٢ ص٣٦٨ وبحار الأنوار ج٤٢ ص١٥١ وج٥٨ ص٢٥٠ وتحفة الأحوذي ج١٠ ص٢٣٦ ولسان العرب ج٧ ص٣٣٠ ومجمع البحرين ج٢ ص٤٩٩ وتاج العروس ج١٠ ص٣٠٧.

(٢) بحار الأنوار ج٤٢ ص١٥١.

وكثرتها مع الحاجات الكبرى التي يفرضها حجم التحدي ومداه، في المحيط الذي يفترض أن يهيمن عليه الأمن والسلام بصورة كافية.

وعلى هذا، فإذا كانت الفرقة الاستشهادية عند علي «عليه السلام»، المسماة بشرطة الخميس ستة آلاف، لأنه كان يحتاج إلى هذا العدد بملاحظة حجم التحدي، فلعلنا نحن نحتاج في بعض الظروف إلى أكثر من عشرة أضعاف هذا العدد.

سمات شرطة الخميس:

ذكرت الروايات المتقدمة: أن الذين كانوا نواةً لشرطة الخميس هم: سلمان الفارسي، والمقداد، وأبو ذر، وعمار، وجابر بن عبد الله الأنصاري، والأصبغ بن نباتة، وعثمان بن حنيف، وآخرون..

ويلاحظ: أن هؤلاء هم:

١ ـ القمة في الوعي الإسلامي.

٢ ـ إنهم أشد الناس إخلاصاً لهذا الدين، وحرصاً وغيرة عليه، وتفانياً في سبيله.

٣ ـ هم أكثر الناس التزاماً بالأحكام.

٤ ـ إنهم أفقه الناس، وأعرفهم بحقائق الدين، وأنفذهم بصيرة فيه.

٥ ـ إنهم الثمرة الأرقى والأنقى لجهود النبي «صلى الله عليه وآله»، وعلي «عليه السلام»، ولم يكن في عصرهم أفضل منهم.. وعلى الأقل: إن بعضهم كان في الإيمان في الدرجة السابعة، أو الثامنة، أو العاشرة، وبعضهم عده رسول الله «صلى الله عليه وآله» من أهل البيت.

٦ ـ هم أعبد وأتقى الناس.

٧ ـ هم صفوة هذه الأمة، ورموزها التي يباهي بها النبي الكريم، وأوصياؤه «صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

٨ ـ إنهم أزهد الناس بهذه الدنيا، وأشد تطلعاً للآخرة، كما دل عليه قبولهم لما شرطه الله ورسوله ووصيه عليهم.

٩ ـ إنهم أهل الشجاعة والإقدام.

١٠ ـ هم أهل العقل والحكمة، وذوو الرأي.

١١ ـ هم الأقرب إلى النبي والإمام، والأعز عليهما، والأكثر حظوة لديهما.

١٢ ـ وكل ذلك يدلنا: على أن على القائد أن لا يحتفظ بمن يحبه، ويرمي بمن عداه إلى مواضع الخطر، بل العكس هو الصحيح.

١٣ ـ **إن هذا يعطي**: أن أي كتيبة يراد منها أن تأخذ موقع شرطة الخميس يجب أن تحمل هذه المواصفات، وأن تظهر عليها هذه السمات.

الشروط المتبادلة:

دلتنا النصوص المتقدمة: على أن النبي «صلى الله عليه وآله» وعلياً «عليه السلام» قد جعلا من شرائط الدخول في هذا السلك: أن يرضى بأمرين، وقد أُخِذَ العهد عليهم بالالتزام بهما من قبل الله تعالى، ورسوله «صلى الله عليه وآله»، ومن علي «عليه السلام»، وهما:

الأول: أن لا يشترطوا شيئاً من حطام الدنيا، كالذهب والفضة، ليكون هو المكافأة لهم على تضحياتهم، وإنجازاتهم، بل يشترطون أن تكون الجنة

مكافأتهم.

أي أنه «عليه السلام» لا يكافئهم بغير الجنة، ولا يقبل منهم أن يشترطوا أي شيء آخر من حطام الدنيا.

الثاني: أن يكون ثمن هذه الجنة هو الموت في سبيل الله، وقبول الذبح، مقابل الفتح، والفوز والفلاح. فهم إذن، فرقة استشهادية بهذا المعنى..

ومن الواضح: أن نفس معرفة العدو بوجود فرقة هذه أحوالها، وتلك صفاتها، التي هي حصيلة جهاد وجهود سيد الأنبياء، وسيد الأوصياء. وأن الله ورسوله ووصيه قد رضوا بأن يضحوا بهؤلاء في سبيل دينهم، وبلوغ أهدافهم، التي لا ربط لها بالدنيا.. ـ إن ذلك ـ سوف يوجب استيلاء اليأس والإحباط على الأعداء، ويدركون أنه لا سبيل لهم إلى ضمان بقائهم أحياء، إذا كان ثمن ذلك هو قتل هؤلاء الألوف من الناس الذين سيساعدهم أضعافهم ممن هم على رأيهم، وما أكثرهم في الأمة الإسلامية بأسرها.

يضاف إلى ذلك: أن وجود هذه الفرقة سوف يمنح أهل الحق المزيد من الأمل بالنصر، والثقة بالنفس، ومزيداً من البسالة والاندفاع.

متى أسست شرطة الخميس؟!:

غير أن الأسماء التي تقدم ذكرها في رواية علي بن الحكم: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» أمرهم بأن يكونوا في شرطة الخميس كان من بينهم: سلمان، وأبو ذر، والمقداد، وهؤلاء قد ماتوا بين سنة ٣١ و ٣٣ هجرية. أي قبل البيعة لأمير المؤمنين «عليه السلام» سنة ٣٥ للهجرة بسنتين.

وإنما ظهرت شرطة الخميس في أيام خلافته «عليه السلام».

ويجاب:

بأن تبلور شـرطة الخميس كفرقة مقاتلة على النحو الذي تقدم، وإن كان قد تم بعد سنة ٣٥ للهجرة، ولكن ذلك لا يمنع أن يهيئ الإمام «عليه السلام»، وقبله النبي «صلى الله عليه وآله» الأمور قبل ذلك.. ولو لأجل احتمال البيعة له «عليه السلام» بعد سنين، فكيف إذا كان يعلم بذلك، حيث أخبره النبي «صلى الله عليه وآله» بأنه سـوف يحارب الناكثين والقاسطين والمارقين.. فإن هذا يدل دلالة قاطعة: بأنه «عليه السلام» سـوف يلي أمر الأمة، وبأنه سيبتلى بمحاربة من ينكث بيعته.

بل لقد دل «صلى الله عليه وآله» على من سيحاربه بقوله للزبير: ستحاربه، وأنت له ظالم.

وقوله لعائشة حين ذكر صاحبة الجمل: إياك أن تكونيها يا حميراء..

والنصوص المتقدمة تدل على تقدم الحديث عن شرطة الخميس على لسان رسول الله «صلى الله عليه وآله»، بل تقدم: أن الله تعالى هو الذي سماهم بشرطة الخميس في السماء.

ونستفيد من ذلك:

١ ـ أن على القائد: أن يهيئ جميع القدرات والإمكانات التي يحتاجها في حكمه للناس، وابتغاء ما يسعدهم، ويحفظ عزتهم، وكرامتهم، وأمنهم.

٢ ـ إن الإعداد يجب أن يكون شاملاً، فلا يقتصر على السلاح والعتاد، بل يهيئ الكوادر، وأهل الدين والمعرفة، والإخلاص، والعباد الزهاد، المستعدين للتضحية بكل غال ونفيس في سبيل الهدف الأسمى.

٣ـ إنشاء المؤسسات القوية، والقادرة على إيصال الأمة إلى غاياتها الفضلى في الدنيا والآخرة، ولو لأجل قيام احتمال الحاجة إلى هذه المؤسسات بعد سنوات كثيرة.

شرطة الخميس بمنزلة الأنبياء:

وتقدم قول بعض الروايات: إن شرطة الخميس بمنزلة أنبياء طائفة من بني إسرائيل.

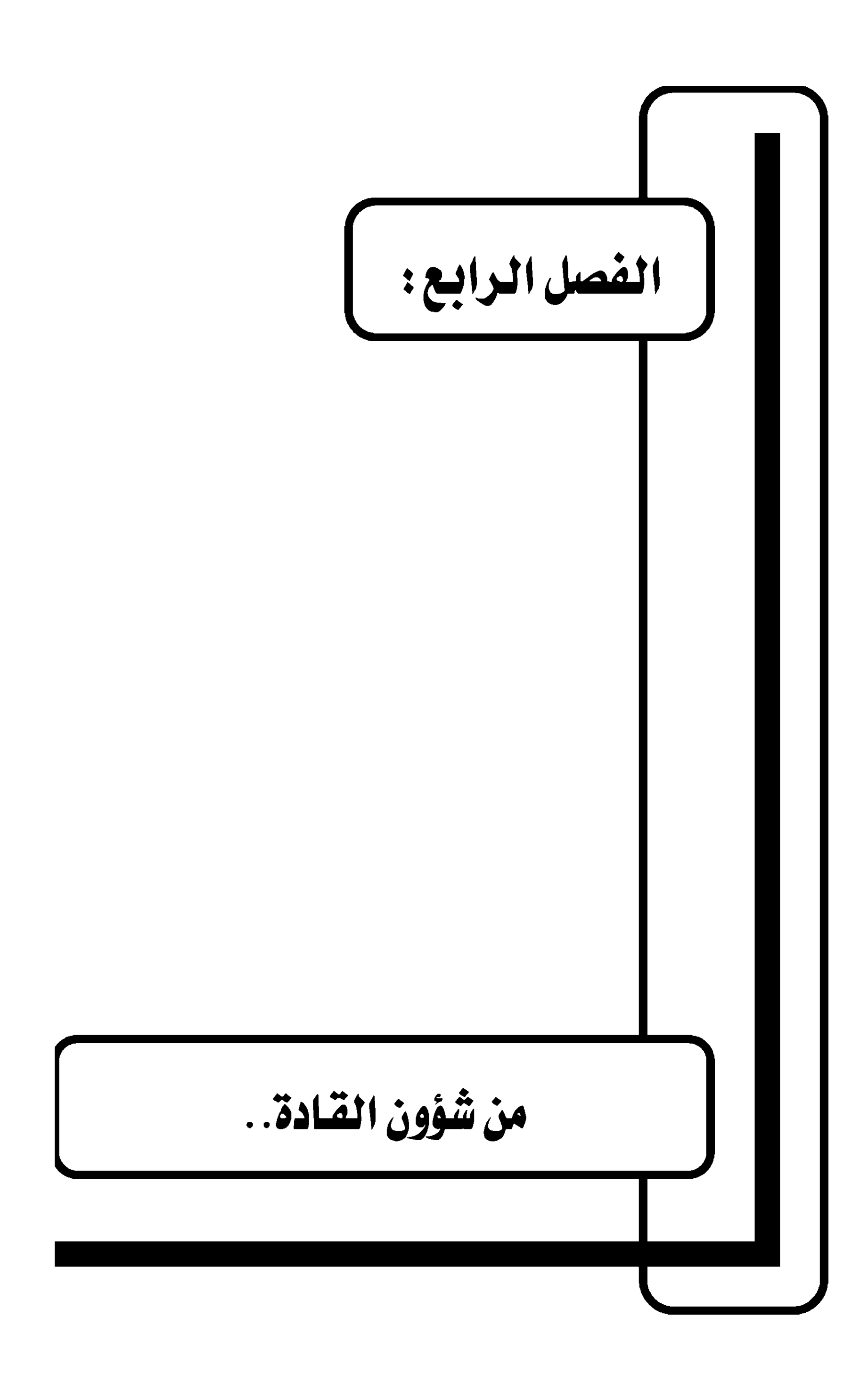
فهذا يقيد إطلاق القول: بأن الأنبياء أفضل من غير الأنبياء مطلقاً[1].

---

(١) كشف الغمة ج٢ ص١٠٠ عن صاحب كتاب الفردوس، واللمعة البيضاء ص٩٦ وبيت الأحزان ص٢٤ وحياة أمير المؤمنين لمحمديان ج١ ص١٠٧ وتفسير القمي ج٢ ص٣٣٨ وحياة الإمام الحسن للقرشي ج١ ص١٥ و ٣٢١ وتلخيص الشافي ج٢ ص٢٧٧ والأنوار القدسية ص٣٦ ووسائل الشيعة ج٢٠ ص٧٤ وج١٤ ص٤٩ ودلائل الإمامة للطبري ص٨٠ وعلل الشرائع ج٢ ص١٧٨ وأمالي الصدوق ص٤٧٤ ونوادر المعجزات ج٦ ص٨٤ وتفضيل أمير المؤمنين «عليه السلام» للشيخ المفيد ص٣٢ ومناقب آل أبي طالب ج٢ ص٢٩٠ والفصول المهمة للحر العاملي ج١ ص٤٠٨ وج٣ ص٤١١ وبحار الأنوار ج٨ ص٦ وج٤٣ ص١٠ و ١٠٧ وإعلام الورى ج١ ص٢٩ وتسلية المجالس وزينة المجالس ج١ ص٥٤٧ ومستدرك سفينة البحار ج٩ ص١٢٦ و ٢٨٨ والإمام علي للهمداني ص١٢٦ و ٣٣٤ ومسند الإمام الرضا للعطاردي ج١ ص٢٤١ وتهذيب الأحكام ج٧ ص٤٧٠ ح٩٠ وص٤٧٥ ح١١٦ ومن لا يحضره الفقيه

ج٣ ص٣٩٣ والكافي ج١ ص٤٦١ وعيون أخبار الرضا ج٢ ص٢٠٣ و (ط أخرى) ج١ ص٢٢٥ والخصال ص٤١٤ والمختصر ص١٣٣ و ١٣٦ وبشارة المصطفى ص٣٢٨ وإحقاق الحق (الملحقات) ج٧ ص١ ـ ٢ وج١٧ ص٣٥ ج١٩ ص١١٧ عن المصادر التالية:

مودة القربى للهمداني (ط لاهور) ص١٨ و٥٧، وأهل البيت لتوفيق أبي علم ص١٣٩ ومقتل الحسين للخوارزمي (ط الغري) ص٩٥ و (ط أخرى) ج١ ص٦٦ والفردوس ج٣ ص٣٧٣ و ٥١٣ والمناقب المرتضوية لمحمد صالح الترمذي، وكنوز الحقائق للمناوي (ط بولاق ـ مصر) ص١٣٣، وينابيع المودة ج٢ ص٨٠ و ٢٤٤ و ٢٨٦.



الفصل الرابع:

من شؤون القادة..

طاعة القائد

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين..

وبعد..

فقد رووا: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» أمر في صفين عبيد الله بن عباس، وعباس بن ربيعة أن لا يُخِلَّا بمراكزهما إلا بإذن منه.

فطلب أحد أهم فرسان أهل الشام مبارزة العباس بن ربيعة، فبارزه، فتمكن العباس بن ربيعة من قتل خصمه، فكبر أصحاب علي «عليه السلام».

فسأل علي «عليه السلام» عن المبارز، فأخبروه أنه العباس بن ربيعة.

فناداه «عليه السلام»، فأجابه، فقال له: ألم آمرك، وآمر عبيد الله بن عباس أن لاتخلوا بمراكزكما في وقت من الأوقات، إلا بأذني؟!

فقال العباس: أفيدعوني عدوي إلى البراز، فلا أخرج إليه؟

فقال علي «عليه السلام»: نعم، إن طاعة إمامك أوجب عليك [أو أولى بك] من مبارزة عدوك.

[قال ابن قتيبة: ثم تغيظ واستشاط، حتى قلت: الساعة، الساعة، ثم تطامن وسكن].

قال: ثم حوَّل وجهه إلى ناحية القبلة، ورفع كفيه، وقال «عليه السلام»: اللهم! لا تنس هذا اليوم للعباس.

فأرسل معاوية اثنين لقتل العباس، ووعدهما بجائزة، فبرزا إلى الميدان، ودعيا العباس بن ربيعة إلى البراز.

فقال العباس: إن لي سيداً حتى أستأذنه.

ثم جاء إلى علي ليستأذنه، فألبسه علي «عليه السلام» ثيابه، وأعطاه سلاحه، وأركبه فرسه، ولبس هو ثياب العباس، وأخذ سلاحه، وركب فرسه، ثم خرج فوقف بين العسكرين، كأنه العباس في زيه، وسلاحه وفرسه ـ كما ذكره ابن أعثم وغيره ـ فقال له الرجلان: أذن لك سيدك!.

فقال علي «عليه السلام»: ليخرج من الكذب: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾(١).

فتقدم إليه أحد الرجلين فضربه علي فقطعه نصفين.

فظن الناس أنه أخطأه. ثم تحرك الفرس، فسقط الرجل ، فغار الفرس، وصار إلى عسكر علي «عليه السلام»(٢).

ثم برز الرجل الآخر، فألحقه بصاحبه(٣). إنتهى بتصرف وتلخيص.

---

(١) الآية ١٩٤ من سورة البقرة.

(٢) غار الفرس: ذهب في الأرض على وجهه.

(٣) الفتوح لابن أعثم (ط الهند) ج٣ ص٢٣٥ ـ ٢٤٣ و (ط دار الأضواء) ج٣ ص١٤١ ـ ١٤٥ وراجع: بحار الأنوار ج٣٢ ص٦٠٠ و ٥٩٣ وتفسير العياشي

ونقول:

لهذا الحديث دلالته الكبيرة والحساسة والمهمة، فلاحظ ما يلي:

١ ـ إن الإخلال بالمركز، والخروج منه إلى غيره، أو الانشغال بأمور أخرى عنه، بعد صدور أوامر القائد بحفظ ذلك الموقع، ـ إن ذلك ـ قد تترتب عليه أخطار جسام، وكوارث عظام، ونذكر من ذلك على سبيل المثال:

ألف: إن ذلك يمثل ثغرة قد يكتشفها العدو المراقب لكل موقع، في كل لحظة، يريد أن يستغل الفرصة لتسديد ضربته الموجعة، بمجرد أن تسنح الفرصة لذلك، والتي قد يكون الضحية فيها نفس هذا الذي أخل بمركزه.

ب: إن ذلك قد يسهل على الآخرين أن يخلُّوا بمراكزهم تحت سمع وبصر الأعداء، طلباً للراحة، أو ظناً منهم بأنه لا ضرورة لها. وربما كثر هذا الإخلال، الأمر الذي يرفع من احتمالات اكتشاف العدو لها أو لبعضها. فترتفع احتمالات الخطر تبعاً لذلك.

ج: إن تحديد القيادة للمراكز والمواقع، وتوزيع المسؤوليات فيها، وضبطها، واطمئنان القيادة إلى حصول الانضباط المطلوب في تلك المراكز،

ج٢ ص٧٩ ـ ٨٠ والبرهان للبحراني ج٢ ص١٠٨ وكشف الغمة ج١ ص٤٥٠ و ٤٥١ ومطالب السؤول ص١٢٤ و (ط أخرى) ص١٦٤ الفصل رقم ٨ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٥ ص٢١٩ ـ ٢٢١ عن عيون الأخبار لابن قتيبة ج١ ص١٧٩ ـ ١٨١ ومروج الذهب ج٣ ص١٨ ـ ٢٠ والدرجات الرفيعة ص١٩٠ و ١٩١.

من شأنه أن يعطيها عزيمة وثباتاً، ويجعلها تنصرف لإنجاز خطتها، على بصيرة من أمرها، وبثقة من نجاحها، فإن العمل العسكري ليس مجرد تصرفات فردية منفصلة ومتناثرة، بل هي كلٌ مترابط، يكون الإخلال ببعضه ولو بمركز واحد، موجباً للوهن في سائر جوانب الخطة، بل قد يكون من أسباب فشلها بجميع مكوناتها.. حيث تسنح الفرصة للعدو لتسديد ضربات مؤلمة، قد يحتاج التخلص من آثارها، وإعادة الأمور إلى نصابها إلى أيام وليالي كثيرة، وإلى جهد مضن، وإعداد، واستعداد كبير، وتضحيات جسام.

د: إذا تحول الإخلال إلى ظاهرة، واستسهله الكثيرون من العناصر الفاعلة، فإن القيادة لا تعود قادرة على ضبط الأمور، وسوف تفشل بملاحقة موارد الإخلال، لوضع العلاجات الناجعة لها، وتلافي سلبياتها.. وسيوقعها ذلك في دوامة لا تعرف نهايتها، ولا منتهى لغايتها، وقد تتلاشى الرغبة لديها باستعادة زمام المبادرة.. ويتركز همها على الدفاع عن الوجود والرضا بالموجود.

ثم يلقي هذا الجو بثقله على المعنويات، ويتحول إلى ضجر، وسأم، وشك، وخوف دائم، ويكون العدو في موقع الآمن الواثق، والمبادر، والقادر على التحرك في كل اتجاه.

هـ: يفهم من قوله «عليه السلام»: إنه أمرهم بأن لا يخلوا بمركز: أن المطلوب هو ضبط جميع المراكز، لا خصوص مركزي عباس بن ربيعة، وعبيد الله بن العباس.

و: كما أن المطلوب هو استمرار هذا الضبط.

ز: ولعل سبب ذلك: أن الإنسان قد يضبط مركزه، ولكنه يخل بمركز غيره، كما لو طلب من ذلك الغير أن يقضي له حاجة، أو شغله عن مهماته بمطايبات، أو بأنواع من المزاح والتهريج، أو ما إلى ذلك.. وقد يغضبه ويدفعه إلى التخلي عن مركزه حنقاً، أو استهتاراً، أو نحو ذلك..

٢ ـ إنه «عليه السلام» قال لهم أيضاً: ولا تباشروا حدثاً.

وذلك لما يلي:

ألف: إن أي حدث يقدم عليه العناصر بقرار من عند أنفسهم، ومن دون رجوع إلى القيادة، يدفع العدو للقيام بردة فعل تناسب ذلك الحدث.

ب: إن ردة الفعل هذه تعني: أن الحدث في امتداداته، وآثاره وتداعياته خارج عن اختيار من أقدم عليه، لأن الحدث يستدرج الأغيار، ويجعلهم شركاء في صنع ما يترتب عليه، وقد يوظفون الحدث في مجالات يصعب السيطرة عليها، كالمجالات العسكرية، أو الإعلامية، أو في أي مجال آخر لا يكون في مصلحة من أطلق الحدث، حيث لم يكن مطلق الحدث قد خطط لاستيعاب ردات الفعل، والسيطرة عليها، والتحكم فيها.

وبذلك يتبلور احتمال أن يصبح هذا الحدث عبئاً على كاهل القيادة، وقد يفسد جهدها، ويحبط بعض خططها.. ويجعلها أمام تعقيدات تستعصي على الحل، ويدخلها في متاهات بالغة الخطورة.

ج: إنه «عليه السلام» قرر أن يكون أي حدث يراد الإقدام عليه من أي كان، بإذن وموافقة منه، أي من القيادة.

وهذا يضع العناصر الفاعلة أمام الأمور التالية:

أولاً: ضرورة إعلام القائد بكل حدث يراد الإقدام عليه، مهما كان حجمه ونوعه..

ثانياً: إن للقائد سلطة وهيمنة على عناصره في كل تصرف أو تحرك..

ثالثاً: لا يكفي أن يحتمل العناصر رضا القائد بهذا الفعل أو ذاك، بل لا بد من الإذن الصريح والواضح.

رابعاً: إن سلب حق التصرف من المقاتلين لمصلحة القيادة مستمر، ما داموا في موقع التصدي الميداني، ولا يفرق فيه بين هذا الظرف أو ذاك، أو بين وقت وآخر.

٣ ـ إن النجاح الذي حققه العباس لا يجعل إخلاله بمركزه مقبولاً وحسناً، بل سيبقى مرفوضاً ومداناً وقبيحاً.. فإن النجاح في هذا الفعل الجزئي المحدود قد يتسبب بكارثة على مستوى القضايا الكبرى أحياناً، فلا يجوز تبرير المخالفة بالنصر.

٤ ـ إن علياً «عليه السلام» حين أحضر العباس بن ربيعة، وطالبه وعاتبه يريد أن يدلنا: أن على القائد المبادرة العاجلة إلى المحاسبة العلنية حتى في ميدان القتال.

لأن من شأن هذا أن يعطي درساً في ضرورة الانضباط لكل الآخرين، كما أنه يعطي انطباعاً عن الأهمية التي يوليها علي «عليه السلام» للإخلال بالمراكز.

٥ ـ إن مبارزة شخص لشخص آخر تبقى في دائرة محدودة بين أفراد اختلفوا في الولاء.. أما الطاعة للإمام القائد في ساحات الجهاد، فهي عبادة

لها مثوباتها وفضلها، وتمنح الإنسان سمواً روحياً من جهة، وتخرجه عن فرديته ليس فقط لتصله بغيره، بل لتحتم عليه الاندماج بالغير، ومشاركته، والتحرك معه، والاستفادة من خبرته، وموقعه، وإمكاناته.

٦ ـ تذكر الرواية: أنه «عليه السلام» قال لعباس بن ربيعة: «طاعة إمامك أوجب عليك (أو أولى بك) من إجابة عدوك».. ثم تغيَّظ واستشاط، حتى قلت: الساعة الساعة، ثم تطامن وسكن..

وهذا يدل على أن الإخلال بالمركز لأي سبب كان هو من أعظم الذنوب.

٧ ـ لوحظ: أن العقوبة كانت قاسية إلى حد أن العباس بن ربيعة كان يتوقع أن يبلغ الغضب بعلي حداً عظيماً يدعوه إلى التصرف معه بصورة أقسى وأمرّ..

٨ ـ إنه «عليه السلام» قد أوضح: أن الذي دعاه لأن يتطامن ويسكن هو: أن عباساً لم يخل بمركزه لأجل الدنيا، بل كان يهدف إلى نصرة الإسلام والدين بذلك، وقد حقق الإنجاز الذي توخاه، ولذلك قال «عليه السلام»: «اللهم لا تنس هذا اليوم للعباس»، أو «اللهم اشكر للعباس مقامه..».

فكيف إذا كان الإخلال بالمركز على سبيل الاستهتار والتساهل، أو رغبة في مسامرة الأخلاء والأصدقاء، أو هرباً من الحر أو البرد، بتوهم: أن العدو لا يفكر في أي عملٍ في مثل هذا البرد القارص، أو هذا الحر اللاهب.

٩ ـ إنه «عليه السلام» حتى بعد إظهاره أنه يتفهم دوافع عباس بن ربيعة، اعتبر أن العباس مذنب مع ربه، ومع إمامه وقائده..

وأن ما قصده عباس من خير غير مقبول لولا دعاء الإمام له الله بأن

يشكر مقامه..

كما أن غفران ذنبه المتمثل بالإخلال يحتاج إلى عفو أميره، وإلى استدراج رحمة الله بطلب من لا يرد الله طلبه المغفرة منه تعالى له..

١٠ ـ إنه «عليه السلام» بموقفه من العباس أوضح مدى المرونة التي تعامل بها معه، فهو عرَّفه خطورة الذنب الذي ارتكبه، وأوقفه للحساب بين ذلك الجمع كله..

وتغيَّظ عليه بدرجة كبيرة، ثم استصلحه، واستماله بدعائه له، وباحترامه لنيته، مع إدانته لفعله.. ثم استغفر له، لأنه يعطف عليه ويرأف به، وأظهر له مزيجاً من الحزم واللين.. وهذه هي حال القائد الأريب، الذي يجب أن يضبط حركة عناصره من موقع المحبة والحزم.

علي عليه السلام يبارز الرجلين:

وعن حديث الرجلين اللذين قتلهما أمير المؤمنين «عليه السلام» نقول:

أولاً: إن مبارزة الإمام «عليه السلام» لذينك الرجلين، تضمنت أن القائد قد يعرض نفسه للخطر ليفدي ويحفظ سلامة عناصره، الذين هم في دائرة مسؤوليته.

ثانياً: إن طلب ذينك الرجلين المبارزة كان من نتائج مخالفة عباس بن ربيعة لأمر إمامه، وقد كان من الممكن أن يواجه عباس بن ربيعة في مبارزته لهما خطراً محققاً على حياته..

وقد كان في غنى عن تعريض نفسه لهذا الخطر لو التزم بأمر قائده وإمامه بحفظ مركزه.. وهذا شاهد على أن النصر الذي حققه عباس على عدوه في

المرة الأولى، لم يكن نصراً صافياً وهنيئاً، بل حمل معه خطراً جسيماً، دفعه الله عنه على يد القائد الذي عصى عباس بن ربيعة أمره.

ثالثاً: التخفي الذي مارسه علي «عليه السلام» كان أمراً مطلوباً، لكي يدفع «عليه السلام» به إصرار ذينك الرجلين على مبارزة خصوص عباس بن ربيعة، حيث إنه «عليه السلام» لا يريد تعريض عباس للخطر كما قلنا..

ومن المعلوم: أن ذينك الرجلين محاربان للإمام، وباغيان عليه، فلا يحق لهما طرح أي اقتراح، ولو كان من قبيل تحديد من يبرز لهما لدفع شرهما.

بل إن إصرارهما على قتال واحد بعينه سيكون بغياً آخر لا ينبغي قبوله منهما، ولا مساعدتهما عليه، لاسيما إذا حمل معه احتمالات خطر أو ضرر، ولو في مستوى الجراحة، أو ظهور تفوقهما عليه في القدرات القتالية.

رابعاً: لقد استعمل الإمام «عليه السلام» التورية في جوابه على سؤال: أذن لك سيدك؟! فقد قال: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾(١).. مما يعني: أن المطلوب هو عدم تعمد الكذب، ما دام يمكن استعمال التورية، وقد كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها.

خامساً: لقد رأى الجيش كله كيف أن العباس يراجع إمامه وقائده، ليستأذن منه حين طلب منه الرجلان المبارزة، وفي هذا تعليم للجيش كله، بالممارسة العملية: أن الرجوع إلى القيادة مطلوب على كل حال. كما أن هذا

(١) الآية ١٩٤ من سورة البقرة.

التراجع العلني والسريع يعطي الانطباع: بأن القائد يهيمن على الأمور، ومطاع، وقراره نافذ.

سادساً: لقد علمنا: أن القوة والسرعة في التنفيذ أمر مطلوب. وقد تجلى هذا الأمر بالضربة التي سددها «عليه السلام» للرجل الأول، فإن السيف قد قطع ذلك الرجل نصفين، وقد بقيا برهة على حالهما، حتى ظن الناس أن علياً «عليه السلام» أخطأ، وأن ضربته لم تصب ذلك الرجل.

سابعاً: إن ما جرى كان من شأنه أن يرعب جيش الأعداء، ويقوي من عزيمة الأولياء، وهذا مطلوب جداً في مثل هذه المواقف..

ثامناً: إن ما فعله علي «عليه السلام» يمنح أتباعه الثقة بالقائد، والمزيد من الشعور بالطمأنينة والسكينة معه.. ويعطيهم المزيد من الشعور بالعزة والكرامة.

دلالات هذه الآية المباركة:

ولقد تضمنت الآية المباركة التي تلاها «عليه السلام» في جواب ذلك الرجل الباغي، وهي قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾ ـ تضمنت ـ الإشارة إلى أمور كثيرة، نذكر منها ما يلي:

١ ـ في الآية دلالة على أن كل من هوجم من عدو ظالم، فهو مأذون برد العدوان.

٢ ـ لم تحدد الآية الأمر الذي أُذِنَ به، فيشمل كل شيء يمكن دفع العدو به، سواء كان قتالاً مباشراً، أو وضع كمائن، أو هجومات مباغتة، أو مبارزات، أو خدعة حربية، أو أي شيء آخر، شرط أن لا يكون من المحرمات

المطلقة، مثل ارتكاب الفواحش، أو العدوان على الأبرياء، أو قتل النساء والأطفال، أو نحو ذلك.

٣ ـ إن الآية لم تبين من هو الذي أذن بذلك، هل هو الفطرة، أو العقل أو الله تبارك وتعالى؟! ظاهر الأمر يدل على أن الآذن هو الله تعالى، فقد جاءت هذه الآية جواباً على مطالبات تكررت من المسلمين، بالإذن بالقتال دفاعاً عن أنفسهم.

ومن الواضح: أن الله تعالى حين يأذن بأمر، فإنه يغني عن أي إذن آخر، من أي جهة صدر..

كما أن العقل إذا أذن للمظلوم: بأن يدفع الظلم عن نفسه، فإن الله تعالى يرشد إلى حكمه ويمضيه، ويؤكده، ولا تجد حكماً إلهياً، ولا مروياً عن نبي أو إمام أو قائد عادل بخلاف ذلك.

٤ ـ إن قوله تعالى: ﴿**بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا**﴾ يدل على أن المظلومية هي السبب في هذا الإذن، لأن الباء في قوله ﴿**بِأَنَّهُمْ**﴾ تفيد معنى السببية..

٥ ـ إنه تعالى جعل تدخله لنصرة المظلومين خياراً محتملاً.. حيث قال: ﴿**وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾.

٦ ـ لعل السبب في عدم بلوغ إنزال النصر الإلهي درجة الحتم: أن هذا النصر إنما هو تشريف وتكريم للمنصور، ونعمة تدل على الرضا عنه، والاهتمام به.. وإنما يفوز بذلك من يستحقه.

وقد لا يستحق المظلوم هذا النصر، إما لأنه لم يبذل جهداً، ولا قدَّم شيئاً في سبيل الحصول عليه، ودفع الظلم عن نفسه، أو لأنه كافر بالله، أو

متمرد على إمامه، أو منغمس في المعاصي والشهوات، أو لأنه مشارك في تسليط الطواغيت على نفسه وعلى الناس، أو لغير ذلك من أسباب. فمن لا يستحق النصر من الله كيف يطلب منه تعالى أن يمنحه إياه؟!

٧ ـ وبذلك يعلم: أن السبب في عدم إنزال النصر الإلهي على كثير من المظلومين، هو ما كسبته أيديهم. وقديماً قيل: على نفسها جنت براقش.

ولا يمكن أن يكون ذلك خلفاً للوعد من الله، فإن الله لا يخلف الميعاد.

إن تنصروا الله ينصركم:

وبذلك أيضاً يعلم الفرق بين هذه الآية وبين الحتمية التي ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(١).

فإن هذه الآية تضمنت ما يلي:

أولاً: حتمية النصر الإلهي، وتثبيت الأقدام في خصوص المورد الذي نتحدث عنه.

ثانياً: إنه تعالى ذكر في هذه الآية: أن نصره مشروط بأمور هي:

ألف: أن يكون هناك معتدٍ ومعتدى عليه، وتكون الجرأة والعدوان على الله، ويراد بالحرب وطلب النصر كبح أعدائه والمتمردين على إرادته تعالى، والساعين في إبطال دينه، وتقويض ومحق جهود أنبيائه..

ب: أن يكون أهل الإيمان هم الذين يتصدون للمعتدين.. فلو كانت الحرب بين جماعة كافرة، تدَّعي أنها على دين الله.. كالخوارج، وغيرهم، وجماعة

---

(١) الآية ٧ من سورة محمد.

مشركة.. فلا ينصر الله أيّاً منهما على الأخرى. وكذا لو احتاج المؤمنون إلى الإستعانة بكافر، فأعانهم بعض الكفار طلباً لمنافع دنيوية، مادية أو اعتبارية، أو غيرها مما يهتم به الكفار، فإنه ينال ما أمله في الدنيا، ولا نصيب له من النصر الإلهي، بل يبقى هدية وكرامة وتشريفاً لخصوص المؤمنين.

ج: أن يبذل المؤمنون جهوداً ويقدموا تضحيات، فيأتي نصر الله تعالى للمجاهدين، وكأنه مشاركة لهم، ينالون فيها شرف تخصيصهم بالألطاف والمزايا، لكي يمنحهم شرف نسبة النصر إليهم، فإن هذه النسبة لهم، وظهور الاهتمام الإلهي بهم يكبت عدوهم، ويرهب من هم وراءهم..

ولو أن النصر قد حصل بطريقة خارجة عن القواعد المألوفة لظن الأعداء: أن لا دور لهم في هذا النصر، بل هو فعل جاء من خارج إرادتهم وجهدهم.

وهذا التصور من شأنه أن يحفظ درجة الجرأة لدى العدو على أهل الإيمان.

ويقلل من قيمة النصر الذي حصل لهم، حين ينسبه إلى غيرهم..

د: إن الهدف من الحرب يجب أن لا يكون هو الحصول على المنافع الدنيوية.. بل يتمحض في كونه نصراً لله تعالى فقط، ولا غير، إذ لو شابه طلب الدنيا، وزبارجها وبهارجها، أو كان بهدف الانتقام والتنفيس عن حقد شخصي، أو إشباع غريزة التسلط والتملك والهيمنة، فلا يكون موضعاً للنصر الإلهي.

هـ: إذا تحققت هذه الشروط بتمامها، فإن المكافأة على نصر المؤمنين لله تكون بأمرين:

أحدهما: منح المؤمنين النصر الإلهي.. لينضم إلى جهدهم وتضحياتهم

ويستثمرها.

الثاني: تثبيت أقدامهم.

وتوضيح ذلك:

أنه بعد تحقق الشروط الأربعة المتقدمة تترتب على ذلك:

أولاً: أنه تعالى لا بد أن يفي بوعوده للمؤمنين، ويمنحهم المعونة، ويتفضل عليهم بالنصر، فالنصر إذن فعل خارج عن ذوات المنصورين، يتمثل بتوفير النعم والقدرات، فيرسل السماء عليهم مدراراً، ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهاراً، أو غير ذلك.

ثانياً: يحصل التثبيت الإلهي لهم، بإعطائهم القوة في داخل ذواتهم، ولو من خلال الكشف عن بصائرهم، وتفكُّرهم بما يظهر لهم من ألطاف وعنايات، ورعاية إلهية، وغير ذلك مما يرسخ يقينهم بحب الله لهم، ولطفه ورأفته بهم.

وهذا نظير ما كان يفعله رسول الله «صلى الله عليه وآله» مع أصحابه، فكان يريهم المعجزة والكرامة، كأن يطعم الجيش كله من كف من تمر، أو من فخذ شاة، أو يضرب «صلى الله عليه وآله» الصخرة التي عجز الجيش كله عنها، في حرب الخندق، فإذا هي كثيب مهيل..

ونختم كلامنا بالإشارة إلى الأمور التالية:

أولاً: إن دفاع علي «عليه السلام» عن العباس بن ربيعة حين طلب الرجلان منه المبارزة، لا بد أن يجعل الناس يشعرون بالبون الشاسع بين قائد يعرض نفسه للخطر، حفظاً لبعض جنوده، وقائد آخر يدفع بجنوده إلى الموت من أجل الحصول على الملك والدنيا.

ثانياً: قلنا: إن الضربة التي قتل علي «عليه السلام» بها الرجلين الباغيين كانت غريبة، ومرعبة، ولا شك في أنها أطارت ألباب كل ذلك الجيش الذي جاء به معاوية، وأزاغت أبصارهم، وأثلجت صدور المؤمنين، وشفت غيظ قلوبهم، وأعطتهم المزيد من الشعور بالعزة والقوة، والسكينة والثقة بقائدهم، وإمامهم «عليه السلام».

ثالثاً: إن ما جرى للمقتول الأول قد رسم صورة فريدة لم يشهد التاريخ لها نظيراً، لا قبل علي ولا بعده. ولا شك في أن كل من قرأها أو سمع بها، أو سيقرؤها ستثير إعجابه، وتأخذ بمجامع قلبه..

خلاصة جامعة:

ونستخلص من جميع ما تقدم ما يلي:

١ ـ لا يصح لأي كان الإخلال بمركزه في الميدان، في أي ظرف، إلا بعد الرجوع إلى القيادة.

٢ ـ إن هذا الإخلال قد يعطي العدو فرصة لتسديد ضربته.

٣ ـ إن ذلك يشجع الغير أيضاً على الإخلال، ويفقد القيادة القدرة على اتخاذ القرار، ويعيق تحركاتها في خططها.

٤ ـ إن العمل العسكري ليس مجرد تصرفات عشوائية متناثرة، بل هو كل مترابط.

٥ ـ إن هذا الإخلال يصرف اهتمامات القيادة إلى ترميم وإصلاح البنية الداخلية فيما يرتبط بانضباط عناصرها، ويفقدها زمام المبادرة في التصدي للعدو المتربص.

٦ ـ إن ذلك يخل بعلاقة القيادة بعناصرها، لأنها تفقد الاعتماد عليهم فيما يرتبط بإنجاز المهمات التي توكل إليها.

٧ ـ إن المطلوب ليس فقط حفظ المركز الموكل للعنصر، بل على العنصر: أن يحفظ مركزه ومركز غيره، أو على الأقل لا يعمل على الإخلال بمركز ذلك الغير.

٨ ـ المطلوب هو استمرار هذا الحفظ، في جميع الظروف، وفي كل زمان.

٩ ـ ليس لأي عنصر أن يبادر إلى أي تصرف تجاه العدو بدون علم القيادة.

١٠ ـ إن الإقدام على شيء من ذلك، قد يربك القيادة، ويصرف همتها عن هدفها الأساس، لمعالجة ذيول هذا الحدث المستجد، وتلافي سلبياته.

١١ ـ لا يكفي التكهن ولا الظن برضى القيادة، بل لا بد من الإذن الصريح منها.

١٢ ـ إن تحقيق بعض النجاح حين الإخلال بالمركز، لا يوازي سلبية التمرد على القيادة، وعدم الالتزام بأوامرها.

١٣ ـ إن هذا النجاح لا يجعل الإخلال حسناً ومرضياً، بل يبقى مرفوضاً ومداناً.

١٤ ـ إن أي نجاح يتحقق يبقى جزئياً وفردياً، لكن ضرره قد يتعداه ليمس القضية الكبرى في الصميم.

١٥ ـ يكفي من سلبيات هذا الإخلال: أن يوجب وهناً وضعفاً في نظرة العناصر إلى أوامر قيادتهم.

١٦ ـ على القائد في مثل هذه المخالفات أن يعاقب العنصر بصورة علنية. وهذا ما فعله علي «عليه السلام» بالعباس بن ربيعة.. إذ لا يصح أن يرى العناصر الإخلال دون أن يروا العقوبة عليه.

١٧ ـ إن العقوبة يجب أن تكون استصلاحية لا انتقامية.

١٨ ـ يجب أن يشعر العنصر المعاقب: أن المخالفة هي المبغوضة للقائد، وليس العنصر نفسه.

١٩ ـ يجب أن تمازج العقوبة بين الحزم واللين..

٢٠ ـ ينبغي إعطاء العقوبة بعداً إيمانياً من خلال تعريف العنصر: بأن إخلاله مبغوض لله تعالى، ليكون للتراجع عن المخالفة، دافع روحي وإيماني يستتبع المثوبة.

٢١ ـ إن حسن نية المخل بمركزه لا أثر له في تحسين ما صدر منه، بل يبقى مبغوضاً لله.

٢٢ ـ إن الإساءة التي تتحقق بالإخلال، لا يمحوها تحقيق إنجاز مادي، بل تمحوها التوبة إلى الله، والرجوع إلى حالة الانضباط والالتزام بالأوامر فقط.

٢٣ ـ إذا كان الإخلال استهتاراً وانسياقاً مع هوى النفس، فالذنب أعظم، وربما كان المطلوب أن تكون العقوبة أشد، مع حفظ خصوصيتي الاستصلاح، والإعلان بها.

٢٤ ـ إن القائد قد يحتاج لأن يواجه الأمور الخطيرة بنفسه، لأجل حفظ عناصره، كما فعل علي «عليه السلام» بالرجلين.

٢٥ ـ لا بأس بخداع العدو والتمويه عليه، فيما يرتبط بالأعمال الحربية.

٢٦ ـ ليس للعدو الباغي والمعتدي أن يفرض على أهل الحق كيفية، أو وسيلة قتالية بعينها، أو أن لا يقاتله فلان من الناس، أو نحو ذلك، فإن هذا بغي آخر يضاف إلى بغيه الأول.

٢٧ ـ استعمال التورية، حتى في المجال الحربي أولى من اعتماد الكذب الصريح مع العدو.. وإن كانت هناك مصلحة تجيز ذلك، كما هو المفروض.

قال بعض الإخوة الأكارم: لعل اعتماد التورية مع كون المورد مما يجوز فيه الكذب هو من مختصات الإمام المعصوم «عليه السلام».. إذا قلنا: إن ظاهر الواقعة تعيّن ذلك من أمير المؤمنين.. وأما مع عدم مثل هذه الدلالة، فهو أدب منه «عليه السلام»، والتأسي به جائز بلا ريب.

٢٨ ـ إن الخبرة القتالية، وإظهار القوة، وسرعة التنفيذ، وعدم إمهال العدو أمر مهم، وقد تجلى ذلك في ضربة علي «عليه السلام» لذلك الرجل.

٢٩ ـ إن هذه السرعة لها آثار نفسية مهمة، فهي تبهر العدو، وتزلزل كيانه، وتفرح الولي، وتعطيه المزيد من الثبات، والصلابة، والسكينة، والطمأنينة.

٣٠ ـ تدل آية الإذن بالقتال على أن لكل من هوجم من عدو ظالم الحق في دفعه بأية صورة ممكنة، ولو كانت هي القتال.

٣١ ـ إن هذا الإذن ثابت بالعقل، والشرع، والفطرة، والآية الكريمة تشهد على هذا الأمر.

٣٢ ـ لم تحدد الآية أيضاً وسيلة دفع هذا العدو، مما يعني: أنه يستطيع أن يستفيد من جميع الوسائل، إلا ما صرح الشرع بالمنع عنه، كقتل الأبرياء،

والنساء، والأطفال، وارتكاب الفواحش، وما إلى ذلك.

٣٣ـ إن سبب صدور هذا الإذن الإلهي بهذه الصورة هو المظلومية.

٣٤ـ أشارت الآية إلى خيار محتمل، هو خيار التدخل الإلهي لنصرة المظلوم في بعض الحالات.

٣٥ـ إن النصرة الإلهية تشريف وتكريم، ونعمة ولطف، وعناية بالمنصور، ولا يستحق ذلك الكافر والفاجر، حين يظلمه فاجر مثله. كما لا يستحقه أيضاً من لا يدافع عن نفسه، بل يطلب النصرة من الله ومن الناس.

٣٦ـ إن حتمية النصر الإلهي مشروطة بأمور أربعة:

الأول: أن تكون الجرأة والعدوان على الله بالعمل على إبطال دينه، ومصادرة جهود الأنبياء، والشهداء.

الثاني: أن يكون أهل الإيمان هم الذين يتصدون للمعتدين، فلو تصدت فئة كافرة تدَّعي أنها على دين الله، كالنصاب والخوارج، أو لو أعان المسلمين كافر طمعاً منه بالدنيا، فإن الله لا ينصره، ولا ينصر الطائفة الكافرة، وإن ادَّعت الإيمان..

الثالث: أن يبذل المؤمنون جهداً في نصرهم لله تعالى. فلو لم يفعلوا شيئاً فإن الله لا ينصرهم.

الرابع: أن يتمحض هدف الحرب في أنها نصر لله، ولا يكون رياءً وسمعةً، أو طلباً لشيء من زبارج الدنيا، وبهارجها.

٣٧ ـ إذا تحققت الشروط الأربعة المذكورة آنفاً، فإن الله تعالى يتدخل من جهتين:

الأولى: التدخل بالنصر، وهو تدخل انضمامي يأتي من خارج الشخصية الإيمانية، ولو بأن يرسل السماء عليهم مدراراً، ويمددهم بأموال وبنين، ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهاراً، ويوفر لهم جميع إمكانات النصر.

الثانية: أن يثبت أقدامهم، بالكشف عن بصيرتهم، وإمدادهم بالإلطاف، والمعجزات، والكرامات، والعنايات التي تشد من عزائمهم.

التوسعة على الجند ضرورة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

وبعد..

فقد يدور بخلد البعض: أن مقتضى حفظ الأمانة، وضبط الأمور، فيما يرتبط بالأموال المخصصة لتلبية حاجات المقاتلين في جبهات القتال، هو التدقيق في كيفية توزيعها، وصرفها عليهم، باعتماد نظام الحصص، وتحديد المقادير المخصصة لهم في مأكلهم، ومشربهم، وسائر حاجاتهم..

وهذا أيضاً ما يفرضه التحرز من الوقوع في الإسراف، أو التبذير المنهي عنهما.

فليس للموكل بالتوزيع تفضيل أي من المجاهدين على الآخر، حتى في كمية وجبة الطعام، ولو طلب المجاهد منه ذلك، وألح عليه به..

غير أننا نقول:

إن هذا غير حميد، ولا سديد، والنصوص التي بين أيدينا عن الأئمة الطاهرين تأباه جملة وتفصيلاً.

فلاحظ ما يلي:

ألف: قالوا: في حرب صفين «كان حريث بن جابر نازلاً بين العسكرين، في قبة له حمراء.. وكان إذا التقى الناس للقتال أمدهم بالشراب: من اللّبن، والسويق، والماء [ويطعمهم اللحم والثريد] فمن شاء أكل، أو شرب.

وفي ذلك يقول الشاعر:

ولو كان بالدّهنا حريث بن جابر لأصبح بحراً بالمفازة جاريا(١)

ونقول:

أولاً: إن لنا أن نحتمل، أو أن نتيقن: بأن هذا التدبير، أعني بذل الطعام للمجاهدين مجاناً، بصورة مستمرة أثناء القتال، لم يكن بعيداً عن رأي أمير المؤمنين «عليه السلام»، إن لم نقل: إنه كان هو الباذل للأموال التي يحتاج إليها هذا العمل الكبير.. فإن تلبية حاجات عسكر قد يزيد عدده عن ثمانين ألفاً، تحتاج إلى مبالغ طائلة، لا نظن أن حريث بن جابر كان قادراً على تأمينها من أمواله الخاصة.

مع ملاحظة: أننا لم نجد في النصوص ما يدل على أن هذا الرجل كان من الأثرياء.

كما أنهم لم يعدّوه في جملة الأجواد والكرماء.

يضاف إلى ذلك: أننا لم نجد في كلام أمير المؤمنين «عليه السلام»: أنه أثنى على حريث بسبب عمله هذا.. ولو كان هذا، الأمر من بنات أفكار حريث، ومن ماله الخاص لذكره «عليه السلام» مثنياً عليه..

---

(١) صفين للمنقري ص٣٠٠ و ٣٠١ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٥ ص٢٤٠.

وما رأينا أيضاً الرجال الكبار والأعيان يثنون على حريث بسبب ذلك.

من أجل ذلك نرجح: أن هذا كان من تدبيرات علي «عليه السلام» وبأمره.

ثانياً: إن لهذا الإجراء فوائد وعوائد جمة، مثل:

١ ـ إنه يكرِّس لدى المقاتلين الشعور بالواجدية، ويبعد شبح القلق الذي قد ينتاب بعض الأفراد الذين يشعرون بالحاجة إلى بعض المغذيات، أو ما يساهم في رفع العطش، فلا تنشغل النفس بأوهام تصدها عن إنجاز وظائفها بدقة وإتقان.

٢ ـ إنه يبعد حالة الإحراج، وذل الطلب عن الذين لا يحبون بذل ماء وجههم في مثل هذه الحالات.

٣ ـ إن هذه المواد المبذولة هي التي تشتد الحاجة إليها في مثل هذه الحالات الصعبة، وهي من الأساسيات جداً للمقاتلين، فإن الماء والسويق، واللبن تخفف من تأثيرات الجهد البالغ، ولاسيما في الأجواء الحارة.

كما أن الثريد واللّحم يمدان المقاتل ببعض القوة، التي ربما تكون قد ضعفت بسبب ثقل السلاح، وسرعة الحركة، والجهد في مقارعة العدو.

٤ ـ إن ذلك يحدّ من وساوس وأوهام قد تنتاب المجاهدين حول قدرتهم على الإستمرار في بذل الجهد والقدرة على الصمود في ظل فقدان حاجات أساسية لا بد لهم منها في اللحظات الحساسة.

٥ ـ إن شعور المجاهد بأن بعض ما يحتاجه يحجب عنه، سيشكل له صدمة نفسية حادة، وسيصاب بإحباط كبير وخطير، حيث يجد أنه هو يندفع بكل

حماسة ورضى ولهفة ليضحي بنفسه، بينما يجد الموكلين بالطعام والشراب، وسائر الحاجات يبخلون عليه بشربة، أو بلقمة رغبت نفسه فيها..

وربما أذكى هذا الشعور: أن الناس، كل الناس، رأوا كيف أن معاوية منع الماء عنهم، في حين أن أمير المؤمنين «عليه السلام» لم يفعل ذلك، ولم يكن عمرو بن العاص ومعاوية يحتملان: أن يصدر هذا الأمر عن أمير المؤمنين «عليه السلام»، وقد تطابق ظنهم مع الواقع.

ب: كتب أمير المؤمنين «عليه السلام» إلى أحد ولاته، وهو الأسود بن قطبة، رسالة وردت فيها العبارة التالية:

«وأكثر لنا من لطف الجند، واجعله مكان ما عليهم من أرزاق الجند، فإن للولدان علينا حقاً، وفي الذرية من يخاف دعاؤه، وهو لهم صالح. والسلام»[١].

فقد رأينا: أنه «عليه السلام»:

١ ـ قد طلب من واليه أن يكثر من إرسال الهدايا للجند، مما يعني: أن المطلوب هو عدم الاكتفاء بالأرزاق المقررة لهم.

٢ ـ إنه «عليه السلام» قرر أن يحتسب هذه الأموال من جملة المبالغ التي تتحملها الرعية، وتخصص كأرزاق للجند.

فدلنا بذلك: على أن نفقات حماة الوطن تؤخذ من الناس أنفسهم، فإنهم إنما يدافعون عن الأنفس والأموال، والأعراض، والحريات، وما إلى ذلك..

٣ ـ إن ذلك من موجبات سرور الجند ورضاهم.

---

(١) صفين للمنقري ص١٠٦.

٤ ـ إنه من موجبات حسن ظنهم بولاتهم.

٥ ـ إن ذلك يدعوهم إلى بذل نصيحتهم لأولئك الولاة، وعطف قلوبهم عليهم.

٦ ـ إن إلطاف الجند بالهدايا سوف تظهر آثاره في أبنائهم وذراريهم، وعوائلهم.

٧ ـ إن إيفاء الجند حقهم وأخذهم أرزاقهم لا يعني سقوط حق أبنائهم، فهذه الهدايا هي من الوفاء ببعض حقوق أبناء الجند أيضاً.

٨ ـ إن أبناء الجند قد يضيقون ذرعا بالأوضاع التي يعيشونها بسبب شح الموارد، وبسبب بعدهم عن آبائهم، وحرمانهم من رعايتهم، وغير ذلك، فيلجأون إلى الدعاء على ولاتهم ـ بسبب هذا الشعور بالمظلومية..

٩ ـ وإن دعاء هؤلاء مما ينبغي للولاة أن يخافوا منه، وأن يعملوا على تلافيه.

ج: وكتب أمير المؤمنين «عليه السلام» في عهده للأشتر:

«وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته، وأفضل عليهم من جِدَتِه، بما يسعهم ويسع من وراءهم في خلوف أهليهم، حتى يكون همهم هماً واحداً في جهاد العدو، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك»(١).

وقد أشارت هذه الفقرات إلى أمور عديدة، نذكر منها:

١ ـ إنه «عليه السلام» قد رهن علاقة الوالي بقادة الجند، ومكانتهم عنده، وقربهم منه، بمستوى ونوع علاقة القادة بجنودهم، على النحو الذي

---

(١) نهج البلاغة (عهد الأشتر).

بيَّنه «عليه السلام»، ولم يربطه بالإنجازات الحربية، ولا بغير ذلك من أمور..

وهذا معيار فريد، لم نجد له نظيراً عند غير علي «عليه السلام».

٢ ـ لقد حدد «عليه السلام» علاقة القادة بجنودهم في ضمن مفردات معينة، هي:

أولاً: أن لا يتعامل معهم من موقع الآمر الناهي، ليكونوا هم في موقع المنفذ والمطيع، بل عليه أن ينزل إلى مستواهم، ويشاركهم في جهدهم، ويكون معيناً لهم، ومواسياً لهم بنفسه.

ثانياً: أن لا يستأثر عنهم بشيء يختص به لنفسه، بل يشركهم فيما عنده، ولا يقتصر على الأرزاق المقررة لهم، بل يفضل عليهم من جدته. أي يزيدهم مما هو متوفر لديه، ما يزيد على حصصهم، وأرزاقهم المقررة.

ثالثاً: إن هذه الزيادة يجب أن لا تكون ضئيلة، بل يجب أن تسعهم، أي أن تستوعب جميع حاجاتهم.

رابعاً: بل يجب أن تستوعب أيضاً حاجات أهليهم الذين هم خلوف في ديارهم، ولم ينفروا معهم إلى الحرب.

٣ ـ ثم أشار«عليه السلام» إلى أن السبب في هذا التوجيه: أن ذلك يمنح المقاتل المزيد من السكينة والطمأنينة، والقوة، ويزيد بصيرته، ويشد من عزمه، ولا يبقي لديه أي قلق على ولد، ولا على أهل، فضلاً عن أن يقلق على نفسه.

٤ ـ إن ذلك يعمق العلاقة العاطفية بين الوالي وبين جنده، ويحصل المزيد من الإندماج، والشعور بوحدة الهدف، ووحدة المصير، وحاجتهم إلى

الوالي، وحاجة الوالي إليهم.

د: في رسالة من أمير المؤمنين «عليه السلام» إلى عماله جاء فيها:

«ولا تدخروا أنفسكم نصيحة، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونة، ولا دين الله قوة الخ..»[1].

ونلاحظ:

١ ـ أنه «عليه السلام» يأمر الولاة: بأن لا يدخروا الجند حسن سيرة.. وحسن السيرة لا يقتصر على توفير الحاجات لهم، بل يتعدى ذلك إلى المعاملة الرضية، المشوبة بالتقدير، والإحترام، والتكريم.

٢ ـ إن إجابة طلباتهم، وإزاحة عللهم، وقضاء حاجاتهم من أهم مظاهر حسن السيرة فيهم..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله..

---

(١) صفين للمنقري ص١٢٥ .

علاقة القائد الميداني بالقائد العام

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد..

فإن علياً «عليه السلام» لما سار إلى الشام لحرب معاوية، وبلغ إلى مدينة الرقة، نزل على شاطئ الفرات، فبلغ ذلك معاوية، فأرسل أبا الأعور السلمي بجيش كثيف، فعرف «عليه السلام» بذلك، فأرسل زياد بن النضر، وشريح بن هاني في جيش نحو جيش معاوية.. فلما وصلوا إليهم دعوهم إلى الدخول في طاعة علي أمير المؤمنين «عليه السلام»، فأبوا، فأرسلوا إلى علي فأخبروه، وقالوا: مرنا بأمرك.

فأرسل علي إلى الأشتر، فقال: «يا مال[1]، إن زياداً وشريحاً أرسلا إليَّ يعلماني أنهما لقيا أبا الأعور السلمي في جند من أهل الشام بسور الروم، فنبأني الرسول أنه تركهم متواقفين.

فالنجاء إلى أصحابك، النجاء.

فإذا أتيتهم فأنت عليهم، وإياك أن تبدأ القوم بقتال، إلا أن يبدؤوك،

---

(١) ترخيم مالك.

حتى تلقاهم وتسمع منهم، ولا يجرمنك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم، والإعذار إليهم، مرة بعد مرة.

[قال ابن أعثم: فإن أجابوك، إلى ما تريد فالحمد لله على ذلك، وإن أبوا إلا القتال فاستعن بالله عز وجل عليهم. فالقهم بحد وجد، وابعث إلي بخبرك، وما يكون منك ومن أمرك إن شاء الله].

ثم قال المنقري:

«واجعل على ميمنتك زياداً، وعلى ميسرتك شريحاً، وقف بين أصحابك وسطاً، ولا تدن منهم دنو من يريد أن ينشب الحرب، ولا تَبَاعد منهم تباعد من يهاب البأس، حتى أقدم عليك، فإني حثيث السير إليك إن شاء الله».

وكتب «عليه السلام» إلى شريح وزياد:

«أما بعد، فإني قد أمّرت عليكما مالكاً، فاسمعا له، وأطيعا أمره، فإنه ممن لا يخاف رهقه، ولا سقاطه، ولا بطؤه عمَّا الإسراع إليه أحزم، ولا الإسراع إلى ما البطء عنه أمثل.

وقد أمرته بمثل الذي أمرتكما: ألا يبدأ القوم بقتال حتى يلقاهم، فيدعوهم، ويعذر إليهم [إن شاء الله]»(١).

---

(١) صفين للمنقري ص١٥٣ ـ ١٥٦ والفتوح لابن أعثم ج٢ ص٤٩٠ ـ ٤٩٣ و (ط دار الأضواء) ج٢ ص٥٦٦ و ٥٦٧ وراجع: تاريخ الأمم والملوك (ط الأعلمي) ج٤ ص٥٦٦ و ٥٦٧ وراجع: الصحيح من سيرة الإمام علي «عليه السلام» ج٣٨ ص٢٥٦ ـ ٢٥٨.

ونقول:

نستفيد من النصوص المتقدمة أموراً نجملها كما يلي:

١ ـ الثابت عن النبي «صلى الله عليه وآله»، وأهل بيته المنع من بدء أحد بقتال. فإذا بدأ الطرف الآخر به فلا مانع من قتاله. وهذا ما يرمي إليه قوله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ**﴾(١).

٢ ـ إنهم لا يقاتلون أحداً قبل الاحتجاج عليه، وبيان الحق له..

٣ ـ إن من المعمول به، والمعول عليه: أن القادة يتصلون بقادة العدو، بواسطة مكاتبات، أو مبعوثين، أو بوسائل الاتصال المتداولة، مثل: التلفون، أو الانترنت، أو غيرها، ويفاوضونهم، فيما يهمهم ويحتجون عليهم.

لكن مفاوضة القادة للقادة، والإحتجاج عليهم لا تسقط حق عناصرهم بمعرفة الحقائق، فلعل فيهم من يهدي الله قلبه، وينسحب من ساحة الصراع. وإن وضح له الحق، وأصر على موقفه، فهو يجني على نفسه، وقد قال تعالى: ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ**﴾(٢).

ونستفيد هذا التوجيه من قوله «عليه السلام» للأشتر: «إياك أن تبدأ القوم بقتال، إلا أن يبدأوك، حتى تلقاهم وتسمع منهم.. ولا يجرمنك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم».

مع الأخذ بنظر الإعتبار: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» كان قد احتج

---

(١) الآية ٣٩ من سورة الحج.

(٢) الآية ٤٢ من سورة الأنفال.

على قيادات أهل الشام وزعمائهم، وبيَّن لهم الحق بالحجج القاطعة، وكرر ذلك طيلة حقبة من الزمن ليست بالقصيرة..

٤ ـ لا يكفي أن نعلم الناس بحقنا وباطلهم من خلال وسائل الإعلام العامة، والخطب، والجرائد والمجلات، والمذياع (الراديو)، والتلفزيون، أو الشعر، أو الأفلام، والقصص، وتأليف الكتب، وما إلى ذلك..

بل لا بد من إيصال الدعوة، والحجة المقنعة إلى الأفراد الذين تقاتلهم ويقاتلونك، فإنهم هم الذين يتعرضون للمصائب والبلايا، والكوارث والرزايا من خلال هذا القتال.. فدعوة قادتهم لا تبيح دماءهم قبل دعوتهم، ولا تضيع حقهم بمعرفة الحقائق، فلعلهم مضللون، أو في غفلة عما يراد بهم.

٥ ـ إن احتاج الأمر إلى تكرار الدعوة، فلا بد من تكرارها، ولذا قال «عليه السلام» للأشتر: «..لا يجرمنك شنآنهم على قتالهم قبل دعائهم، والإعذار إليهم، مرة بعد أخرى».

٦ ـ ينبغي أن يكون القائد قادراً على التحكم بأحاسيسه وانفعالاته الشخصية، حتى لو كانت من ثمرات ممارساتهم الظالمة، فإذا رأى منهم شنآناً، أي بغضاً مختلطاً بعداوة، وسوء خلق، فلا يدفعه ذلك إلى غمط حقهم بمعرفة الحق، ولا يبرر ذلك ترك دعوتهم، وحرمانهم من كشف الحقائق لهم، ولو بالتكرار والإصرار، فلا يجوز له أن يستجيب لحالة النفور التي تعتري من يتعامل مع مبغض معاد سيء الخلق.

٧ ـ لا يكفي بيان الحقائق للعدو بطريقة الإملاء عليه، مع إظهارك الكراهية والضغينة له، أو مع حركات تغيظه، وتستفز مشاعره، ولا يكفي أيضاً الاعتماد

على الشائعات، ولا يصح التعويل على ما يراه من ظاهر حالهم، أو ما تكتبه الصحافة عنهم.

بل لا بد من اللقاء المباشر بهم، إذا توفرت شرائطه من الناحية الأمنية، أو إذا لم يكن هناك محاذير أخرى تفرض تحاشي ذلك.

بل المطلوب هو الحوار معه، وتسمع منه حجته، وتعرف هواجسه، وتقف على دوافعه.. لكي تعالج له حجته بالحجة الأوضح، والأصرح، التي لا تجد عنها محيصاً، ولتزيل هواجسه، وتعرِّفه بمكامن الضعف فيها.. وتصوب دوافعه، وتزيل اختلالاتها..

ولذلك قال «عليه السلام» للأشتر: «وإياك أن تبدأ القوم بقتال، إلا أن يبدأوك، حتى تلقاهم وتسمع منهم».

٨ ـ وقوله «عليه السلام»: «حتى تلقاهم» يشير إلى أن الحوار المباشر أشد تأثيراً على النفس، وقد يصل إلى حد أن يتلمس كثير منهم من خلال مشاهداتهم، وتبادل الأفكار المباشر مع الطرف الآخر، ما يدعوهم إلى الشعور بالأمن، وأن تتضاءل الحواجز بصورة تلقائية. ويكونون أقرب إلى الشعور بعدم وجود نوايا مبيتة لهم، بل المطلوب هو الخير، والصلاح والهداية والسعادة لهم، ولا يراد إذلالهم، أو تحدي قوتهم، فإن ذلك حتى وإن لم يمنع الحرب، ولكنه قد يكون له تأثير في التخفيف من حدتها، ويتمحور الهدف حول دفع شر الطرف الآخر، وإيقافه عند حده.

٩ ـ إنه «عليه السلام» قال لمالك: «إياك أن تبدأ القوم بقتال»، ولم يقل: بالقتال، حتى لا يدَّعي مدَّعٍ: أن المقصود هو أن لا يبدأهم بهذا القتال المعروف

والمتداول.. ولا يشمل سائر أنواع القتال غير المتعارف عليها، كاغتيال القادة، أو استعمال وسائل غير معتادة، مثل إرسال الجراد أو الحيات عليهم، أو تخريب منشآتهم في الخفاء، أو استعمال مواد توجب تشنجات، أو اختلالات في الأعصاب، أو تؤثر على النظر والبصر.. وما إلى ذلك..

فقوله: بقتالٍ ـ مع تنوين التنكير ـ يدل على أن جميع أنواع القتال ممنوعة.

١٠ ـ إن هذا التنوين الذي أشرنا إليه يعطينا أيضاً ضرورة اعتماد الصراحة والوضوح في الأوامر التي تصدر عن القيادة بهدف الإجراء. فلا تكون الألفاظ مطاطة، أو فضفاضة، أو عاجزة عن استيعاب خصوصيات مطلوبة، وما إلى ذلك.

١١ ـ إن ما تقدم يعطي: أن قرار الحرب إنما هو بيد الطرف الآخر.. فإذا فرضها على أهل الإيمان، وأصبحوا مبغياً عليهم، ومظلومين، فلهم الحق في دفع من بغى عليهم.

١٢ ـ إن البغي والظلم يجب دفعه عن النفس، وهو يحتاج إلى مراعاة ثلاثة أمور:

الأول: أن يجعل الله تعالى شريكاً في الجهد الحربي، وأن يطلب منه المعونة على هذا الظالم، فإن هذه الاستعانة تقوِّي العزيمة، وتشيع حالة من الشعور بالسند والولي المعتمد. كما أنها تدفع الشعور بالوحدة، ليحل محله الشعور: بأن الله تعالى معهم في رعايته، وفي معونته، ولذا قال «عليه السلام»: «فاستعن بالله عليهم».

الثاني: أن تكون حرباً حادة وقوية وجارحة، لكي تكون درساً رادعاً،

حيث يذوق المعتدي طعمها، فإن هذا يسرِّع في تسلل الندم إليه، ويخفِّف من رغبته في مواصلتها، ولـذا قال «عليه السلام»: «وإن أبوا إلا القتال، فاستعن بالله عليهم، وقاتلهم بحد وجد».

الثالث: أن يبذل في الحرب ما لديه من وسع، ويعطيها كل جهده، ولا يدَّخر أي قوة يمكن توظيفها في النكاية بالعدو.. وهذا ما أشير إليه بقوله «عليه السلام»: «وقاتلهم بحد وجد».

١٣ ـ ضرورة التواصل المتواصل بين القيادة العليا، والقادة الميدانين. ولذا قال «عليه السلام» للأشتر: «وابعث إليَّ بخبرك، وما يكون منك ومن أمرك». فطلب «عليه السلام» منه ثلاثة أمور ترتبط بالتواصل، ثم أتبعها بأمر رابع، هو: المشيئة الإلهية، فقال: «إن شاء الله».

وتوضيح هذه الأمور كما يلي:

١ ـ بالنسبة لقوله «عليه السلام»: «ابعث إليَّ بخبرك». يبدو: أنه ناظر إلى ضرورة إعلامه بالحصيلة العامة، والنتيجة الكلية للحرب إلى تلك اللحظة، ولو بأن يقول له: دمرنا كذا، وغنمنا كذا، وأسرنا كذا، وقتلنا كذا، ونحو ذلك.

٢ ـ قوله «عليه السلام»: «..وما يكـون منك».. يبدو: أنه ناظر إلى تفاصيل الأوضاع في اللحظة الحاضرة، ونظرته وخططه للمستقبل، ولذا قال «عليه السلام»: «ما يكون» بصيغة الفعل المضارع، ولم يقل: «وما كان منك»، لأن الفعل المضارع يدل على الحال والاستقبال، ربما لكي ينظر القائد الأعلى فيها، ويعرف ما أصاب القائد الميداني، وما أخطأ فيه، لكي ينبهه عليه،

ويرشده إليه، وإلى موارد وجود خيارات أخرى أفضل من التي يفكر فيها، أو التي اتخذها من الخيارات.. لكي يدله على ما يزيده خبرة ومهارة، وغير ذلك.

وهذا يعطي: لزوم عرض القادة ما يفكرون فيه من إجراءات على القائد الأعلى.

٣ ـ وقوله «عليه السلام»: «ومن أمرك» لعله ناظر إلى إخباره بالمستجدات بعد الحرب، وما يتوقعه منها، خصوصاً ما يأتي من قبل العدو، فإن معرفة ذلك يساعد على وضع الخطط للمستقبل، وتلافي سلبيات ما يقْدم عليه في حركة الواقع.

٤ ـ وأما تعليقه «عليه السلام» ذلك على مشيئة الله، فلأن القائد حين يخطط ويباشر التنفيذ لا يضمن الحصول على كل ما يتوقعه، أو يرغب في الوصول إليه، لأن هناك مؤثرات أخرى، ومخبآت، ومفاجأت قد تحول بينه وبين ما يريد..

ولعل بعضها يكون بفعل العدو، وبعضها يأتي به القضاء والقدر، أو التحولات غير المتوقعة بفعل السنن الكونية، كتبدلات المناخ مثلاً، وما إلى ذلك.

ومن الواضح: أن ذلك لا ينبغي أن يحبط العزائم، بل لا بد من تقبله بقبول حسن، ثم تعالج تلك المستجدات بالنحو المناسب، لتكون درساً للقادة، لكي يحسبوا حساب هذه الأمور حين يضعون خططهم.

القادة في ميدان القتال:

وحين لا بد من الحرب، وتحضر الكتائب إلى الميدان، وحيث لا بد من تحديد مواقعها، وتعيين قادتها، والمسؤولين عن الشؤون المختلفة، وتحديد

مواقعهم، ومواضع تواجدهم، والمراكز التي يديرون الأمور منها، فإن من يتولى ذلك كله، هو القائد الأعلى.

ولذا نلاحظ: أنه «عليه السلام» لم يوكل هـذه التوزيعات والتعيينات إلى الأشتر، مع أنه هـو القائد الميداني العام، بالرغم من خـبرته، وعظيم ثقته به، وجليل مقامه عنده، بل كان هـو «عليه السلام» الذي حدد القادة، بأسمائهم، ومواقعهم ومهامهم، فجعل هذا على الميسرة، وذاك على الميمنة، فدلنا ذلك على ما يلي:

١ ـ أن القائد الأعلى هو الذي يحدد القادة بأسمائهم. ولا يوكل الأمر إلى القائد الميداني.

٢ ـ هو يحدد مهماتهم، ليكون هذا قائد الجناح الكذائي، الميمنة مثلاً، وذاك قائد الجناح الآخر، سماه «عليه السلام» بالميسرة..

٣ ـ أوكل «عليه السلام» أمـر مباشرة التعيين، وإصدار مرسـومه إلى القائد الميداني العام، وهو الأشـتر، كما دل عليه قوله: واجعل على ميمنتك زياداً، وعلى ميسرتك شريحاً.

٤ ـ إنه «عليه السلام» هو الذي حدد المركز والمكان الذي يكون فيه القائد الميداني العام. ولم يترك ذلك للأشتر، وليس هذا رعاية منه «عليه السلام» لخصوصية في الأشتر، بل لأنه قانون عام في الحرب، ولم تفرضه الخصوصية الميدانية الحاضرة.

٥ ـ إنه «عليه السلام» جعل موقع القائد الميداني وسط أصحابه.. وموقعه في الوسط هذا يسهِّل على جميع الفئات التواصل معه، وتزويده بالمعلومات

الضرورية.

وليتمكن من التأكد من الأوضاع السائدة على الجبهات بأقل قدر من الجهد والوقت، فلا يشعر أي فصيل في أي موقع كان أن بُعده قد يؤخر وصوله إليه، حين يحتاج إلى ذلك.

المسافة بين مواقع الجيشين:

إنه «عليه السلام» قد حدد المسافة التي ينبغي أن تكون بين الجيشين قبل التحام القتال، وهو أمر يخضع للمتغيرات التي يفرضها نوع السلاح، وطبيعة الأرض، وأعداد وطاقات القوى المشاركة في القتال، وغير ذلك.

وقد اختار «عليه السلام» تحديد المسافة بخصوصية تتأثر بهذه العوامل أيضاً، وهي مكونة من أمرين، يتخالفان في المضمون، ويتشاركان في إنتاج الخصوصية المشار إليها، وهما:

الأول: أن لا يكون قربه من جيش العدو، بحيث يوحي بالرغبة في الحرب.. لأن ذلك يجعل الحوار مع هذا العدو أمراً متعذراً، وموضع ريب وشبهة عنده في أن يكون الهدف منه هو الخداع، واستغلال غفلته.

على أن هذا الاقتراب الفاحش، قد يدفع بعض أهل الطيش، أو المندسين إلى العمل على إنشاب القتال بتحرشاتهم، قبل الدعوة والاحتجاج..

الثاني: أن لا يتباعد عنهم، تباعد الخائف، لأن ذلك يوحي للعدو: بأن ثمة فشلاً روحياً لدى خصمه، يجعله يطمع به، ويدعوه إلى التصلب في مواقفه، وعدم المرونة في الحوار، فضلاً عن أن ينصاع للحجة، ويستجيب لنداء

الضمير والفطرة.

مراعاة اللياقات:

وحين نصل إلى الرسالة التي كتبها «عليه السلام» لشريح بن هاني وزياد بن النضر، نلاحظ:

١ ـ أنه كان يمكن أن يكتفي «عليه السلام» بما كتبه للأشتر، ويعرفهما الأشتر بما قرره «عليه السلام». ولكنه لم يفعل ذلك، بل كتب إليهما أيضاً، مراعاة لجانبهما، واحتراماً لهما من جهة.

وفي عدم إيكال هذا الأمر إلى الأشتر إشارة إلى أن الحكمة تقتضي توحيد المرجعية للقادة الميدانين، لكي لا يتصرف كل منهم على هواه. فإن مصدر القرار لا يجوز أن يتعدد، فإن الشركة في الحكم تؤدي إلى الاضطراب كما ورد في الحديث الشريف.

٢ ـ إنه «عليه السلام» لم يضمِّن كتابه إليهما: أنه عزلهما عن مقامهما. وفي هذا دلالة على لزوم الاحترام الشديد للطرف الآخر، وضرورة مراعاة الصفاء والنقاء في تعابير المكاتبات، وإبعاد كل ما يجرح الشعور، أو يثير النفور عنها.

٣ ـ إنه «عليه السلام» لم يلغ الأوامر التي أصدرها إليهما بعدم بدء القوم بقتال، بل أبقاها سارية المفعول.

٤ ـ إن توحيد أوامر الحرب والسلم بين القادة أمر مطلوب، يضع الأمور في دائرة الانضباط، والانسجام.

٥ ـ إن معرفة الجميع بهذه القرارات يسهل رقابة الكل على الكل، ويفرض على الجميع الدقة في التنفيذ، ولاسيما فيما يرتبط بالقرار الأهم، الذي لو حصل

أي اختلال فيه لأوقع الناس في مآزق كبيرة وخطيرة.

٦ ـ لم يصرح «عليه السلام» لهما: بأن الجيش الذي بحوزتهما هل لا يزال بإمرتهما، أم أصبح بإمرة الأشتر.. فإن التعيين في الموقع الجديد لهما قد يفرض تبدلاً أو زيادة ونقيصة في العديد، أو تعديلاً في اختصاصات، أو في مستوى مهارات الوحدات التي تكون بإمرتهما.

مواصفات قيادية:

وقد ذكر «عليه السلام» أوصافاً للقائد العام، وهي أوصاف تحتم السمع والطاعة له، فقد ذكر أن الأشتر:

أولاً: ممن لا يخاف رهقه، أي سفهه، وعدم تدبره في قراراته وتصرفاته، أو المقصود بالرهق: أنه لا يخاف أن يركب الشر والظلم، أو المراد: أنه يتأنى في أموره، ولا يُخاف أن يعجل فيها، ويبادر إليها قبل أوانها.

وهذه المعاني، وإن كانت محتملة، لكن ما نستقربه: أن يكون المراد: أن لا يتمكن العدو من أن يفاجئه بأمر لم يكن قد حسب له حساباته، واحتاط له.

وهذا يدل على قدرته على تخيل ما يفكر به عدوه، وما يمكن أن ينصبه له من مصايد، ويدبر من مكائد .

ثانياً: إنه «رحمه الله» لا يخاف سقاطه، أي وقوعه في الأخطاء والهفوات، فهو على درجة عالية من اليقظة والانتباه، ولا يتهاون ولا يغفل عن واجباته.

ثالثاً: لا يخاف بطؤه عمَّا الإسراع إليه أحزم، أو إسراعه إلى ما البطء عنه أمثل.

وهذا يدل على:

ألف: أن لديه قدرة تمييز والتفات لدقائق الأمور عالية.

ب: أن لديه قدرة على المقارنة والموازنة، وتلمس لطائف الفوارق ودقائقها. وعلى أنه يحسن الاختيار، وإذا اختار، فإنه حازم في قراره، فهو يتابعه بجدية وإصرار.

ج: إنه ليس من أهل التسويف والتباطؤ، ولا من أهل الطيش والرعونة غير المحسوبة العواقب.

خلاصة جامعة:

نستخلص مما تقدم ما يلي:

١ ـ أن لا يبدأ المسلم أحداً بقتال. وهذا يعني: أن قتال المسلم يكون دفاعياً.

٢ ـ إذا بدأ الطرف الآخر بالقتال كان باغياً وظالماً، وقد أذن الله لمن قوتل بالدفاع عن نفسه.

٣ ـ المناوشات التي قد تحصل من العناصر المتطفلة، وغير المنضبطة لا تعني أن الجيش الآخر قد بدأ القتال.. لأن المقصود بالقتال هو ذلك الذي يكون عن قرار القيادة.

٤ ـ لا يقاتل أحداً قبل الاحتجاج عليه، وبيان الحق له.

٥ ـ مفاوضة القادة، وإقامة الحجة عليهم لا تسقط حق العناصر في معرفة الحجج الموضحة للحق. ولا يصح قتالهم، وقتلهم أو جرحهم بدون ذلك.

٦ ـ لا يكفي أن نعلم الناس بحقنا من خلال وسائل الإعلام العامة. لأن ذلك لا يدفع احتمال التضليل لكثير من العناصر، أو احتمال جهلهم بالأمور، وعدم سماعهم لما ورد في وسائل الإعلام.

٧ ـ لا بد من تكرار الدعوة والبيان إلى أن نتحقق من وضوح الأمر، وأن الطرف الآخر جاحد ومعاند.

٨ ـ القائد يجب أن يكون قادراً على ضبط مشاعره مقابل من يبغضه ويعاديه، ويظهر عيوبه، ويتهمه..

٩ ـ إن الممارسات الحاقدة، وسوء خلق العدو لا يسقط حق العدو بالبيان والاحتجاج عليه، وسماع حججه وذرائعه وهواجسه.

١٠ ـ لا يكفي أن تخبر العدو بالحجة، بصورة الفرض والإملاء، مصاحباً بإظهار المنفرات والإيحاء بالحقد.

١١ ـ لا يكفي في الحكم على الآخرين، حتى من جاء لحربك ـ لا يكفي ـ الاعتماد على الشائعات. ولا على ظواهر الأحوال..

١٢ ـ اللقاء المباشر للحوار إن أمكن، فهو المتعين. مع ملاحظة ضرورة أن يشعر من تحاوره أنك تريد الخير والسعادة، والرشاد له..

١٣ ـ يجب الامتناع عن جميع أنواع القتال والأعمال العدوانية، فلا يعمل على تخريب منشآتهم، أو تسريب مواد كيماوية مضرة لهم، أو اغتيال بعض عناصرهم، أو ما إلى ذلك.

١٤ ـ لزوم اعتماد أقصى درجات الوضوح والصراحة في نصوص الأوامر التي تصدرها القيادة لعناصرها.

١٥ ـ ينبغي في الحرب الدفاعية مراعاة ما يلي:

ألف: أن يجعل المدافع الله شريكاً له في الحرب، وأن يطلب المعونة منه.

ب: أن يحارب المعتدى عليه ظالمه بحدة وقوة وشراسة، لكون ذلك درساً

رادعاً له.

ج: أن يبذل كل جهده ووسعه في الحرب، ولا يدَّخر أية قوة يمكن توظيفها فيها لحسمها.

١٦ ـ ضرورة التواصل المستمر بين القائد الأعلى، والقادة الميدانيين.

١٧ ـ أن يعلم القائد الميداني، القائد الأعلى بالحصيلة العامة للحرب، والنتيجة الكلية إلى تلك اللحظة، كأن يقول له: قتلنا كذا، وأسرنا كذا، ودمرنا الموقع الفلاني، وتقدمنا إلى هذا الموقع أو ذاك، أو نحو ذلك.

١٨ ـ أن يعلمه أيضاً بالواقع التفصيلي القائم حتى لحظة هذا الابلاغ.

١٩ ـ أن يشرح له نظرته لمستقبل سير المعركة، وما يراه من إجراءات أو خطط مناسبة.. لكي يرشده القائد الأعلى إلى مواقع الخلل، أو يطرح عليه خيارات أنسب أو أصوب.

٢٠ ـ أن يخبر القائد الميداني قائده الأعلى بالمستجدات والطوارئ، وبما يرى أن الحرب ستؤول إليه، لكي يعمل على تلافي بعض السلبيات في مسار الأمور.

٢١ ـ إن حدوث أمور غير متوقعة خارجة عن الاختيار، لا ينبغي أن يحبط العزائم، بل هو درس مفيد للقادة، وعليهم أن لا ينسوه، بل يجعلون له حيزاً حين يضعون خططهم للحرب.

٢٢ ـ إن القائد الأعلى هو الذي يحدد القادة الأساسيين في الميدان بأسمائهم.. ويذكر أسماءهم للقائد الميداني العام، فيكون هو الذي يصدر مرسوم التعيين المباشر لهم.

٢٣ ـ توحـيد المرجعية للقادة الميدانيين، فلا يُقْدمون على شيء إلا من خلال القائد الميداني العام، ويكون هو مصدر القرار.

٢٤ ـ القائد الأعلى هو الذي يحدد للقادة الميدانيين جهة وموقع ومحيط عملهم، ككون هذا قائد الميمنة، وذاك للميسرة، ولا يوكل الأمر إليهم.

٢٥ ـ القائد الأعلى هو الذي يحدد موقع استقرار القائد الميداني العام.

٢٦ ـ إنه «عليه السلام» حدد موقع الأشتر بأن يكون وسط أصحابه ـ فإن ذلك ـ يجعل التواصل به سهلاً، ويمنح الجيش ثقة وقوة، ويعطي القائد نفسه هيمنة وقدرة على التعامل مع الأوضاع من موقع المشرف والحاضر والناظر.

٢٧ ـ القائد الأعلى هو الذي يحدد المسافة الفاصلة بين الجيشين..

٢٨ ـ لا يصح الاقتراب الشديد من مواقع العدو قبل التحام القتال، لإفساح المجال للدعوة.

٢٩ ـ يجب مراعاة الأحوال النفسية للعدو، ودراسة الظروف المؤثرة، وما تفرضه من حاجات ومعالجات.

٣٠ ـ إن الحوار مع عناصر الطرف الآخر، ودعوتهم يحتاج إلى تطمين العدو، بأنه ليست هناك نوايا سيئة تجاهه. وهذا التطمين يقتضي عدم الاقتراب منه بحيث يظن أن ثمة نوايا بإنشاب الحرب.

٣١ ـ أن لا يتباعد عن العدو تباعد الخائف، فيطمع به، ويتصلب في مواقفه.

٣٢ ـ مراعاة احترام جانب القادة، في المكاتبات وتحاشي أي نوع من أنواع الإيحاء السلبي الجارح للشعور.. فلا يستعمل حتى كلمة العزل مثلاً.

٣٣ ـ لزوم توحيد الأوامر الصادرة، لتكون عامة للجميع، فإن ذلك أدعى للانضباط، ويدعو للرقابة المتبادلة، كما أنه يحقق درجة من الانسجام في العمل الميداني.

٣٤ ـ من مواصفات القائد: أن يكون ممن لا يخاف رهقه، أي لا يمكِّن العدو من مفاجأته بأمر لم يحسب له حساباً.

٣٥ ـ أن يكون قادراً على تخيل ما يفكر به عدوه، وما يمكن أن يدبره من مكائد.

٣٦ ـ أن لا يكون ممن يخشى وقوعه في الهفوات، لأنه يقظ بما فيه الكفاية.

٣٧ ـ أن تكون لديه قدرة على التمييز والموازنة بين الخيارات لما لديه من فكر جوال.

٣٨ ـ أن يدرك لطائف الفوارق ودقائقها ليسهل عليه الاختيار الأنسب والأصوب.

٣٩ ـ أن لا يكون من أهل التباطؤ والتسويف.

الفصل الخامس:

إذا أخطأ القائد..

عقوبات القادة

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين..

وبعد..

حصيلة النص موضع البحث:

قالوا ما ملخصه: إن معاوية وجَّه في سنة ٣٩هـ عبد الله بن مسعدة الفزاري إلى الحجاز في مهمة عدوانية.. أمرهم فيها بأخذ صدقات الناس بالقوة، وأن يقتلوا من يمتنع.

واجتمع لابن مسعدة بَشَرٌ كثير من قومه. أعني بني فزارة، وسار بهم إلى الحجاز.

فبلغ ذلك علياً «عليه السلام»، فوجه المسيب بن نجبة الفزاري لمواجهته، وقال «عليه السلام» له:

«يا مسيب! إنك ممن أثق بصلاحه، وبأسه، ونصيحته، فتوجه إلى هؤلاء القوم، وأثِّر فيهم، وإن كانوا قومك.

فقال له المسيب: يا أمير المؤمنين! إن من سعادتي أن كنت من ثقاتك.

ثم خرج، فلحق عبد الله بن مسعدة، بتيماء، فاقتتلوا ذلك اليوم حتى زالت الشمس.. وحمل المسيب على ابن مسعدة، فضربه ثلاث ضربات، كل ذلك لا يلتمس قتله، ويقول له: النجاء النجاء..

فانهزم ابن مسعدة، فدخل وعامة من معه الحصن، وهرب الباقون نحو أهل الشام، وانتهب الأعراب إبل الصدقة التي كانت مع ابن مسعدة.

وحصره المسيب ثلاثة أيام، ثم ألقى الحطب على الباب، باب الحصن، وأحرقه، فأشرف من بداخله على المسيب! فقالوا: إنما نحن قومك، فليمسَّك الرحم.

فأمر بالنار فأطفئت.

وقال لأصحابه: قد جاءتني عيون فأخبروني: أن جنداً قد أقبل إليكم من الشام، فانضموا في مكان واحد.

فخرج ابن مسعدة ليلاً في أصحابه، فلحق بالشام.

فقال عبد الرحمن بن شبيب: سر بنا في طلبهم.

فأبى المسيب ذلك.

فقال له: غششت أمير المؤمنين، وداهنت والله يا مسيب في أمرهم..

وقدم على علي، فقال له علي «عليه السلام»: يا مسيب! كنت من نصَّاحي، ثم فعلت ما فعلت! فحبسه أياماً، ثم أطلقه، وولاه قبض الصدقة بالكوفة[1].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص١٣٤ و ١٣٥ والكامل في التاريخ ج٣ ص٣٧٦ والبداية والنهاية ج٧ ص٣٢٠ وراجع: تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٩٦ وأنساب

وعند البلاذري:

أنه «عليه السلام» حجبه أياماً، ثم دعا به فوبخه وقال [له: يا مسيب] حابيت قومك، وداهنت، وضيعت؟!

فاعتذر إليه، وكلَّمه وجوه أهل الكوفة في الرضاء عنه، فلم يجبهم، وربطه إلى سارية من سواري المسجد.

ويقال: إنه حبسه ثم دعا به، فقال له: إنه قد كلمني فيك من أنت أرجى عندي منه، فكرهت أن يكون لأحد منهم عندك يد دوني.

وأظهر الرضا عنه، وولاه قبض الصدقة بالكوفة، فأشرك في ذلك بينه وبين عبد الرحمان بن محمد الكندي.

ثم إنه حاسبهما فلم يجد عليهما شيئاً.

فوجههما بعد ذلك في عمل ولاهما إياه، فلم يجد عليهما سبيلاً، فقال:

«لو كان الناس كلهم مثل هذين الرجلين الصالحين، ما ضرَّ صاحب غنم لو خلَّاها بلا راع، وما ضرَّ المسلمات لا تغلق عليهن الأبواب، وما ضرَّ تاجراً لو ألقى تجارته بالعراء»[١].

ونقول:

إننا نستفيد من هذه النصوص أموراً مهمة، نحتاج إليها لمعالجة كثير من المشكلات التي تواجهنا في حياتنا، ولتكون لنا منها العِبر والعظات،

الأشراف (ط سنة ١٤١٦ هـ) ج٢ ص٣٤٩ و (ط أخرى) ج٣ ص٢٠٩.

(١) أنساب الأشراف (ط سنة ١٤١٦ هـ) ج٢ ص٣٥٠ و (ط الأعلمي) ص٤٥٠.

والإشارات، والدلالات.

ونذكر من ذلك ما يلي:

لماذا فزاريان؟!:

إنه «عليه السلام» وجه جيشاً مختلط الانتماءات من همدان، وطيء وغيرهما، يقوده رجل فزاري ليواجه جيشاً معادياً فيه جمع كثير من بني فزارة، ويقوده رجل فزاري أيضاً.. كما دل عليه قوله «عليه السلام» للمسيب: «فتوجه إلى هؤلاء القوم وأثِّر فيهم، وإن كانوا قومك». حسب نص اليعقوبي.

وهذا أمر قد يحصل مثله في كل زمان.

وقد دلتنا النصوص التي ذكرناها آنفاً على ما يلي:

١ ـ إن علياً «عليه السلام» قد فعل ذلك عن سابق علم وإرادة.. فقد كان بإمكانه «عليه السلام» أن يؤمِّر على ذلك الجيش رجلاً آخر من غير بني فزارة، فإن الرجال القادة ليسوا قليلين عنده «عليه السلام».

٢ ـ إنه «عليه السلام» لم يختر رجلاً من عَرض الناس، الذين فيهم الصالح وغيره، بل اختار رجلاً وجيهاً معروفاً، مشهوداً له بالصلاح، والنصيحة، والبأس.

٣ ـ إنه «عليه السلام» يصرِّح للمسيب: بأنه يثق به، ويثق ببأسه، ونصيحته، والمفروض أنه «عليه السلام» لم يأخذ ذلك من الشائعات.. فإن لم يكن أخذه بالخبرة المباشرة، فلا بد أن يكون قد اعتمد على طرق موثوقة، تصلح لاعتماد مثله «عليه السلام» عليها.

٤ ـ إنه «عليه السلام» كان يعلم: أن العصبية للعشيرة لها آثارها السلبية، ولاسيما في الحروب، حتى إنها قد تحمل على خيانة الأمانة، وتوجب تضييع

النصر، وتتسبب بالكوارث.. وقد نبَّه علي «عليه السلام» المسيب على هذه الأحوال بقوله له: «وأثِّر فيهم، وإن كانوا قومك».

٥ ـ إنه «عليه السلام» بكلمته هذه للمسيب «وإن كانوا قومك».. يُفهمه أنه كان يتوقع منه أن يقع تحت تأثير العصبية، فيبتلى بالتردد والتخاذل والفشل، أو بما يزيد على ذلك..

٦ ـ هل أراد «عليه السلام» أن يضع المسيب أمام هذا الامتحان، ليظهر حقيقة، قد يتنكر لها الكثيرون، ويحاولون التعمية عليها، وهي: أن الحمية للقبيلة قد تتفوق في تأثيرها حتى على حمية الدين، والأخلاق، والقيم، والاعتبارات الاجتماعية.. فها هو المسيب، وهو الرجل الظاهر الصلاح، المعروف ببأسه، ونصيحته، ينساق مع عصبيته، ويحابي قومه، ولا ينفذ أوامر إمامه وقائده.

٧ ـ إن هذا يعطي: أن على القادة أن يحسبوا لهذه الحالات حسابها، وأن يحتاطوا لها، وأن لا يتوانوا في رصدها، ومعالجة سلبياتها وآثارها، قبل أن تستفحل في فتكها، ونشر سمومها..

٨ ـ اللافت هنا: أنه «عليه السلام» قد طلب من المسيب: «أن يؤثِّر فيهم، وإن كانوا قومه».. فكأنه «عليه السلام» بكلامه هذا يريد أن يخبر المسيب بأنه لا يريد أن يراه منساقاً مع عصبيته لقومه.

كما أنه يريد أن يعرِّفنا أن أهداف الإمام ليست هي مجرد تفادي الآثار السلبية للعصبيات، بل المطلوب هو: أن تتحول العصبية من كونها للقوم والعشيرة، لتصبح عصبية لله، وللحق، وللقيم والدين، والأخلاق، والمستضعفين.

وهذه هي الغاية التي يريد الله للناس أن يبلغوها، ويمارسوها، وتصبح

خُلُقاً لهم..

فعلى القادة أن يربوا عناصرهم تربية صالحة حتى ينالوا هذه المراتب.

٩ ـ يلاحظ: أنه «عليه السلام» قال للمسيب: «وأثِّر فيهم»، ولم يقل له: اقتلهم مثلاً.. فإن المطلوب هو كسر شوكتهم، ومجازاتهم على فعلتهم، ورد عاديتهم، حتى لا يجرؤوا هم ولا غيرهم على مثلها.

وقد حارب النبي «صلى الله عليه وآله» مشركي قريش، وهم قومه، وأثَّر فيهم، وقتل عتاتهم، وردَّهم خائبين آيسين، وحملهم على أن يأتوه صاغرين، يجرون جلابيب المذلَّة والمهانة، لأنهم سعوا في إطفاء نور الله، ومحق دينه، وكذَّبوا رسوله.

ولكن ما فعله المسيب من تمكين قومه من النجاة لم يكن أكثر من معالجة آنية، لم تحسم الداء، بل أبقت لدى الأعداء الأمل حيَّاً بإعادة الكرَّة، فقد ظهر لهم: أنهم إذا واجهتهم ظروف صعبة، فإن بإمكانهم الاعتماد على هذه العصبيات الجاهلية اللئيمة، وعلى ضعف تأثير الحمية للدين، والحق، والقيم، وعلى هشاشة الواقع الأخلاقي، والالتزام الديني، مقابل عادات الجاهلية، وآثارها على الأرواح والأنفس والعقول.

١٠ ـ يبدو لنا: أنه «عليه السلام» أراد باختياره المسيب لهـذه المهمة: أن يقدِّم «عليه السلام» درساً عملياً حياً للأجيال، وخصوصاً القادة منهم، يدعوهم إلى القيام باختبارات عملية لقيادات الصف الأول، وأن لا يقتصر الأمر على ملاحظة الصلاح الظاهر، والشجاعة، وظهور بعض ما يدل على الإخلاص في النصيحة.. فإن الاقتصار على ذلك سذاجة، وغفلة لا بد من تحاشيها.

١١ ـ لقد ذكر «عليه السلام» ثلاثة أمور وجدها في المسيب.. كأنها هي التي بررت اختياره إياه لهذه المهمة، وهي:

ألف: أنه يثق بصلاحه.

ب: إنه «عليه السلام» يثق ببأسه وشجاعته.

ج: إنه «عليه السلام» يثق بنصيحته.

وقد ظهر: أن هذه الأمور الثلاثة هي أهم وأقوى ما يعتمد عليه رؤساء البلاد والعباد، لاختيار كبار القادة العسكريين عبر التاريخ، في حين أن هذه الأمور كلها لا تبرر هذا الاختيار.. إلا إذا انضم إليها اختبار قوتها، ومدى مقاومتها للنوازع النفسية القوية، المتمثلة في هذا المورد بالخصوص بالعصبية للقبيلة.

١٢ ـ ثم إنه لا مجال لحصر الموضوع في النوازع النفسية في نطاق العصبية القبلية، بل لا بد من اختبارات أخرى في مجالات لا تقل في حدتها أو تحديها لهذه العناصر الثلاثة المشار إليها، عن التعصب للقبيلة..

خذ مثلاً على ذلك:

ألف: الإغراءات الجنسية، والخضوع لسلطان الشهوة.

ب: الإغراءات المالية، والخضوع لحالات الجشع، والطمع.. على قاعدتين لا بد من رصدهما بحرفية ودقة:

أولاهما: ما أشير إليه بقوله تعالى: **﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾**(١).

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الفجر.

ثانيهما: ما جاء في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾[١].

ج: الإنبهار بالمقامات، والمراتب.. ولاسيما ما فيه سلطة وقوة، ونفوذ، حيث ترى الكثيرين يبذلون أقصى الجهد للحصول على ما أمكن الحصول عليه منها، في عملية انسحاق تام أمامها، من دون أن يعيروا أي اهتمام للوازع الديني والأخلاقي، ولما تقتضيه الفطرة السليمة، ومدركات العقول، فيما تدركه من حسن هنا، أو قبحٍ هناك.

إن بعض هؤلاء، أو كثيراً منهم يخضع خضوعاً حقيقياً للأنا التي تضخمت، واستكبرت، حتى طغت، وبغت، وصارت تعطي لنفسها مقامات تتجاوز حدود المقبول والمعقول.. وكأن أحدهم يرى أن عنصر الألوهية قد حلّ فيه، فصار يتصرف، ويأمر وينهى، ويثيب، ويعاقب.

وما أكثر هذا النوع من الناس، الذين تضخمت الأنا فيهم إلى هذه الحدود المهلكة للدين والقيم، والأخلاق، المنتهكة لحقوق حتى أقرب الناس إليهم، حيث يعاملونهم بقسوة، وبشراسة بالغة، وكأنهم ينطلقون من حقد دفين، ولا يهتمون لقيم، ولا لشرع، أو دين، بل قد لا يودّون الخضوع لإرادة رب العالمين.

فإذا كان علي «عليه السلام» قد أجرى هذا الاختبار الناجح جداً في هذا المورد، الذي يحتاج الالتفات إليه إلى بعض المؤونة والمعونة، فإن لزوم إجراء اختبارات مماثلة ـ وبصورة أقوى ـ في المجالات الثلاثة التي أشرنا إليها آنفاً.. يصبح ظاهراً، أو مطلوباً كلما واجهنا حالات مماثلة.

---

(١) الآيتان ٦ و ٧ من سورة العلق.

١٣ ـ إن السياسة القتالية للأنبياء والأوصياء، وأهل الدين لا تقوم على الإكثار من سفك الدماء، وإبادة الخصوم..

بل المطلوب لهم هو مجرد دفع المعتدين، والتخلص من شرهم، وكسر شوكتهم، ومجازاتهم على قبيح أعمالهم، ولاسيما حين ينقضون العهود، ويعتدون على أهل الدين، والمستضعفين..

والشواهد على ذلك كثيرة، وقد كان هذا هو محور سياسة علي «عليه السلام».. فإنه في حرب صفين جعل كل قبيلة من أهل العراق في مواجهة إخوانهم في القبيلة من أهل الشام، فجعل همدان العراق مقابل همدان الشام، وتميم مقابل تميم، وهكذا فعل بسائر القبائل(١).

وكان هدفه تقليل القتلى فيما بين الفريقين، فإن أهل القبيلة الواحدة لا يمعنون في سفك دماء بعضهم.

كما أنه في حرب الجمل أرسل منادياً ينادي في جيش عائشة: «اتقوا سيف الأشتر، وجندب بن زهير»(٢).

---

(١) راجع: وقعة صفين للمنقري ص٢٢٩ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٥ ص١٨٦ والأخبار الطوال للدينوري ص١٨١ وتاريخ الأمم والملوك (ط مؤسسة الأعلمي) ج٤ ص٩ وراجع: أنساب الأشراف ج٢ ص٣٠٥ والفتوح لابن أعثم ج٣ ص١٤١ وراجع ج٢ ص٢٩٩.

(٢) راجع: الجمل للمفيد ص٣٦٤ و (ط مكتبة الداوري) ص١٩٤ والإصابة ج١ ص٢٤٨ ولباب الآداب ص١٨٧.

وفي هذا المورد يرسل فزارياً ـ وهو المسيب ـ لمواجهة مهاجم هو وأصحابه من الفزاريين.

ونستفيد من ذلك كله: أن على القائد الميداني، أن لا يكون حريصاً على سفك الدماء، بل أن يكون همه هو دفع العدو ـ ولاسيما إذا كان ينسب نفسه إلى الإسلام ـ بأقل الخسائر الممكنة.

ماذا فعل المسيب؟!:

١ ـ قد أظهرت النصوص المتقدمة: أن المسيب لم يكن متوازناً في تصرفاته، بل كان مربكاً إلى حد كبير، فإنه في أول قتال خاضه في مواجهة قومه في اليوم الأول كان شديداً وحازماً إلى حد أن طائفة من أصحاب ابن مسعدة قد هربت باتجاه الشام.. ودخلت طائفة أخرى بقيت تحارب إلى الحصن مع ابن مسعدة، ثم تواجه المسيب مع ابن مسعدة، فصار يضربه، بحيث لا يلحق به ضرراً، ويطلب منه أن ينجو بنفسه.

فهل فعل ذلك لألفة سابقة كانت بينه وبين ابن مسعدة، لم يشأ المسيب أن يهدمها؟!

ولماذا كان شديداً في حربه طيلة اليوم الأول إلى الزوال.. ثم تراخى في مواجهة ابن مسعدة، ومكَّنه من الإفلات، ودخول الحصن مع باقي أصحابه؟!

٢ ـ كما أنه عاد فاشتد على ابن مسعدة، ومن معه، فحصرهم ثلاثة أيام، ثم ألقى بالحطب على باب الحصن، وأضرم فيه النار، فاحترق الباب.

فأحس الذين كانوا داخل الحصن بالخطر، فاستعطفوا المسيب، فرقَّ لهم، وأمر بالنار، فأطفئت.. فأين هذا اللين من تلك الشدة التي سبقت؟!

٣ ـ ثم زعم لأصحابه: أن جنداً من أهل الشام يقصدهم، وأمرهم بالتجمع في مكان واحد، لكي يتمكن من بالحصن من الإفلات ليلاً، فكان له ما أراد، فلحقوا بالشام..

٤ ـ ثم لم يرض بملاحقة ابن مسعدة ومن معه.. حين طلب عبد الرحمان بن شبيب منه ذلك.

وقديماً قيل: كاد المريب أن يقول خذوني.

عقوبة المسيب:

وإذا رجعنا إلى ما ذكرته النصوص من عقوبة علي «عليه السلام» للمسيب، فإن أموراً عديدة تستوقفنا أيضاً، فلاحظ ما يلي:

أولاً: قد يخيل للناظر في العقوبات التي أنزلها علي «عليه السلام» بالمسيب أنها كبيرة، وحازمة، وشديدة، ولكن المقارنة بين طبيعة الذنب، وبين أنواع العقوبات التي تعرض المسيب لها تعطي: أنها جاءت بحجم الذنب الذي اقترفه المسيب.

وهذا التوافق في الحجم يجب أن يلاحظ في كل عقوبة لمذنب، حيث يجب أن تكون على قدر الذنب.

وهذا يحتاج في كثير من الأحيان إلى التأني والدقة في دراسة واقع الذنب، وطبيعة تأثيراته، وحجم الأضرار التي ألحقها بالسياسات والأهداف، وبالنفسيات، والمعنويات، وما إلى ذلك..

ثانياً: إن العقوبات التي أنزلها علي «عليه السلام» بالمسيب هي التالية:

ألف: التوبيخ الذي وجهه أمير المؤمنين إلى المسيب.

ب: إنه حبسه أياماً، ثم أطلقه.

ج: حجبه أياماً، (ويحتمل أن تكون كلمة «حجبه» مصحفة عن «حبسه»).

د: إنه «عليه السلام» رفض طلب أهل الكوفة أن يرضى عن المسيب، فأبقاه مربوطاً في المسجد أمام أعين الناس..

هـ: ربطه إلى سارية من سواري المسجد.

ثالثاً: إنه «عليه السلام» قد سجل على المسيب المؤاخذات التي بررت عقوبته، وهي التالية:

ألف: إنه حابى قومه.

ب: إنه داهن.

ج: إنه قد ضيع.

رابعاً: إن محاباة المسيب لقومه قد يمكن السكوت عنها، لو كان الثمن الذي دفعه لهم، كان من جيبه وحسابه الخاص.. بأن تجاوز هو عمَّنْ أساء إليه من قومه، وإن لم يفعل مثل ذلك مع قوم آخرين شاركوهم بالإساءة إليه أيضاً.

أما إن كانوا قد أساؤوا إلى الله تعالى، وإلى رسوله «صلى الله عليه وآله»، وإلى الإمام «عليه السلام»، وإلى الأمة، وإلى أناس أبرياء اعتدوا عليهم، وسلبوهم صدقات أموالهم، فإن محاباته لهم، قد ألحقت الظلم بكل هؤلاء، وليس لأي كان الحق في أن يظلم أحداً، أو أن يضيع حق أحد.

ومن المعلوم: أن هذا الظلم، وإن كان قد حصل بصورة غير مباشرة، ولكنه قبيح مرفوض كيفما حصل..

وهذا درس نتعلمه من أمير المؤمنين «عليه السلام»: أن علينا معاقبة ـ حتى القادة على ظلمهم ـ حتى لو كان هذا الظلم بصورة غير مباشرة، كأن أوجب تفويت عقوبة الظالم، ومعاقبته على ظلمه.

خامساً: إن المداهنة، والتذاكي على الناس، وإيهامهم بأمور لا واقع لها، طلباً لغفلتهم عن حقيقة ما يدبره قائدهم لمصلحة عدو الله، وعدوهم.. هو خيانة للأمانة، واستخفاف بالمؤمنين، واستغلال لحسن ظنهم به، وأمنهم جانبه، ولهذه الممارسات الخادعة للمؤمنين عقوباتها أيضاً، ولا مجال لتجاهلها، والمرور عنها مرور الكرام.

سادساً: إن المسيب بهذه المداهنة قد فت بعضد المؤمنين، واحتقرهم، وأهانهم، وجعلهم أضحوكة لعدوهم، وموضعاً للسخرية، والاستهزاء، والاستخفاف بهم.

سابعاً: إنه قد ضيَّع جهد أهل الإيمان، حيث لم يكن جاداً في قتاله لابن مسعدة، وسهَّل له طريق الفرار من بين يديه، ودخول الحصن، وكان ذلك سبباً في انتهاب الأعراب إبل الصدقة التي كانت مع ابن مسعدة.. وكان قد أخذها من أهلها قهراً كما تقدم.

ثم سهَّل لهم الفرار من الحصن، واللحاق بالشام.

وضيَّع أيضاً نصراً كان وشيكاً، لو أنه امتثل أمر أمير المؤمنين «عليه السلام» له، بأن يؤثِّر في قومه، وكان من شأن هذا النصر أن يردع العدو المتربص بالمؤمنين شراً عن التفكير بإعادة الكرة، فإنه بعمله هذا قد كشف لمعاوية، ولسائر أعداء أهل الإيمان عن ثغرة خطيرة تشجعه على أن يعمل

على الاستفادة منها مرة بعد أخرى.

وهذا أمر خطير لا بد من العقوبة عليه.

ولو لم يعاقب عليه فاعله، فإنه قد يتكرر من قبل قادة آخرين، ولعل عواقبه تكون أعظم شراً، وأشد خطراً.

التوافق بين الذنوب وعقوباتها:

١ ـ إن من تُحذِّره من أمر قبل أن يباشر أي عمل، وتُظْهِر له أن عليه أن يتجنبه، لأنه أمر غير مرضي، ثم يكون كل همِّه منصرفاً إلى صنع المخالفة في نفس ما حذرته منه، ساعياً للوصول إليه، بكل حيلة ووسيلة، ولو بالخداع للأهل والأحبة، والأتباع.. إن رجلاً كهذا سيكون مستحقاً للملامة، بل للمهانة بلا ريب، فكيف إذا أمرته بأن يعمل بضده، وأعربت له عن ثقتك بصلاحه، ونصيحته.. ثم هو يظهر سروره بهذا النشاط والإطراء، فإن الملامة له ستكون أشد، والعتب عليه، والتوبيخ له يجب أن يكون أقسى وأعظم..

مع العلم: بأن هذا التوبيخ الدال على التألم من فعله، وعلى اهتزاز ثقة إمامه به، أمر بالغ التأثير عند أهل النُبل والشهامة، والعزة، والكرامة.

٢ ـ والحبس بالنسبة لمن ارتكب أمثال هذه الأمور سيكون أمراً طبيعياً بعد أخذ آثار أعماله الكبيرة والخطيرة بنظر الاعتبار.

كما أن هذا الحبس يعطيه فرصة للتأمل بأفعاله، وتلمّس مواضع الصواب فيها.. ثم هو فرصة للنظر بما آل إليه أمره، بسبب انقياده للهوى وللعصبية المقيتة.

غير أنه قد يقال: لعل قصر مدة حبسه سببه: أن انسياقه وراء العصبية كان

عفوياً، وربما صاحبته غفلة عما كان علي «عليه السلام» أمره به، ونبهه إليه.

ولعل هذا كان بعض ما اعتذر به المسيب لعلي «عليه السلام».

غير أننا نقول:

إن الحبس ليس من العقوبات التي لا يمكن استبدالها بغيرها من الإجراءات الرادعة، بل هي عقوبة تعزيرية، يوكل أمر تقريرها، وتقديرها لنظر الحاكم فيما يراه مفيداً لتحقيق الأغراض القصوى.

وقد أظهر تعامل علي «عليه السلام»: أن العقوبة على الجرم لا يعفي منها ادِّعاء الانسياق مع المشاعر، لأن أصل جعل العقوبة إنما هو للحد من طغيان المشاعر.. ولذا لا يعذر القاتل بادِّعائه أنه انساق مع فورة غضبه.

٣ ـ إن ما ارتكبه المسيب، فلم يكن غرضه منه الإساءة إلى شخص علي «عليه السلام»، أو العدوان على حق خاص به «عليه السلام». بل هو بحسب الظاهر عدوان عليه «صلوات الله عليه» بما هو إمام، وهو أيضاً على حق الله، وحقوق الناس، وعلى قيم وأخلاق أهل الإيمان، وربما توجهت منه إساءة إلى الدين نفسه، ولو عن غير قصد.

كما أوجب وهناً في حصانة المجتمع الإيماني من التعرض لحملات أخرى، لا يمكن التكهن بما لها من نتائج وأضرار.

كما أنه قد فتح الباب أمام قادة آخرين، لارتكاب نفس الخطأ، إذا تعرضوا لمثل ما تعرض له المسيب.

فالمطلوب من علي «عليه السلام» في مثل هذه الحال هو العقوبة التي توجب

سدّ الثغرات، ومعالجة الأضرار، وإعادة الأمور إلى نصابها.

فليس لعلي «عليه السلام» أن يعفو عن أحد قبل حصول هذا الأمر، إلا في حالات خاصة واستثنائية، لم تكن الأمور قد بلغتها.

ولأجل ذلك، ولأسباب أخرى رفض «عليه السلام» طلب وجوه أهل الكوفة منه «عليه السلام» أن يرضى عن المسيب.

٤ ـ ولأنه «عليه السلام» لا بد أن يعالج السلبيات التي تلحق بسلك القادة عنده، وبغيرهم، من حيث إن المحاباة للعشيرة والأقارب أمر قد يعرض للكثيرين، وهو يفت في عضد أهل الإيمان، وتلحق بهم بسبب ذلك سلبيات وأخطار كثيرة..

ولأن المسيب قد مارس هذا الخطأ على رؤوس الأشهاد في بعض فصوله، ثم مارس الخديعة في الجزء الباقي.. فقد استحق الحبس، والتشهير به على النحو الذي تقدم.

ولأن دواعي المسيب الحقيقية هي الاستنكاف عن لحوق الوهن بقومه، حتى وهم يحاربون الحق وأهله، فإن عقوبة ربطه إلى سارية المسجد، ليشعر بالذل أمام الحق، عوضاً عن الاستكبار عن قبول الحق الذي شرَّعه الله تعالى، ويحكم به العقل، وتقضي به الفطرة، هي العقوبة المثلى التي تردع غيره عن سلوك نفس هذا الطريق، وليعيده هذا الذل الذي استحقه إلى حالة التوازن، والعقلانية، بعد أن أعطاه حبسه فرصة إلى التأمل والتبصر، وليعيش الشعور بالوحدة والوحشة، وعدم الناصر، ولتكون ندامته عارمة، وقراراته بعدم العود إلى هذا الخطأ الفادح جازمة وحازمة.. وهذا ما حصل بالفعل.

لا جدوى للوساطات:

إن عدم قبول وساطة وجوه أهل الكوفة لدى علي «عليه السلام» بالرضا عن المسيب، لهو أمر مهم جداً، ولاسيما في مجتمع عشائري، منقاد لزعاماته القبلية، بصورة تخرج عن دائرة المعقول.

فرفض وساطات وجوه أهل الكوفة التي هي أعظم حاضرة إسلامية في ذلك الوقت، مع شدة خطورة هذا الرفض، وما قد يجلبه من مصاعب ومتاعب، وردة فعل لدى تلك الزعامات التي خيَّب «عليه السلام» مسعاها يدلنا على لزوم القضاء على هذه الظاهرة، واقتلاعها من مجتمع الإسلام من جذورها، مهما كلف الأمر.

ويتأكد هذا الواجب في دائرة عقوبات القادة على وجه الخصوص، لأن كل ما يجري على القائد ستظهر آثاره فيمن تحت يده.

وتزيد ضرورة محاربة ظاهرة الوساطات وضوحاً، حين يكون الخطأ الذي ارتكبه القائد، الذي يشفع به الوجهاء مضراً بمصالح البلاد والعباد، أو موجباً للوهن في الدين وأهله، وفي الأخلاق والقيم التي يجب أن تكون مهيمنة على الناس في حياتهم العامة..

وقد يؤيد ذلك: ما روي عنهم «عليهم السلام»: لا شفاعة في حد[1].

---

(١) راجع: الوافي ج١٥ ص٥٤١ باب أنه لا شفاعة في حد ولا كفالة ولا إرث ولا يمين. وراجع: الكافي ج٧ ص٢٥٤ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٢٨ ص٤٢ ووسائل الشيعة (الإسلامية) ج١٨ ص٣٣٢ باب ٢٠.

وإنما يحسن العفو، ويثاب فاعله في موارد كون الحق للشخص الذي يعفو، لا في الحقوق الأخرى.

في سياق إعادة الاعتبار:

ثم إن على كبار المسؤولين: أن لا يكون همهم هو القضاء على المخطئ منهم، أو من الذين تحت يدهم قضاءً مبرماً، وسحقه إلى حد التلاشي، ورميه في سلة المهملات دون شفقة ورحمة، ودون أن يرف لهم جفن، ويفجروا كل قسوتهم وعنجهيتهم فيه، ليصبح رمَّة بالية، من القرون الخالية.

بل لا بد من العمل على استصلاح من يعاقبونه من جديد، وإعادة إنتاجه إنساناً سوياً وقوياً، وناجحاً، فإن العقوبة ليست سحقاً وإفناءً، بل هي تذكير للمذنب بجرمه، ودعوة له للتوبة منه، والتخلي عنه.

وهذا ما نتعلمه من سلوك علي «عليه السلام» مع المسيب، فإنه بعد كل ما جرى دعا بالمسيب، فذكر له: أن سبب رفضه ما طلبه منه وجوه أهل الكوفة من الرضا عنه، ليس لمجرد الرغبة في أن تأخذ عقوبته للمسيب مداها، بل ثمة أمر أهم من ذلك، وأعظم خطراً، وأبلغ أثراً، وهو:

أنه «عليه السلام» قد وازن بين المسيب الذي ارتكب هذا الذنب، ولا يزال يكابد عقوبته.. وبين وجوه أهل الكوفة الذين أرادوا أن يشفعوا فيه عنده، فوجد أن المسيب أرجى في نفسه من هؤلاء جميعاً، وأقرب إلى الصلاح والسداد، والفلاح منهم.

وعرف أن قبول الإمام «عليه السلام» بشفاعتهم سيجعل لهم يداً عند المسيب «رحمه الله»، تفرض عليه لهم ثمناً، يؤديه المسيب لهم، وهو ثمن قد

يكون باهظاً، بل قد يوقع المسيب نفسه في هاوية أعظم وأخطر من هذه الهاوية التي هو فيها، وذلك إذا كانت مكافأته لهم بمراعاة خواطرهم، والاستجابة لهم في أمور قد لا تكون راجحة، أو تكون مخالفة للشرع.

ومن المعلوم: أن علياً «عليه السلام» لم يكن يريد بعقوبته له التشفي منه، ولا ينطلق من حقد شخصي عليه، بل هو يريد تطهيره، وإعادته إلى طريق الحق والصواب، ولملمة آثار فعلته.

فالرضا عن المسيب لا يحتاج إلى شفاعة، بل هو تابع لمصلحة المسيب نفسه، ومنطلق منها، ويكفي في هذا الرضا: أن يطمئن علي «عليه السلام» إلى أنه قد عمل بالواجب الإلهي تجاه هذه المخالفة، ولم يعد هناك مورد إلا للرضا عن المسيب، ليواصل مسيرة استصلاحه، التي كانت عقوبته أحدى مراحلها الصعبة.

وقد أخبر علي «عليه السلام» المسيب: بأن هذه الموازنة هي التي دعته لرفض طلب وجوه أهل الكوفة، وهذا يعطي:

١ ـ أن على الحاكم أن ينظر إلى المستقبل بعين البصيرة..

٢ ـ وأن ينطلق من واجبه الرعائي لمن هو مسؤول عنهم، وهذا الواجب يعضده العقل السليم، الذي لا يبيح للمسؤول أن يجعل يداً لأناس عند شخص هو أكثر استقامة منهم، وأقرب منهم إلى الارتقاء في مدارج القرب، ومعارج الكرامة..

ويظهر مما تقدم أيضاً:

٣ ـ أن على الرئيس والحاكم أن لا يعاقب أحداً انتقاماً، بل على سبيل

الاستصلاح، وعملاً بالواجب الإلهي.

٤ ـ أن على الحاكم أن يضع نصب عينيه إنقاذ المخطئ، وتمهيد السبل له، ليجد الطريق الصحيح، ويختاره، ويكون هو العون له على اختياره هذا.. وتكون عقوبته له مرحلة من مراحل استصلاحه.

٥ ـ ليس للحاكم أن يمعن في تدمير المخطئين، بل عليه أن يعطيهم نفحات رضا ومحبة.

٦ ـ على الحاكم أن يمهد السبيل لاحتضان المخطئ بعد عقوبته.

٧ ـ على الحاكم أن يخبر المخطئ بما يدل على أنه يفكر بمستقبله، وبمصلحته، كما فعل أمير المؤمنين «عليه السلام» مع المسيب هنا.

٨ ـ على الحاكم أن لا يقدم على أمر ممكن أن يكون من أسباب إضعاف قدرات المخطئ على ترميم جراحه، بتسليط من هم دونه في الفضل عليه، وتمكينهم من ابتزازه.

٩ ـ عليه أن يعمل على ترميم معنى الثقة في نفس المخطئ، وأن يزرع الرجاء في قلبه، بأن يعلمه بأنه يحتل مقام الثقة والرضا في قلب الرئيس والحاكم.

١٠ ـ على الحاكم أن يظهر الرضا عن المخطئ بعد معاقبته، كما أظهر الغضب عليه، ولا بد من إظهار هذا الرضا للناس، كما كان الغضب ظاهراً لهم.

لا بد من تكرار الاختبار:

قد تقدم: أن أمير المؤمنين «عليه السلام» ولَّى المسيب قبض الصدقة في الكوفة، وأشرك معه عبد الرحمان بن محمد الكندي، ثم حاسبهما، فلم يجد عليهما شيئاً.

ثم وجههما بعد ذلك في عمل آخر ولاهما إياه، ولم يجد عليهما سبيلاً.

ونلاحظ هنا ما يلي:

١ ـ إن تولية قبض الصدقة لرجلين في مصر واحد مترامي الأطراف بحجم الكوفة التي ربما كانت أكبر مدن الإسلام في ذلك الحين، حيث كانت تعد بعشرات، إن لم يكن بمئات الألوف، أمر مفهوم ومتوقع، ولا غرابة فيه.

٢ ـ إن تولي الأمور المالية في الكوفة ليس من سنخ العصبية للعشيرة، لكي يقال: إنه يمالئ قومه، ويداهن، ويضيع، ولاسيما مع المحاسبة اللاحقة، في حين أن العصبية ربما تثور ثم تهدأ، وينتهي الأمر، فقد يندم، وقد يتمرد.

أما موضوع قبض الصدقات، فهو أمر خطير، لأنه يمثل إغراءً بالأموال بصورة مستمرة، وقد قال تعالى: ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾(١)، ويقول: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾(٢).

والمحاسبة تستطيع أن تكشف الخيانة المالية لو حصلت.

٣ ـ إن محاسبة المسيب وعبد الرحمان بن محمد الكندي تدلنا على أن على الحاكم أن لا يترك الحذر في مقام العمل، وأن الوثوق القلبي بالأشخاص لا يسوغ استثناءهم من العمل، والتدقيق معهم.

٤ ـ إن ثبوت سلامة المسار بالممارسة العملية هو الأقوى والأوثق، والأولى بالاعتماد عملياً، والشاهد على ذلك: أن علياً «عليه السلام» بعد أن

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الفجر.

(٢) الآيتان ٦ و ٧ من سورة العلق.

أخبر المسيب بأنه يثق بصلاحه، وبأسه ونصيحته، وقول المسيب: يا أمير المؤمنين! إن من سعادتي أن كنت من ثقاتك.. فإنه حين سار إلى ابن مسعدة حابى قومه، وداهن، وضيع.

٥ ـ قد يظن ظان: أن المسيب بعد أن عوقب على محاباته ومداهنته، وتضييعه، ربما ظن أن تولية علي «عليه السلام» إياه صدقات الكوفة تشير إلى أنه «عليه السلام» قد اعتبر هذه العقوبة من موجبات توبته الخالصة، والحاسمة، فقد تسوِّل للمسيب نفسه بأن يفوز ببعض ما بحوزته من أموال الصدقة، وسيكون في مأمن من افتضاح أمره.

كما أنه بعد أن حاسبه في الكوفة، فلم يجد عليه شيئاً قد قطع الشك باليقين، وزالت الشبهة نهائياً..

ويدل على ذلك: أنه قد ولاه عملاً آخر بصلاحيات أوسع من مجرد قبض الصدقات، وأصبح هو الآمر الناهي.

وهذا يشير إلى رسوخ يقينه بسلامة مساره.

فربما سوَّلت للمسيب نفسه أيضاً: بأن يمد يده إلى بعض المال الذي بحوزته، فجاءت المحاسبة الأخرى التي أظهرت الحقيقة من دون أية شبهة أو ريب.

٦ ـ ويبدو لنا: أن الأمر لم يطل، لأن استشهاد أمير المؤمنين «عليه السلام» في سنة ٤٠ هـ كان بعد سنة واحدة من عقوبة المسيب التي كانت سنة ٣٩ هـ.

ولعل هذا هو السبب في عدم ذكر المؤرخين أي شيء عن محاسبة ثالثة للمسيب بعد ذلك..

فإن استشهاد أمير المؤمنين القريب لم يدع مجالاً لتكرار المحاسبة.

٧ ـ ونستفيد من هذا الذي جرى أيضاً: أن عقوبة المخطئ لا تمنع من توليته المناصب بعدها.

٨ ـ لكن هذه التولية يجب أن تكون مقرونة بالمراقبة، والمحاسبة.

٩ ـ إنه لا تكفي المحاسبة مرة واحدة، بل لا بد من استمرارها وتكرارها.

١٠ ـ لا ينبغي أن يطول أمد تولي العمل الواحد، بل المطلوب هو التنويع، والنقل من موقع إلى موقع، فإن ذلك يساعد على كشف حقيقة العامل بصورة أسرع.

التنويه بأمانة المسيب، وإعادة الاعتبار له:

قد تقدم: أن علياً «عليه السلام» بعد المحاسبة الثانية للمسيب قد نوَّه على رؤوس الأشهاد بأمانة هذا الرجل، ووصفه بالصلاح، ولم يمنعه خطأ المسيب السابق، وعقوبته عليه بصورة مرة وقاسية من إطلاق هذه الشهادة القوية في حقه «رحمه الله».

فإن لم نستفد من كلماته «عليه السلام»: أن العمل الذي تولاه المسيب، وعبد الرحمان بن محمد الكندي، لم يقتصر على جباية الصدقات، بل كان أوسع من ذلك.. حيث ذكر «عليه السلام» أن ولايته كانت مؤثرة في استتباب الأمن الاجتماعي حتى بلغ أقصى مداه.. فقد حفظت الأعراض والأموال.

فضلاً عن الأنفس، ولو أن المسلمات لم تقفل عليهن الأبواب، لم يتعرض أحد لهن.

ولو أن تاجراً ألقى تجارته بالعراء لم يمسها أحد..

ولو أن صاحب غنم خلَّى غنمه بلا راع، لم يتعرض لغنمه أحد.. لأن شوكة العتاة والأشرار، والفساق قد كُسِرَت.

إننا إن لم نستفد ذلك، فلا شك في أنه «عليه السلام» كما يقول بعض الإخوة الأكارم:

أشار بصلاح الرجلين في ذاتهما، وانصلاح أمر ما ولياه كائناً ما كان، وأنه لو كان غيرهما مثلهما في الصلاح لصلحت شؤون الناس، لأن صلاح كل متولٍ لأمر من أمور الناس يوجب صلاح هذا الأمر، وصلاح حال الناس عامة في تلك الجهة الخاصة، فإذا كان كل الولاة كذلك لصلحت حال الناس عامة، من الجهات عامة، وأمن الراعي على غنمه، والتاجر على ماله، والمسلمات على أنفسهن.

وهذه درجة عالية من ضبط الأمور، والهيمنة على الواقع الاجتماعي..

فالمحاسبة، والمطالبة الأخيرة قد حصلت لمتولٍّ للشؤون، تام الاختيار، وليس لمن يتولى جمع صدقات الناس وحسب.

ثم جاءت هذه الشهادة القوية بعد تلك المحاسبة لحاكم قادر وأمين، وضابط لما تحت يده، مع أن هذا الحاكم كان قد أُدِّب، وعوقب قبل ذلك.

وهذا درس آخر نستفيده، وعلينا أن نجعله، مصدراً في تصدينا للمسؤولية الكبيرة والخطيرة، ولا تُقبل دعوى: أن حجم المسؤولية يحدّ من القدرة على ضبط الأمور.

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

الفصل السادس:

ضوابط لا بد من مراعاتها..

المراقبة ضرورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين..

وبعد.. **فقد ذكروا:** أنه لما قدم المشركون لحرب رسول الله «صلى الله عليه وآله» في أُحد نزلوا في مكان زراعي في منطقة أُحد، وحلوا العُقَدَ، واطمأنوا، وسرحوا دوابهم للرعي، فبعث رسول الله «صلى الله عليه وآله» ـ والنص للواقدي ـ الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم، فدخل فيهم، وحزر، ونظر إلى جميع ما يريد، وقد بعثه «صلى الله عليه وآله» سراً، وقال له: لا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى في القوم قِلَّةً.

فرجع إليه فأخبره خالياً، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وآله»: ما رأيت؟!

قال: رأيت يا رسول الله عدداً، حزرتهم ثلاثة آلاف. يزيدون قليلاً، أو ينقصون قليلاً. والخيل مائتي فرس. ورأيت دروعاً ظاهرة، حزرتها سبعمائة درع.

قال «صلى الله عليه وآله»: هل رأيت ظُعُناً؟!

قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار ـ الأكبار: الطبول.

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أردن أن يحرضن القوم، ويذكِّرنهم

قتلى بدر. هكذا جاءني خبرهم. لا تذكر من شأنهم حرفاً الخ..[(١)].

ونقول:

نستفيد من هذا النص أموراً عديدة، نذكرها ضمن النقاط التالية:

١ ـ إن الذي تصدى لإرسال الحباب بن المنذر لجمع المعلومات عن العدو هو المعني الأول، ورأس الهرم.

٢ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» تصدى للأمر بصورة مباشرة، وبمبادرة منه، بعد أن كتب إليه العباس بمسيرهم من مكة، ولم ينتظر الأخبار أن تأتيه بصورة عفوية.. كما أنه لم يوكل الأمر إلى القادة الآخرين.. حيث إنه هو الذي اختار العنصر الذي أوكلت إليه المهمة المباشرة.

٣ ـ إن ذلك يعطي: أن القيادة العليا يجب أن تمتلك المعرفة الكافية بأصحاب الطاقات، والاختصاصات المتوفرة لديها.

٤ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» لم يرسل مراقبين ينتشرون على طول طرق هذا الجيش القادم إليه.. ربما لأن ذلك سوف ينكشف لهم، وسيتخذون جانب الحذر والاحتياط، وسيفتشون كل من يصادفونه بعد ذلك. وهذا يجعل اختراقهم بعد ذلك صعباً.. فضلاً عن الكلفة العالية لمثل هذا الأمر في نفسه، بالقياس إلى ما فعله رسول الله «صلى الله عليه وآله» من اختراقهم بعد استقرارهم بشخص واحد.

٥ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» لم يرسل الحباب ليراقب الجيش القادم، حين

---

(١) المغازي للواقدي ج١ ص٢٠٧ و ٢٠٨.

يكون في حال سيره، حيث يكون الجيش حينئذٍ في حالة توقع وتنبه لما قد يصادفه في طريقه، بل ترك الجيش حتى نزل ليستريح، فتوفرت له ثلاثة عناصر، هي:

أولاً: إجتماع هذا الجيش كله في صعيد واحد.

ثانياً: إن الجيش قد حل العُقَدَ، وأظهر ما حمله معه، مما أعده للمعركة.

ثالثاً: إنهم قد شعروا بالطمأنينة.

٦ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» هو الذي اختار اللحظة والظرف الذي يتمكن فيه العنصر المكلف من اختراق العدو، وهي الأسهل عليه.. لأنها اللحظة التي يكون فيها العدو مستقراً في منازله، وقد نشر حوله كل ما جاء به، وبما توفر لديه من إمكانات.. يقول النص: «وحلوا العُقَدَ، واطمأنوا»، فليلاحظ كلمة: «حلوا العُقَدَ»، وكلمة: «واطمأنوا». وهذا هو الذي مكن الحباب من رؤية كل ما أحب أن يراه.

٧ ـ إن مراقبة الجيش في حال حركته لا يمكن ان تأتي بالنتائج المتوخاة، بصورة دقيقة، فإن الأفراد تتبدل مواقعهم باستمرار في حالة سيرهم، ولا تعرف مقادير الفواصل المكانية فيما بينهم، فإنها تزيد وتنقص في حالة السير، كما أنه لا يمكن تحرك المستطلع بين جميع قطعات الجيش، وأفراده لرؤية الإمكانات التي اصطحبها معه..

يضاف إلى ذلك: أن ما يراه الراصد منها هو ما يمكن إظهاره في حالة المسير، ولعلهم حين ينزلون، ويحلُّون العُقَدَ عن أمتعتهم، فإن الكثير منها يظهر للرائي، وسوف يمكن التأكد منه بصورة أتم.

٨ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» قد حرص على سرية الاجتماع بذلك العنصر، حين كلفه بالمهمة. وقد يكون من موجبات هذه السرية: أن المسلمين بعد حرب بدر قد كثروا، وكثر فيهم المنافقون، وطلاب الدنيا.. بدليل: أنه بعد أن تقرر خروجهم مع النبي «صلى الله عليه وآله» إلى القتال، انفصل ثلث الجيش عنه، ورجعوا إلى بيوتهم، ورفضوا المشاركة في الحرب، وكانوا بقيادة رأس المنافقين عبد الله بن أبي.

ويدلنا على هذا: أنه إذا كان المجتمع الذي يتعامل معه، ويتعرض لهجوم الأعداء ـ إذا كان ـ فيه المخلص وغير المخلص، والمؤمن، والمنافق، والخائن، والوفي، فلا بد من الحذر الشديد في كل خطوة يخطوها الإنسان المؤمن، لأن غير المخلصين، وضعفاء النفوس، والجبناء، وطلاب الدنيا.. لا يُؤمنون على سر تصل إليه أيديهم، فإنهم قد يخبرون العدو بأمر ذلك العنصر، فتتعرض حياته للخطر. فإن لم يوصلوا خبره إلى العدو قبل إنجازه مهمته، فإنهم قد يستفيدون من خبره الذي يأتيهم به في تخذيل الناس عن الحرب، وبث الوهن والضعف في نفوسهم، وإشاعة روح التشاؤم بينهم.. وربما استفادوا منه في التشكيك في حكمة القيادة، أو في إخلاصها، أو في نزاهتها، أو في مدى اهتمامها بحفظ مصالح الناس، وحرصها على دمائهم، وأموالهم، ومستقبلهم.. وإن تمكنوا من إعلام العدو بمضمون الأخبار التي جاءهم بها ذلك الرجل، فإنه سيعمل بلا ريب على سد الثغرات، وتغيير الخطط، وتلافي نقاط الضعف بخطط جديدة، أو بتدبير سديد.. وربما.. وربما..

٩ ـ إن حرص النبي «صلى الله عليه وآله» على كتمان علاقة ذلك العنصر به. يدل على لزوم عدم معرفة أحد من الناس بالإشخاص الذين يمارسون

العمل الاستخباري.

١٠ ـ حتى لو قُدِّر وعُرِفَ أن لهذا الشخص نشاطاً من هذا النوع، فلا يجوز أن يعرف أحد بطبيعة المهمة، ونوع العمل الذي يقوم به.

١١ ـ لا يجوز أيضاً أن يعرف أحد بمن يرتبط هذا الشخص، وممن يتلقى أوامره.

١٢ ـ لا بد من كتمان لقاءات العنصر مع قيادته، فلا يعرف متى، وأين يلتقي بها. بل يجب أن لا يعرف أحد أنه التقى بها من الأساس.

وبكلمة واحدة: لا بد أن يكون العنصر مجهولاً بشخصه ومهمته، وارتباطاته، وقيادته.. فضلاً عن ضرورة الجهل بكل ما لديه من معلومات. بل يجب أن لا يعرف أحد أن لديه أية معلومة.

١٣ ـ لو علم أحد من الناس بأن أحداً قد أتى بأخبار عن العدو، فسوف يصرون عليه لإفشائها لهم، أو ليعرفوا طرفاً منها، أو ليحدد لهم نوعها.

فإن نجحوا في استخراج شيء مما لديه، فإن المنافقين ومن في قلوبهم مرض سوف يهولون الأمر على الناس، ويضخمون الأمور، ويجعلون من الحبة قبة، ويخيفونهم.. وإن فشلوا، فإنهم سيجعلون من التكتم على مضمون تلك الأخبار ذريعة للتكهن بما ينسجم مع أهوائهم وخططهم.. وسيختلقون للناس، ما يحلو لهم في هذا السبيل.

ولأجل ذلك: أمر «صلى الله عليه وآله» ذلك العنصر: بأن لا يذكر لأحد من شأن العدو حرفاً، لأن الحرف سوف يجر وراءه حرفاً آخر، ثم ثالثاً، ثم رابعاً.. وهكذا..

١٤ ـ اللافت: أن ما أمر النبي «صلى الله عليه وآله» ذلك العنصر بكتمانه سوف يظهر كله للناس في اللحظة الأولى للقاء ذلك العدو، وبالنظرة الأولى.

وهذا يدل على أن للقيادة أهدافاً لا ترتبط بحساسية الخبر، بل ترتبط بحالات الناس، وبتقديرات أخرى للأمور قد لا تخطر على بال الآخرين.

ولعل من أسباب هذا الكتمان تسهيل اتخاذ القرار، أو تهيئة النفوس للأمر بطريقة تمنع من وقوعهم تحت تأثير المفاجأة في اللحظات الأولى للقاء العدو.. فإن الناس إذا اعتمدوا على خيالهم، فإنه سوف يخدعهم، لأنه يضخم لهم الأمور، ويستنفر أهواءهم، ومشاعرهم الذاتية، لتفرض على العقل أن يعيش في محيطها، ويكون في خدمتها، وتَحُدّ من قدرته على التبصر في العواقب، وتمنعه من ضم سائر القدرات والطاقات إلى بعضها البعض، وتحول بينه وبين استقدام العوامل والحوافز لتقوم بدور الممانعة، والدفاع الحازم والحاسم.

١٥ ـ ويلاحظ: أنه «صلى الله عليه وآله» قد سمح لذلك العنصر بإخباره علناً أمام الناس في صورة واحدة، وهي أن يرى في جيش العدو قِلَّةً. لأن ذلك سوف يدعو أهل الحفاظ والنجدة لاستعراض القوة، والجهر بالعزم والتصميم على المواجهة.. فيقوى بذلك قلب الضعيف، ويتشجع الجبان، ويقمع به أصحاب الأهواء والمنافقون، ولا ينتفع به العدو لو بلغه. بل هو يكبته، ويخيفه، ويرهبه، ويرغمه على إعادة حساباته.

١٦ ـ ذكر النص المتقدم: أنه «صلى الله عليه وآله» قد سأل «الحباب» إن كان قد رأى مع ذلك الجيش ظُعُناً ـ بضم أوله وثانيه ـ جمع ظعينة، وهي المرأة.

ويلاحظ: أن ذلك العنصر قد أغفل ذكر هذا الأمر، لأنه لم يلتفت لأهمية

إحضار النساء ليشهدن معركة ضارية، فيها قتل وجرح، ونصر وهزيمة، فأخبر النبي «صلى الله عليه وآله» بأنه رأى النساء، ومعهن الدفوف والطبول.. فنبهه «صلى الله عليه وآله» إلى أن النساء أيضاً من جملة آلة الحرب التي يجب رصدها، لأن الغرض من إحضارهن هو الاستفادة منهن في التحريض، وإثارة الحماس.

فإن حضور المرأة في الحرب يزيد المقاتل حماساً، واستبسالاً، لأنه يخشى عليها من الوقوع في يد العدو، ولأنه لا يطيق أن يرى نفسه هارباً أمام أعينهن، بل يريد أن يظهر لهن قوته وبطولته، وجدارته بإعجابهن.

ويزيده حماساً إذا ذكرته المرأة بالذات بثاراته عند أعدائه، حيث يفترض أن تزيده هذه الثارات حرصاً على مضاعفة جهده لإدراكها فيهم، وينتصف منهم بزعمه.

١٧ ـ وهذا يدلنا على أن من جملة ما يجب رصده هو إمكانات العدو في إعلامه الحربي، والتعرف على وسائله التحريضية، ومعرفة المضامين التي يتشبث بها لإثارة حماس جنوده، للتعامل معها بما يليق.

١٨ ـ النص المتقدم يذكر: أنه «صلى الله عليه وآله» أمر «الحباب» بأن لا يذكر من شأن القوم حرفاً.. فلو أنه أخبر علياً «عليه السلام»، أو سلمان الفارسي، أو عماراً، أو أي إنسان آخر حرفاً، لتعرض لغضب رسول الله «صلى الله عليه وآله» وتأنيبه، ولا أقل من لومه، مع أن المعلومات التي أمر بكتمانها، سوف تظهر لكل أحد بمجرد حصول اللقاء بين الفريقين، كما تقدم بيانه.

حفظ الأسرار

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

وبعد.. فقد قال تعالى عن المشركين الذين نكثوا عهدهم: ﴿**فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[1]، فقد أشارت هذه الآية المباركة إلى العديد من الأمور نذكر منها ما يلي:

١ ـ الحديث في هذه الآية عن المشركين المحاربين الذين سمح لهم بموجب عهد عقد معهم بأن يتجولوا في البلاد والمناطق، ولكنهم نقضوا العهد، واتبعوا سبيل الخيانة، فأجاز الله تعالى لنبيه أن يعود إلى حربهم، ولكن بعد انقضاء الأشهر الحرم، التي هي شهر رجب وذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم..

٢ ـ **فدلَّنا عز وجل بذلك:** على أنه لا يسوغ القتال في هذه الأشهر الأربعة حتى للعدو الناقض لعهده.. إلا في صورة مهاجمة العدو لأهل الإيمان، واضطرار المؤمنين للدفاع عن أنفسهم.

---

(١) الآية ٥ من سورة التوبة.

٣ ـ إنه تعالى قد أجاز، بل أمر المؤمنين بقتال وقتل وأسر هذا العدو الناقض للعهد أينما وجد، فقال: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾(١).

٤ ـ وأمر أيضاً بإلقاء القبض على مقاتليه، فقال: ﴿فَخُذُوهُمْ﴾(٢).

٥ ـ إنه تعالى أمر نبيه بحصر هؤلاء الناقضين للعهد في مناطق معينة، ومنعهم من التجوال في سائر المناطق فقال: ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾(٣).. ولعل ذلك لمنعهم من الفساد والإفساد.

٦ ـ أمر سبحانه أيضاً بسد المنافذ عليهم، ومراقبة تحركاتهم بقوله: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾. فإن الرصد للعدو هو القعود له على طريقه، لمراقبته، ثم لصده، أو أخذه إن أراد التحرك، فإن الراصد هو الذي يقعد بالمرصاد، والمرصد موضع الرصد. وهو المكان الذي يرصد فيه العدو..

٧ ـ ويلاحظ هنا: أن الآية المباركة تؤكد على لزوم شمول واستيعاب المراقبة لجميع الطرق والمسالك، والمنافذ التي يمكن للعدو أن ينفذ منها..

٨ ـ قالت الآية: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾، ولم تقل: كونوا في كل مرصد.. ربما لتشير إلى أن المطلوب هو الثبات والبقاء، في موضع الرصد بصورة دائمة ومتواصلة. وهذا يشير ضمناً إلى أنه لا يجوز التلهي بأي شيء عن المراقبة، فلا ينشغل الراصد بالحديث مع صديقه، ولا يستسلم إلى النوم،

---

(١) الآية ٩١ من سورة النساء، وراجع: الآية ١٩١ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٩١ من سورة النساء.

(٣) الآية ٥ من سورة التوبة.

ولا يجوز أن يظن أن العدو ليس بصدد الاختراق والخروج من عزلته، ولا رغبة له بالتحرك من مكانه..

فإن هذا سذاجة قد تكون قاتلة..

٩ ـ **يلاحظ أيضاً**: أنه تعالى لم يقل: اجعلوا الرقباء في مواضع الرصد. بل أمر الجميع بالقعود في جميع المراصد، ليدل على أن هذا الرصد هو مسؤولية الجميع، ولا يختص بفريق دون فريق..

مما يعني: أنه لا بد أن تبقى عيون الجميع مفتحة، وأن يبقى الجميع في حالة استنفار، ويقظةٍ وانتباه، كل في موقعه، وبحسب قدراته..

١٠ ـ إنه تعالى لم يقل: راقبوهم، بل قال: ﴿**وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ**﴾، ربما ليدلنا على أن فِرَقَ الرصد لا بد أن تكون مستعدة لمقاومة العدو أيضاً لمنعه من محاولة اختراق المنافذ، وأن تملك قدرة ووسائل قتالية، وتكون على استعداد للتضحية، فلا يكون مجرد مراقب، لا يملك أية قدرة أو خبرة أخرى.

١١ ـ إنه تعالى لم يقل: اقعدوا لهم (في) كل مرصد، وكأنه يريد أن يفهمنا: أن المطلوب هو أن لا يجد العدو منفذاً أو طريقاً خالياً من مراقب، بل يجب أن يجد الرجال الذين يصدونه، ويسدون عليه الطرق والمسالك في كل اتجاه..

إن المطلوب هو أن تمتلئ المراصد بالرجال، ولا ينبغي أن تكون مجرد مواضع مراقبة، يتواجد فيها فرد واحد في كثير من الأحيان، بل المطلوب هو أن يكون في كل مرصد فريق يرصد، ويتصدى في آن واحد..

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله..

ليس كل مكتوم يسوغ إظهاره

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

وبعد.. فقد روي عن أمير المؤمنين «عليه السلام» قوله: «ليس كل مكتوم يسوغ إظهاره لك، ولا كل معلوم يجوز أن تُعلمه غيرك»(١).

ويمكن أن نستفيد من هذه الكلمة العديد من الدروس، فلاحظ ما يلي:

١ ـ إن الإنسان حريص على ما منع عنه، فإذا عرف أن لدى فلان من الناس سراً تراه يبادر إليه، ويحاول استخراجه منه، ويتقلب بطناً لظهر ليصل إلى ذلك السر، أو يحصل على طرف منه.. مع أنه قد لا يكون لذلك السر أي ارتباط به، بل هو يعني أشخاصاً آخرين، أو يعني الكيان العام..

٢ ـ إن هذا الباحث عن أسرار الناس لا يستفيد بشيء سوى إشباع فضوله، وتغذية أنانيته. بل هو قد يحمل وزرها، ويقع في الكثير من المعاصي بسببها.

كما أنه لو فكر وتدبر في الأمر لوجد أن هذا يعطي انطباعاً سيئاً عنه،

(١) راجع: شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٢٠ ص٣٣٦.

ويعدُّ من مساوئه، ومن موجبات ظهور النقص أمام أهل العقل والدراية، وكل من له أدنى اطلاع على نفسيات الناس، وأحوالهم.. وسيجد نفسه محتقراً عندهم، مهاناً بنظرهم، وصغيراً حقيراً أيضاً.. فلماذا يصغِّر نفسه؟!

٣ ـ على أن في كشف أسرار الناس تعريضاً لهم لإظهار نقاط ضعفهم، وإذا كنت نبيلاً وشهماً، لا تقدم على عمل كهذا، وقد نهاك أئمتك عن ذلك، وقالوا: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، فلا ينبغي أن تقدم على كشف وإظهار ما لا تحب أن يعرف الناس منك وعنك. فلماذا لا تحب لأخيك ما تحبه لنفسك؟!

٤ ـ هذا إذا كان ما تسعى لكشفه من الأمور الشخصية. أما إذا كان مما يختص بالشؤون العامة، أو من الأسرار الاجتماعية، فقد يكون الاطلاع عليه من أسباب اختلال علاقتك بغيرك، أو من موجبات فقد ثقتك بهم، وإن عرفوا أنك عرفت بعض الأسرار، فإن ذلك قد يوجب لك المشاكل الكبيرة معهم، أو مع غيرهم دون أن تشعر. وربما أوجب لك أنت أيضاً الشك والريب القاتل في أقرب المقربين فيك، وأحب الناس إليك.

وربما كان إظهار بعض الأمور لك من أسباب تقويض حياتك، وتنغيص عيشك، وزوال البهجة عن محيطك كله، ليحل محلها الآلام والمصائب، وقد يكون سبباً في تقويض الصداقة مع الأصدقاء، أو زرع الشقاق والخلاف بين الناس، أو بينك وبينهم..

٥ ـ إن كشف بعض الأسرار لك قد يوقعك في المعصية الشرعية، لأنه يكون من مفردات الغيبة، أو يكون من مفردات النميمة. أو من الأمور التي

يوجب البوح بها أحقاداً، أو تشويه سمعة.. ولعله من الأمور المكذوبة على أهله، فلماذا تعرض نفسك للوقوع في معصية الله، وتشتري لـذَّة حاضرة وزائلة بالعذاب المقيم، والأليم في الآخرة؟!

٦ ـ وكما لا يجوز لك أن تعلم كل ما عند غيرك، كذلك الحال بالنسبة للأمور التي لديك، فإن الله قد يجازيك، فيستدرجك للبوح بها إلى من لا يؤمن عليها. فتكون قد جلبت لنفسك الهموم والغموم.

٧ ـ لا يحق لك أيضاً أن تبوح بأسرار الناس، أو بأسرار الشأن العام لغيرك، وليس لك أن تطلع عليها أحـداً من الناس، إلا من تعنيهم تلك المعلومات، لأنك لو فعلت ذلك، لجلبت الشرور والمصائب لنفسك ولغيرك أيضاً..

٨ ـ إنك قد تسلم سرك إلى من يبوح به، مع أنه قد لا يكون شريراً، ولكنه قد يكون بسبب بساطته وطهارة نفسه ممن يسهل استنطاقه، وحمله على إفراغ كل ما لديه في جعبة غيره..

٩ ـ وقد تنقلب الأمور والأحوال، فيتحول الصديق إلى عدو، فتقع في المحذور الكبير والخطير، وتوقع غيرك معك، وقد قال الشاعر:

احـذر صـديقك مـرة ... واحـذر عـدوك ألـف مـرة

فلـربما انقلـب الصـديق ... فكـان أعلـم بالمضـرة

١٠ ـ وقد علمتنا الأيام والتجارب: أننا كنا نعيش مع أناس نظنهم مجاهدين مخلصين، وإذ بهم يسول لهم الشيطان، وتغرهم الدنيا فينقلبون عما هم عليه ويصيرون خداماً مخلصين للأعداء، فما ومن يضمن أن لا تكون

نهاية من تفشي له سرك هي هذه النهاية، حتى لو كان بنظرك أبا ذر زمانه، فإن الناس تنقلب أحوالهم، وتتغير نفسياتهم، فيصير المؤمن فاسقاً، والصالح شريراً، وكذلك العكس. وإنما ينكشف أمرهم بعد أن يكون الداء قد استشرى، ولم يعد ينفع معه دواء..

١١ ـ وذلك كله يعطي: أنه لا بد من الحذر حتى من الجليس القريب، وحتى من الصديق الحبيب. فإن ما تحمله من معلومات حتى لو كانت عادية، ليس ملكاً لك، وإنما هو ملك لله تعالى وللرسول «صلى الله عليه وآله»، ولأهل البيت وللمؤمنين، وهو أمانة عندك لهم، ولا يحق لك أن تخون أمانتهم، وتبوح بأسرارهم حتى لأقرب الناس إليك، وأوثق الناس عندك، ولذلك قال «عليه السلام»: «ولا كل معلوم يجوز لك أن تعلمه غيرك..».

١٢ ـ واللافت هنا: أنه حين تحدث «عليه السلام» عن استدراج الغير للبوح بالأسرار عبر بكلمة «يسوغ» التي هي بمعنى يصلح أو نحو ذلك، لأن المورد مما يوصف بالصلاح وعدمه بالنسبة للمستمع والمتلقي.

أما جواز البوح بالسر، فيتعلق بالمتكلم الذي يبوح بالسر قبل غيره..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله..

سرك من دمك

بسم الله الرحمن الرحيم

السؤال:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

سماحة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي دام ظله الوارف.

تحية طيبة وبعد..

ما المقصود من قول الإمام الصادق «عليه السلام»: «سرُّك من دمك، فلا تجره (تجرينه) [تجريه] في غير أوداجك»(1). ودمت لنا ذخراً..

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

---

(1) الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة ص٦ وأعلام الدين ص٣٠٣ وبحار الأنوار ج٧٢ ص٧١ وج٧٥ ص٢٧٨ ومستدرك سفينة البحار ج٥ ص١٥ وج٩ ص٦٢ ونزهة الناظر وتنبيه الخاطر ص١١٢ وشرح إحقاق الحق (الملحقات) ج٢٨ ص٤١٣.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد..

فقد روي أن الإمام الصادق «عليه السلام» قال: «سرُّك من دمك، فلا تجره (تجرينه) [تجريه] في غير أوداجك».

وقد تضمنت هذه الكلمة ـ بالرغم من اختصارها ـ الكثير من الدلالات والإشارات إلى العديد من المعاني التي تهم الإنسان، وينبغي له أن يتخذها نهجاً، وطريقة حياة، فإذا أردنا تجزئة هذه الفقرة، فسنجد أنها تتكون من العناصر التالية:

١ ـ كلمة «سرّ».

٢ ـ ثم نسبة هذا السر إلى الشخص المشار إليه بكلمة الخطاب، حتى صارت الكلمة «سرك».

٣ ـ الدم في كلمة «دمك» قد جزأه إلى أبعاض، ثم جعل هذا السر بعضاً من دم نفس هذا الشخص المخاطب، مستفيداً من كلمة «من» المفيدة للتبعيض، ولم يجعله بمثابة الدم، أو من جنسه، أو من مشابهاته، أو نحو ذلك.

٤ ـ إنه تحدث عن الدم، وجعل السر بعضاً منه، ولم يختر أي جزء آخر من مكونات الجسم الإنساني، فلم يجعله مثل القلب، أو الرأس، أو العينين، أو أي شيء آخر يشعر الإنسان بأن قيمته لا تقدر بقدر، وبأنه يؤدي دوراً حساساً في كيانه.

٥ ـ إنه خص الكلام أيضاً بدم خصوص الشخص المخاطب، ولم يختر أي صيغة أخرى تفيد التعميم للآخرين بنحو أو بآخر.

٦ ـ جاء بفاء التفريع، ليظهر أن كلمة «سرك من دمك» هي الأساس، الذي

يحمل المبرر. وهو السبب الطبيعي لما يأتي بعد الفاء من أوامر، أو زواجر وسواها.

٧ ـ والمكون الآخر: هو النهي الصارم والحازم، حيث قال: «فلا تجره»، ولم يقل: فلا ينبغي لك أن تجريه، أو يتوقع منك أن تجريه، أو نحو ذلك.

٨ ـ إن مسألة إجراء الدم في الأوداج المنهي عنه يرجع أمر البت فيها إلى هذا المخاطب..

٩ ـ إن موضع جريان الدم الذي هو السر، هو الأوداج، ثم نهاه عن إجرائه في غيرها، فلماذا اختار الأوداج، وخصه بها دون سواها من سائر العروق والمواضع الحساسة التي يجري فيها الدم، فقد كان يمكنه أن يجريه في أي من عروقه المنتشرة في أنحاء جسده؟!

١٠ ـ لا بد من أن نسأل عن السبب في اختيار الحديث عن إجراء السر في أوداج خصوص نفس المخاطب، ولم يشرك معه غيره..

وبعدما تقدم نقول:

إن جميع هذا الذي ذكرناه يحتاج إلى بعض البيان والتوضيح بمقدار ما يسمح لنا به الوقت والحال، فلاحظ الأمور التالية:

ألف: إذا توقفنا عند كلمة «سر»، فعلينا أن نتذكر: أن السر أمر يتعامل به جميع البشر، وأن لكل إنسان أموراً يتعامل معها على أنها من الأسرار التي لا يحب للآخرين أن يطلعوا عليها.

ب: إن لكل سرٍّ درجة من الأهمية والحساسية لدى هذا الشخص أو ذاك، ولهذا نلاحظ: أن رغبة الأشخاص ودوافعهم لإخفاء بعض الأمور، واعتبارها أسراراً تختلف وتتفاوت، والقدر الجامع بين الجميع هو أن الكل

يرى أن فضح أسراره عدوان عليه، ومضر به، إما في أمنه، أو في اقتصاده، أو في علاقاته، أو في كرامته، أو في موقعه الاجتماعي، أو.. أو..

وأسرار الناس في أهميتها، وخطورتها تختلف باختلاف أحوالهم، وأوضاعهم. فقد يكون هذا الأمر سراً لدى شخص، وليس بسر لدى شخص آخر.

ومن الأسرار ما هو سر للشخص، ومنها ما يرتبط بالمؤسسة أو الحزب، أو التجمع، أو العائلة والعشيرة، أو الدولة، أو الأمة الخ..

ج: وبعدما تقدم يأتي السؤال: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تحدثت الكلمة المتقدمة عن الإمام الصادق «عليه السلام» عن خصوص سر الأشخاص، فساق «عليه السلام» الكلام فيها وكأنه خطاب لشخص بعينه، مشيراً إليه بكاف الخطاب ثلاث مرات، وبصيغة الخطاب بالفعل المضارع للمفرد مرة رابعة.

ونجيب:

بأن الأمر قد اتضح من خلال ما ذكرناه آنفاً، من أن السر هو ذلك الشيء الذي يُلحِق إفشاؤه ضرراً بالشخص، وانتقاصاً من سعادته، ويوجب تنغيص عيشه.. وربما بلغ هذا الضرر حدوداً لا يطيق أحد تصورها، فضلاً عن مكابدتها.

ومن الأسرار ما يرتبط بالفرد، والشخص، ومنها ما يشمله ويشمل غيره ممن يشاركه في العنوان العام.. فالضرر في كلتا الحالتين سوف يلحق الفرد، وهو الذي سوف يتنغص عيشه، ويختل مسار حياته.. فمثلاً: من يفشي الأسرار الحربية للعدو، فإذا وظف العدو هذه الأسرار في كسر شوكة المسلمين، والهيمنة عليهم، وإذلالهم، وتخريب إقتصادهم، والعبث في قيمهم ودينهم، وثقافتهم، وتخريب علاقاتهم السياسية والإجتماعية، وفي إشاعة الفساد، والإفساد

في البلاد والعباد، فإن هذه الأضرار حتى لو تفاوتت أحجامها، فسوف ينال ذلك كله، الأفراد والأشخاص، وسيجد كل واحد منهم نفسه في المأزق الكبير والخطير.

وهذا يدلنا على السبب في أنه «عليه السلام» قد خاطب الفرد والشخص، واعتبر أن الذي يتضرر من إفشاء السر، وينتفع بكتمانه هو الشخص في جميع الأحوال، من المبدأ إلى المآل.

د: يضاف إلى ما تقدم: أنه «عليه السلام» قد جعل السر من الدم في الأوداج أساساً للنهي عن إجرائه في غير أوداج نفسه.

وقد كان يمكن أن يجعل الأساس لهذا النهي عنواناً آخر، ولو بأن يقول: إذا أردت أن تصل إلى مبتغاك، فاكتم ما تسعى إليه، مثلاً، أو نحو ذلك.

ونجيب:

بأن السر من ألصق الأمور بحياة الإنسان، ومن أقربها إلى وجدانه، ربما لأنه يشعر بأنه يلامس أساس حركته وقيمته، ومسيرته في الحياة، ويعيش معه، ويحنو عليه، ويحنّ إليه، ويسامره، ويناجيه في خلواته.

فإذا كان هذا السر بهذه الحالات والمواصفات هو الأساس، وجاء الأمر والنهي، أو التوجيه مرتكزاً عليه، ومستنداً إليه، فإن الإنسان ـ ونحن نتحدث عنه كفرد ـ سوف يكون أكثر انسجاماً وتفاعلاً معه، لتبلور الشعور بأن ما يعني أحدهما لا بد أن يعني الآخر، ولا يمكن إلا أن يكون حاضراً معه، وناظراً ومشاركاً. ولعل هذا هو السبب في اختيار هذا السر مرتكزاً وأساساً لهذا التوجيه منه «عليه السلام». كما أن ما ذكرناه فيما سبق كان هو السبب

في نسبة السر إلى الشخص بما هو فرد، بواسطة كاف الخطاب، فإن الأمر إذا بلغ حد ملامسة الخطر للأوداج، فإن أحداً لا يصبر عن مقاومته.

هـ: وأما جعله «عليه السلام» هذا السر جزءاً من دم الشخص، ولم يكتف بمجرد تشبيهه به، بأن يقول: سرك بمثابة دمك. واختياره خصوص الدم من بين سائر أجزاء البدن، ليجعل السر بعضه، فلم يختر القلب، أو العين، أو الرأس، أو غير ذلك..

فلعله لأجل الإشارة إلى ما يلي:

أولاً: إن الدم منبث في جميع أجزاء البدن، وجميع الأعضاء تتأثر به، وبما يحمله لها، ويرفدها به سلباً أو إيجاباً، فالحديث عن السر، وعن الدم يصبح أكثر انسجاماً، ولو أنه أراد أن يستبدل الدم بالقلب، أو الرأس، أو أي عضو آخر، فلن تكون الصورة المستخلصة وافية في التعبير عن المراد، لاسيما وأن لكل الأعضاء وظائفها الخاصة بها، وليس تواصلها بسائر الأعضاء في مستوى تواصل الدم بها.

ثانياً: وبمعنى تطبيقي وتوضيحي نقول:

إن السر له مساس وتأثير بكل مفردات حياة الإنسان، وسائر شؤونه وحالاته، كبيرها وصغيرها. وأي اختلال ينشأ عن انتزاع صفة السرية عن السر سوف لا يقتصر أثره على مجال بعينه، فالعلاقة بين السر والدم هو في كونهما يلامسان عمق حياة ووجود الإنسان.. بدأً من ضميره ووجدانه، وانفعالاته، وسلامته الجسدية والنفسية، وانتهاءً بأكبر وأصغر مفردة من مفردات حياة الشخص.

فلو قال: سرك بمثابة دمك، لتوهم متوهم: أن التشبيه إنما هو في كون

كل منهما يحتاج الإنسان إلى أن يكون حريصاً عليه، وليس في الأمر ما هو أبعد من هذا، مع أنه قد ظهر أن الأمر يتجاوز ذلك إلى ما هو أعمق وأعرق.

و: إن لجسد الإنسان حياة كامنة في داخل ذاته يكون الدم هو الذي يتواصل فيها مع سائر أجزاء أجهزة الجسم، وبمقدار ما يبقى هذا الدم سليماً ومصوناً عن التلوث، أو الاختلال أو التلاعب، فإن الجسم يبقى سليماً معافى عن الأعراض والأسقام والأخطار، وفي مأمن من أن تأتيه من الداخل.

والأسرار كما قلنا: هي الأخرى من هذا القبيل، فإنها جزء من حياة الإنسان، ولكنها الجزء الذي يطل به على الحياة من خارج دائرة ذاته، فإنها إذا بقيت أيضاً على حالها من الصفاء والنقاء، ولم يطرأ عليها أي اختلال، فإن حياة الشخص وانتظامها مع ما يرتبط بخارج دائرة ذاته ستبقى مصونة عن الخلل، بريئة من الزلل، إلا إذا جاء الإخلال من عوامل قاهرة أخرى، بعيدة عن هذا وذاك، فيقع المحذور.

ز: أما فيما يرتبط بالفاء في قوله: «فلا تجره» أو «فلا تجرينه»، فنقول:

إنه «عليه السلام» يريد أن يعرفنا أن الأسرار هي من الأمور التي يرجع القرار فيها للأشخاص، ويرون لأنفسهم حق الخيار والاختيار فيها. فلا يسمح لأحدٍ بالمساس بها إلا من خلال تكوين قناعة بمنطلقات تفرض نفسها عليه، وتحمله على الإصغاء إليها، والتعويل عليها.. وهذا ما فعله الإمام «عليه السلام» هنا بالفعل، فإنه بادر إلى وضع الإنسان الشخص أمام مسار فكري واضح المعالم ينتهي به إلى النتيجة المتوخاة، وهي إلزامه بالأوامر والزواجر والتوجيهات التي أراد أن يزوده بها.

وهذه هي الطريقة الأفضل والأمثل لحمل صاحب القرار والاختيار على إعادة النظر في مساره وقراره، ولاسيما إذا كان هذا المسار الذي هو فيه يدخل في دائرة الأمر والزجر. وليس في منأى عن عبث الأهواء والشهوات و.. و..

ولأجل ذلك قدَّم «عليه السلام» الأساس والقاعدة التي تحدد له موقع السر في حياته كشخص، موضحاً: أن السر جزء من دم الإنسان.. وهذا التصريح سوف يوقظ المخاطب، ويجعله في موقع الحذر المرتقب لما يأتي بعد هذا التأسيس القوي، وغير المتوقع.

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» قد أطلق الكلام بحيث يفهم: أن هذا الأمر من المسلمات والبديهيات، فدل ذلك: على أن ما سوف يأتي بعد الفاء سيكون أمراً طبيعياً، وقد روعي فيه التوافق والانسجام بينه وبين الأساس المتقدم.. وأنه إذا كان ذاك أمراً مسلَّماً وبديهياً، فهذا الذي يترتب عليه بديهي أيضاً.

ح: وأما قوله «عليه السلام»: «فلا تجره» أو «فلا تجرينه»، فقد جاء:

أولاً: كما قلنا قراراً صارماً وحازماً، وزاد في رفع مستوى اليقين والبداهة لهذا الأمر، كما تقدم.. حيث لم يقل له: فينبغي لك أن تفعل كذا، أو نحو ذلك.

ثانياً: إنه أفهمنا أيضاً: أن القرار النهائي في التعامل مع هذا السر الذي هو بهذه الخطورة لا يزال بيد هذا الشخص المخاطب بالذات، وأنه ليس المطلوب انتزاعه منه.

ط: إنما تحدث «عليه السلام» عن إجراء الدم، لأن الدم الذي يجري هو الذي يقوم بوظائفه المتوخاة، فإذا توقف فقد دوره، وأصبح عبئاً، وبلا

قيمة، بل لا بد للإنسان من السعي للتخلص منه، لأنه قد يوقعه في كارثة.

ي: ثم إن الدم إنما يجري في جميع عروق البدن، وله دور عظيم في قوام البدن وصلاحه.

فلماذا اختار له أن يجريه في خصوص الأوداج، ونهاه عن إجرائه فيما عداها من عروق البدن وشرايينه؟!

ونجيب:

بأنه لو قال له: فلا تجره في غير عروقك، لانصرف ذهنه إلى العروق في بعض أجزاء الجسم، ويغفل عما عداها.. فمن ينصرف ذهنه إلى الدم الذي في عروق يده مثلاً، قد يهون عليه الأمر إذا خطر في باله: أنه إذا خسر يده أو رجله، أو إصبعه، أو عينه، وغيرها يبقى أمره هيناً، إذ ما أكثر ما يلتقي الإنسان ببعض من فقد بعض جوارحه، وواصلوا حياتهم، وربما كانوا سعداء فيها.

على أن الدم وإن كان يجري في الأعضاء الرئيسية منها، وسواها، ويتعرض الإنسان للبلاء في بعضها، حتى القلب، أو الرئة، ونحو ذلك..

ولكن الناس يرون: أن الاختلال قد حصل في نفس ذلك، وقد لا يرون أن للدم أي دور في هذا الاختلال..

أما إذا كان الكلام عن خصوص الدم في الأوداج، فإنه يرى نفسه أمام احتمالين لا ثالث لهما:

١ ـ إما الحياة إذا جرى الدم في تلك الأوداج، وفق المراد.

٢ ـ وإما الموت المحتم إذا كان الأمر على خلاف ذلك..

والسر فيه هذه الخصوصية أيضاً، فإن أي مساس به سوف يحدث نقصاً،

وربما كان هائلاً في سعادة الناس، وفي كراماتهم، وفي أمنهم الشخصي، وفي سائر شؤون حياتهم، فإن قيمة هذا السر هي قيمة الحياة كلها. كما أن قيمة الدم في الأوداج هي قيمة الحياة كلها.

ك: إنما يكون للأسرار موقع الدم بالنسبة للأوداج إذا كان المقصود هو الأشخاص منهم، وقد لا يشعر الإنسان بخطورة البوح بأسرار النظام مثلاً، ولا يرى أن صيانتها تعنيه، ولكن الإمام «عليه السلام» أوضح: أن الأسرار النظامية أيضاً هي دم في أوداج كل فرد فرد، لأنها كلها لا بد أن ينتهي بها الأمر إلى أن يصبح التفريط بها سبباً للتفريط بسعادة ومستقبل، وحياة، وأمن، واقتصاد أشخاص الناس مباشرة، حسبما ذكرناه.

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

دلالات قصة أيمن..

السؤال:

يقول «أيمن»: عملتُ مع رجال المقاومة مدة أربع سنوات، ابتدأت من عام ٢٠٠٠م، حتى تمّ اعتقالي في اجتياح إسرائيلي نهاية عام ٢٠٠٦ شمل كل شباب المنطقة، وهناك لم أتعرّض لأي أذىً من قبل المخابرات الإسرائيلية، بل لعبوا على نفسيتي التي لطالما تاقت لما عرضوه، لينتهي حديثهم بعرضٍ صريحٍ لأن أتعاون معهم وأكون «عميلاً» أدسّ لهم صورةً موسعةً للحدث من خلال بعض التقارير، فما كان مني إلا أن قبلت!

لقد كان «أيمن» يتوق للعمل والسفر والشهرة.. تاقت نفسه لأمريكا ومثيلاتها.. تخيّل نفسه الشهير، صاحب المال والاسم العظيم! وبتلك الصورة الخيالية الحالمة، قارن «واقعه ليجده بعيداً كل البعد، إلا في حالةٍ واحدة، وتمثلت في بصيص النور (المخادع) الذي سلّطته المخابرات الإسرائيلية على عقله، فاخترقه بسهولة!

«أنا لن أقتل.. لن أقوم بأفعال غير أخلاقية.. لن أعرّض أحداً للأذى.. كل ما سأقوم به هو عمل بعض الدراسات.. فَلِمَ أتراجع وأنا في تلك الضائقة المالية؟! اذهب يا رجل وتوكّل على الله!!

كان «أيمن» يحادث نفسه ويبرر لها فعلتها المشينة، ومن ثم قام بنفسه بالاتصال بالمخابرات الإسرائيلية ليقول لهم:« أنا لكم طوعٌ».

عن الأعمال التي قدمها «أيمن» للمخابرات الإسرائيلية يقول: «قمت بعمل ١٤ دراسة شملت التنظيمات الفلسطينية وعلاقة الجهاد الإسلامي بإيران، كذلك فقد قدّمت دراسة عن المنتديات الجهادية، وعن شعبية حماس وغيرها.. افتعل نقاشاً حول أي موضوع كان، سواء كان في السيارة أو البيت أو حتى مع الأصحاب والجيران، فالدردشة كانت الوسيلة الأولى والسهلة لحصوله على المعلومات، إلى جانب قدرته على الكتابة.

اليوم يمضي على «أيمن» في السجن شهر وبضعة أيام.. أيامٌ يحاول فيها لملمة شخصيته وإنسانيته ودينه ومشاعره، منتظراً الحكم.. منتظراً زيارةً من أهل ربما لن يزوروه.. يتمنى لو يقبل قدم أمه ندماً.

الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

وبعد..

إننا نستفيد من قصة أيمن العديد من الأمور، مثل:

١ ـ أن مرور زمن طويل على العمل مع رجال المقاومة يصل إلى أربع، بل إلى ست سنوات لم يكن كافياً لتحصين أيمن من الوقوع في براثن مخابرات العدو، الذي يعرف أنه شرد شعباً يعد بالملايين، واستولى على أرضه وأمواله، وذبح الألوف من الأبرياء، وجرح عشرات أو مئات الألوف.

وهي سياسة متأصلة في عمق روح هذا العدو، بدليل أن هذا الأمر لم يكن مجرد نزوة عارضة وقد انتهت، بل هي مستمرة فيه في مسيرة تصاعدية عبر عشرات السنين..

٢ ـ إن أيمن قد نسي أنه قد اعتقل وسجن في عدوان في اجتياح لهذا العدو بالذات، وقد قتل في نفس عدوانه المئات من أهله وشعبه الآمن، وهدم آلاف البيوت، ودمر كل ما وصلت إليه يده، ولو استطاع لم يبقِ ولم يذر.

ونسي أن نفس اعتقاله وسجنه هو ممارسة ظلم وبغي عليه بالفعل.

٣ ـ إن أيمن كان قصير النظر، تافهاً في تفكيره، حقيراً في طموحاته إلى حد أنه رضي بأن يغض الطرف عن كل جرائم العدو.. لمجرد أنه هو ـ يعني أيمن نفسه، وليس عدوه!! ـ سوف لن يقتل أحداً، ولن يقوم بأعمال غير أخلاقية. ولكنه يهيئ لعدوه وعدو أهله ووطنه، وقاتل الأطفال، والمعتدي على الأعراض والكرامات، والهادم للبلاد، والمشرد للعباد أسباب المعرفة التي تعطيه المزيد من القدرة على مواصلة هذا الإجرام الهائل، وعلى ارتكاب المزيد من المذابح في حق أحباء وأهل وأصحاب وأطفال ونساء وأقارب أيمن.. والاستيلاء على البلاد والعباد..

فكيف أقنع نفسه بأن خيانته هذه لوطنه وأهله كانت عملاً أخلاقياً؟!

٤ ـ إن أيمن لم يسأل نفسه لماذا اعتقله العدو، وبأي حق، ولماذا بعد أن اعتقله لم يؤذه، ولكنه يؤذي الآخرين.

والذين كان يؤذيهم العدو من شباب المنطقة، لماذا لم يتحرك وجدان أيمن، وثارت حميته لهم، أو عاطفته عليهم، وكيف برر للعدو ما يفعله فيهم؟!

٥ ـ إن المشكلة الحقيقية لدى أيمن هي: أنه لم يكن يملك وجداناً حياً، ولا عاطفة إنسانية، ولا قيماً، ولا عقيدة حقيقية راسخة في نفسه.

٦ ـ إن مشكلته أنه كان أنانياً إلى أبعد الحدود.. وأنه كان قصير النظر، وأنه يحب المال، ويحب الشهرة. فهو مصداق لقوله «عليه السلام»: الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم..

٧ ـ إن أمير المؤمنين «عليه السلام» حين وصف الخوارج الذين كانوا من مناصريه ثم انقلبوا عليه وحاربوه، ذكر أن من جملة أسباب ذلك:

أنهم غرتهم الأماني.. وهذا أيمن قد غرته الأماني والأحلام أيضاً، فهو كالخوارج.

كما أنه «عليه السلام» قد وصف الخوارج بأنهم وقعوا تحت تأثير تزيينات الشيطان، بأن النجاح سيكون حليفهم.

وهذا هو حال أيمن أيضاً، فإن الشيطان زين له: أنه سيحصل على السفر إلى أمريكا ومثيلاتها، وعلى الشهرة والمال والاسم العظيم.

ولكن الخوارج الذين حاربوا أمير المؤمنين «عليه السلام» كانوا أحسن من أيمن، لأنهم وإن حاربوا إمامهم، ولكنهم بقوا على عدائهم لمعاوية الذي كان عدوهم.

أما أيمن، فإنه قد حارب أهله بخيانته ـ التي هي أبشع أنواع الحرب ـ وخذلهم، ودل على مواضع ضعفهم. ولكنه عمل على تقوية عدوه وعدو أهله ووطنه ودينه، وجعل نفسه ناصراً له يمده بالمعلومات التي يحتاج إليها، ويدس إليه تقاريره المسمومة.. ليستفيد منها في الفتك بأحب الناس إلى أيمن،

وليسلبهم كرامتهم، وأوطانهم، وحرياتهم، وحتى أرواحهم.

٨ ـ إن الطريقة المخابراتية التي اتبعها أيمن تعطينا درساً هاماً جداً في طريقة تعاطينا مع الأمور، فإن الثرثرة وإثارة النقاشات العشوائية بهدف الانتفاع والشعور بالعظمة الكاذبة أمام الناس الفارغين.. إن هذه النقاشات العبثية كانت هي الأسلوب الذي اتبعه أيمن لجمع المعلومات.

وهذا يعطينا: أن علينا جميعاً، من أعلى الهرم إلى أن ينتهي الأمر إلى الطباخ والحارس والبواب: أن لا ندخل في هذه النقاشات والثرثرات حتى مع من نظنهم أصحاباً وأصدقاء..

فإن مجرد أن يكون الإنسان زميلاً في العمل الجهادي لا يبرر لك أن تزوده بما تملك من معلومات، ولا أن تلفت نظره إلى ما هو غافل عنه من تحليلات، أو ما تعرفه من شؤون وحالات، أو ما هو قائم من علاقات بين الأشخاص.. فإن مجرد الزمالة في العمل الجهادي، لا يعني أن الزملاء حتى لو كان قد مضى عليهم سنوات كثيرة في عملهم سيكونون مأمونين على أية معلومة تبذلها لهم.

٩ ـ إن قضية أيمن تعطينا: أن علينا أن لا نظن أن كل مخلص ومجاهد سوف يبقى ثابتاً على يقينه وخطه، فمن يمكن أن يضمن عدم انقلاب هذا أو ذاك إلى خائن، وإلى عميل؟! فقد يمضي على الإنسان ست، بل عشر سنوات في خط الاستقامة ثم ينحرف، وتغره الدنيا، ويتغلب عليه الشيطان، ويستيقظ في قلبه حب الدنيا، وحب المال، والشهرة.

فلا بد من التزام الحذر باستمرار، فلا نعطي أية معلومة، أو أي تحليل إلا حين يكون هناك من يستفيد منه في أخذ قرار، أو في تحويل مسار، وإلا

فإن النقاش إذا كان مع من لا شأن لهم في اتخاذ القرار قد يكون تفريطاً بعنصر السرية، وخدمة للعدو.

وكان الأئمة «عليهم السلام» يشكون بشدة وبمرارة أكيدة من المذاييع البذر[١]، وهم الذين يكثرون من إفشاء الأسرار، ومن الثرثرة، وتبذير الكلام.

وأما الأصحاب والجيران، وسائق السيارة، فلا شأن لهم في مسار الأمور، فَلِما نخبرهم بما لا يعلمون، ونعطيهم ما لا يعنيهم؟! إلا إذا كنا نحب الدنيا، أو كنا نحب ذواتنا ونريد أن نعرِّفهم أننا مجاهدون، أو أننا عارفون بالأسرار مطلعون على الخفايا..

١٠ ـ إن جمع المعلومات من الثرثرات يعطينا: أن ما نظنه بسيطاً، وغير ذي أهمية، وتافهاً، ويعرفه كل الناس، قد يكون العدو بحاجة ماسة إليه، وقد يكون له أعظم النفع في رسم خططه الجهنمية، وقد يكون من أهم أسباب نجاحه فيها.

١١ ـ وأما تقبيل أيمن قدم أمه ندماً كما يدَّعي، فلا يضمن لنا حتى لو كان صادقاً أن لا يعود إلى سابق عهده في خيانة الأمانة حين يلوح له شبح المال، أو الشهرة، أو المقام والموقع..

١٢ ـ إن على أيمن وأمثال أيمن، بل على كل مجاهد، ومسلم أيضاً: أن يتفقد نفسه وإيمانه بالآخرة، ويقينه بالجنة والنار، ومدى حبه للدنيا.. فإن ما جرى لأيمن كان نتيجة ضعف إيمانه بالحساب والعقاب في الآخرة.. وإلا

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج١ ص١٩٨ وبحار الأنوار ج٦٦ ص٢٧٣.

لكان تذكر كلمة الإمام الحسين «عليه السلام»:

المــوت أولـى مـن ركـوب العــار والعـار أولـى مـن دخـول الــنار

فإن هذه الكلمة تريد أن تعرفنا:

أن علينا أولاً: أن نقوي إيماننا بالحساب والعقاب الأخروي.

وأن علينا ثانياً: أن نحدد الأولويات.. وأن نلتزم بها في اللحظات المصيرية، وفي أشد اللحظات خطورة وحساسية، وأن ندقق ونحسن الاختيار فيها.

١٢ ـ إن علينا أن ندرب أنفسنا أيضاً على معاني الإيثار، وحب الآخرين، وأن لا نرضى بأن يكونوا ضحايا لأنانياتنا.

١٣ ـ والأهم من هذا وذاك: أن نشعر بمعاني الشرف والكرامة، وأن نرضي حبنا لذواتنا وأنانيتنا من خلال اعتنائنا بالمعاني الإنسانية، مثل: الشهامة، والنبل، والإيثار.. لا من خلال إرضائها بالمال والشهوات، والابتذال، والدوس على كرامات الناس، والسعي لاستغلالهم، أو إذلالهم في سبيل إرضاء غرورنا.

١٤ ـ إن المهم هو: أن يشعر الإنسان بقيمة نفسه، وبكرامته، وأن يعرف أن هذه القيمة لا تقاس بقوته الجسدية، أو بمقدار ما لديه من مال أو جمال، أو نفوذ، أو سلطة، أو شهرة.

وإنما توزن وتقاس بما تملك من علم ومعرفة، ومن قيم ومآثر أخلاقية، وبمقدار استقامته على طريق الحق والخير..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله..

الفصل السابع:

الإنضباط توأم الرأفة..

لا مزاح بالسلاح

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد..

فقد روي عن النبي «صلى الله عليه وآله» ما يلي:

١ ـ عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: نهى رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يتعاطى السيف مسلولاً[١].

والمراد بتعاطي السيف: تداوله فيما بينهم.

٢ ـ عن جابر: أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» مـرَّ بقوم في مجلس يسلون سيفاً، يتعاطونه بينهم غير مغمود، فقال: ألم أزجر عن هذا؟! فإذا سلَّ أحدكم السيف فليغمده، ثم ليعطه أخاه[٢].

---

(١) مسند أحمد ج٣ ص٣٠٠ و ٣٦١ وسنن أبي داود ج١ ص٥٨٣ وسنن الترمذي ج٣ ص٣١٤ والمستدرك للحاكم ج٤ ص٢٩٠.

(٢) مسند أحمد ج٣ ص٣٧٠ ومجمع الزوائد ج٧ ص٢٩١ وراجع ص٢٩٠ وفتح الباري ج١٣ ص٢١ وكنز العمال ج٨ ص٣٢٤.

٣ ـ عن النبي «صلى الله عليه وآله»: «من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى يدعها، وإن كان أخاه لأبيه وأمه[١].

وقوله: «وإن كان أخاه لأبيه وأمه» يدل على أن المراد بالإشارة بالحديدة، هو الإشارة بها، ولو عن مزاح، لأن الأخ الشقيق للأب والأم لا يشير إلى أخيه بحديدة إشارة جدية.

٤ ـ عن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري، لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار[٢].

٥ ـ عن النعمان بن بشير قال: كنا مع رسول الله «صلى الله عليه وآله» في مسير، فخفق رجل عن راحلته، فأخذ رجل سهماً من كنانته، فانتبه الرجل، ففزع، فقال رسول الله: «صلى الله عليه وآله»: لا يحل لرجل أن يروع مسلماً[٣].

المراد بقوله: خفق: نعس.

ونقول:

إننا نوجز ما نرمي إليه هنا كما يلي:

---

(١) صحيح مسلم ج٨ ص٣٤ والترغيب والترهيب ج٣ ص٤٨٥ والعهود المحمدية ص٨٥٠ وكنز العمال ج١٥ ص١٩ وربيع الأبرار ج٣ ص٣٢٦.

(٢) صحيح البخاري ج٨ ص٩٠ وصحيح مسلم ج٨ ص٣٤ والسنن الكبرى للبيهقي ج٨ ص٢٣ وشعب الإيمان ج٤ ص٣٤٣ والترغيب والترهيب ج٣ ص٤٨٤.

(٣) مجمع الزوائد ج٦ ص٢٥٤ والمعجم الأوسط ج٢ ص١٨٨ والترغيب والترهيب ج٣ ص٤٨٣ والعهود المحمدية ص٨٤٩.

لا حاجة إلى البحث السندي:

١ ـ لم يكن شيعة أهل البيت «عليهم السلام» بصدد جمع كل حديث، وتدوين كل واقعة، بل كانت اهتماماتهم الكبرى منصرفة إلى الأمور المصيرية والحساسة التي كانت تواجههم، ويحتاجون إلى بلورتها، ومعرفة تفاصيلها، وتدوين أحكامها، مثل مسائل الاعتقاد، وخصوصاً موضوع الإمامة، والتوحيد، ومسائل الفقه، والتربية والأخلاق، وتأصيل الأصول، وبلورة الضوابط والمنطلقات الفكرية، وتكوين النظرة للكون وللحياة على أساس الإسلام، ونصوصه ومسلماته..

ولأجل ذلك لا نرى لهم نشاطاً قوياً في نقل تفاصيل وجزئيات ترتبط بالحرب، لأن الحرب لم تكن بالنسبة إليهم هي القضية العاجلة، فتركوا بعض تفاصيلها، ولاسيما ما لا داعي للكذب فيه، لتتولى الفئات الأخرى نقله وتدوينه.

٢ ـ إن ما تقدم يدلنا على أنه لا حاجة إلى البحث السندي في الروايات التي نعلم أن مضامينها ليست من الموارد التي تتوفر فيها الدواعي لدى أهل الأهواء للكذب، أو التحريف، أو التدليس فيها.

بل هي مما تتوافق عليه العقول، ويدعو له التدبير الحازم، والرأي الجازم. وفيه رعاية للمصالح، وحفظ للأنفس، وهو دليل الحكمة، والأمانة، والدقة، والشعور بالمسؤولية..

تداول السلاح له ضوابط:

قد دلت النصوص المتقدمة على ما يلي:

١ ـ إن المطلوب هو حفظ السلامة العامة في أدق التفاصيل، لأن أي اختلال يحصل فيها قد يتدحرج، ويكبر كما تكبر كرة الثلج، ويتحول إلى مشكلة كبيرة، ومستعصية..

وعلى القائد الحكيم أن يصدر تعليماته لعناصره في كل شاردة وواردة، وأن يطَّلع على جزئيات أحوالهم، وتصرفاتهم، وقد تحدثت الروايتان المتقدمتان برقم [١] و[٢] عن كيفية تداول السلاح بين العناصر، إن مسَّت الحاجة إلى تداوله، وسمح لهم قائدهم بنحو من أنحاء التداول له.

فقد ورد على لسان النبي «صلى الله عليه وآله» ما دل على ضرورة الإلتزام بالضوابط المقررة في تداول السيف المسلول من غمده، أو البندقية الحربية التي بحوزة العناصر، أو كيفية حمل السلاح حين يحتاج العنصر إلى التجول بين الناس، ولا فرق في ذلك بين سلاح وسلاح، فإن أية غفلة تحصل، ولو بسبب الانشغال بالمزاح والمطايبة، قد تتسبب بجرح، أو بنقض عضو، أو قتل، أو أي نوع آخر من أنواع الأذى.

وقد يوسوس الشيطان لمن تأذى، أو لمن يلوذ به: بأن يكون الطرف الآخر قد تهاون أو تراخى، إما عن غفلة، أو عن مزاح وعمد، أوجب انفلات السلاح من يد رفيقه، فحصل ما حصل.

وقد يتوهم المصاب، أو قد يظن: أن هدف ذلك الرفيق هو السخرية به، أو إظهار ضعفه، أو سذاجته.. وتتوالى لديه ظنون السوء، فتتكون لديه قابلية تفسير تصرفات ذلك الطرف بطريقة سوداوية، لا تخضع لمنطق..

وبذلك ينزغ الشيطان بينه وبين أخيه، أو إخوته، ويغريه بهم، كما تقدم

في الرواية. وإن كانت «بنزع» بالعين المهملة، فمعناها: أن الشيطان نفسه قد يتولى تحريك يد ذلك الشخص على الزناد، فيتحقق الرمي والضرب.

وهذا معنى قوله في الرواية المتقدمة برقم [٤]: «فإنه لا يدري، لعل الشيطان ينزع (أو ينزغ) في يده».

ولا فرق بين البندقية والسيف في احتمالات الخطر فيهما، ولاسيما إذا كانت تحتوي طلقة في بيت النار.

٢ ـ لقد منع رسول الله «صلى الله عليه وآله» من اللعب بالسيف مسلولاً.

بل منع من مجرد تداوله في هذه الحال، بأن يأخذه أحدهم من الآخر وهو مسلول، ولو لم يكن مازحاً..

بل أمر أيضاً: إذا كان مسلولاً في يد أحدهم أن لا يناوله لرفيقه، وهو بهذه الحالة، بل عليه أن يغمده، ثم يسلمه إياه..

وهذا جار في مختلف أنواع الأسلحة أيضاً، كالمسدس، والبندقية، والسلاح الأبيض وغيره، إذا كان يمكن أن يتسبب أي خطأ بتحريك الزناد، أو بأن تقع يده أو غيرها صدفة عليه، ويقع المحذور.

حذار من الإشارة بالسلاح:

فيما يرتبط بالإشارة بالسلاح لجهة الأخ المؤمن، وتصويبه عليه نقول:

١ ـ إن نفس الإشارة بالسلاح إلى الإنسان المؤمن ممنوع من الناحية الشرعية.

أولاً: لأن ذلك سواء أكان عن جد، أو عن مزاح كسر لحرمته، وتصغير

لشأنه، وكأنه يقول لمن يراه يفعل ذلك: إنه لا قيمة عنده لحياة ذلك الشخص، وإنه يمكن أن يكون هدفاً للسلاح.

ثانياً: إن هذا حتى لو كان على سبيل المزاح يتضمن تعليماً سيئاً للآخرين، حيث يغريهم بممارسة نفس هذه الحركات، التي إذا شاعت ينفلت الزمام، ولا يبقى انضباط، وقد يختلط الجد باللعب، بل قد يتسبب ذلك بمضايقات يضيق الطرف الآخر بها ذرعاً، فينفجر فجأة ويؤذي.

وربما كان هناك مندَّس حاقد، فيغتنم الفرصة، ويقع المحذور.

٢ ـ إن منع العناصر من الإشارة بالسلاح إلى بعضهم البعض يجب أن يكون قراراً حاسماً، ونهائياً وشاملاً، فلا يفعل ذلك أحد حتى مع أخيه لأبيه وأمه.

٣ ـ **ويتفرع على ما تقدم**: أن شراء السلاح البلاستيكي للأطفال لهو أمر خطير، لا يرضاه الشارع، لأنه يجعل لدى الأطفال نفسية عدوانية، ويسقط حرمات الأشخاص من نفسه..

ولعل سبب عدم استجابة الطفل لهذه النوازع النفسية، هو الخوف من العقوبة العاجلة.. مع أن الله يريد منه أن يمتنع عن ذلك تعظيماً للإنسان المؤمن، ولأنه يراه منافياً للكرامة الإنسانية، وهدراً لمعنى الإنسانية، وتقويضاً للعزة الإيمانية.

٤ ـ عرفنا فيما تقدم: أن الإشارة إلى المؤمن بالسلاح تحمل معها خطر عروض لمسَّة شيطانية، أو وهم سوداوي إبليسي عابر، يخل بتوازنه، ولو للحظة، فتصدر النفس الأمَّارة بالسوء أمرها للجارحة التي على الزناد بإطلاق النار، أو بتحريك السيف، فيقع في المحذور الكبير، حتى إذا عاد إلى وعيه، يجد

نفسه قد ارتكب جريمته، فيُسأل عنها، فيعجز عن تقديم أي تفسير معقول أو مقبول..

٥ ـ إن هذا يعطي: أن على الإنسان أن لا يطلق العنان لنفسه، لتتصرف كما يحلو لها، بلا حساب، وبلا رقابة، أو هيمنة، وعليه أن يبقيها في دائرة الانضباط، ورهن الإشارة..

وبدون ذلك، فإن إطلاق العنان لها يقود إلى التهور، وإلى ردات فعل متهورة، وغير منضبطة.

٦ ـ للإنسان أن يمزح مع صديقه، ما دام مزاحه في دائرة المشروعية، وليس له أن يصوب إليه سلاحه، موهماً إياه بجدية كلامه.. فإنه إن خاف وفزع ذلك الشخص فعلاً، فقد فعل من أخافه حراماً، إذ لا يحل ترويع المسلم، حتى على سبيل المطايبة والمزاح، وإن لم يخف من ذلك الشخص، وأدرك أنه يفعل ذلك مزاحاً، فإنه أيضاً يكون قد ارتكب الحرام.. وتلعنه الملائكة بسبب الإشارة بالسلاح، وتبقى لعنة الملائكة قائمة، ما دام على هذه الحالة، حتى يدعها.

وقد روي عن علي «عليه السلام»: «من أشار إلى أخيه المسلم بسلاحه لعنته الملائكة حتى ينحيه عنه»[1].

وبذلك يظهر: أن تصويب السلاح نحو المسلم، ولو مزاحاً، وحتى لو كان خالياً من الذخيرة، حرام، سواء فزع المسلم من ذلك، أم لم يفزع.

---

(١) مستدرك الوسائل ج٩ ص١٤٨.

٧ ـ ويشهد لذلك أيضاً: ما روي عن الإمام الصادق «عليه السلام»، عن النبي «صلى الله عليه وآله»: «من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها، أخافه الله عز وجل يوم لا ظل إلا ظله»(١).

فقد دلت هذه الرواية على ما يلي:

ألف: إن تخويف المؤمن، ولو بالنظرة موجب للعقوبة الإلهية، فكيف إذا أشار إليه بالسلاح.

ب: إن قصد التخويف بالنظرة كاف باستحقاق العقوبة.. سواء حصل الخوف لدى الطرف الآخر، أو لم يحصل.

ج: إن هذه العقوبة ثابتة سواء أكان الداعي للتخويف جدياً، أو كان مزاحاً!

العقوبات:

ويستفاد من الروايات أيضاً: أن للإشارة بالسلاح للمؤمن لترويعه عقوبات، سواء كان ذلك مزاحاً، أو كان جدياً، وسواء حصل الخوف، أو لم يحصل، والعقوبات هي:

١ ـ لعن الملائكة للمشير بالسلاح حتى ينحيه عنه، كما تقدم.

٢ ـ يقع في حفرة من النار. كما تقدم أيضاً.

٣ ـ أخافه الله يوم لا ظل إلا ظله. كما ذكرنا آنفاً.

٤ ـ إذا حصل الخوف، وظهرت آثاره، أبيح دم من أشار بالسلاح، كما حصل لهبَّار بن الأسود حين روع زينب (ربيبة الرسول)، فإن النبي «صلى

---

(١) الكافي ج٢ ص٣٦٨.

الله عليه وآله» أباح دمه في فتح مكة(١).

من أجل ذلك:

٥ ـ تقطع يده، كما روي عن جابر، عن أبي جعفر «عليه السلام»: «من أشار بحديدة في مصر قطعت يده، ومن ضرب فيها قتل»(٢).

ولم تذكر الرواية إن كان قد حصل الخوف، أو لم يحصل.

أوامر وتوجيهات احترازية:

وذلك كله يؤكد: أن على القائد الحكيم أن يصدر أوامره لعناصره حول كيفية حمل السلاح، ولاسيما حين تفرض الحاجة التجول بالسلاح.

ويمكن أن يستفاد ذلك مما يلي:

١ ـ روي عن جابر، قال: مر رجل بسهام في المسجد، فقال له رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أمسك بنصالها.

قال: نعم(٣).

٢ ـ **عن جابر:** أن رجلاً مرّ في المسجد بأسهم قد أبدى نصولها. فأمر

---

(١) مستدرك الحاكم ج٤ ص٤٤ وقاموس الرجال ج١٠ ص٤٤٦ ومجمع الزوائد ج٩ ص٢١٦ وقال: رواه الطبراني، وهومرسل، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي ج١٠ ص١٣٥ و ٣٦ ونزهة الناظر ص١٦٠ ووسائل الشيعة ج٢٨ ص٣١٥.

(٣) صحيح البخاري ج٨ ص٩٠ ومسند أحمد ج٣ ص٣٠٨ وسنن الدارمي ج١ ص١٥٢ وسنن ابن ماجة ج٢ ص١٢٤١ والسنن الكبرى للبيهقي ج٨ ص٢٣.

النبي «صلى الله عليه وآله» أن يأخذ بنصولها، لألا يخدش مسلماً[١].

٣ ـ عن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: إذا مر أحدكم في مسجدنا، أو في سوقنا ومعه نبل، فليمسك على نصالها.

أو قال: فليقبض بكفه أن يصيب أحداً من المسلمين منها شيء.

أو قال: لا يعقر مسلماً[٢].

---

(١) صحيح البخاري ج٨ ص٩٠ وفتح الباري ج١ ص٤٥٥ وعمدة القاري ج٢٤ ص١٨٧.

(٢) صحيح البخاري ج٨ ص٩٠ وصحيح مسلم ج٨ ص٣٣ ومسند أبي يعلى ج١٣ ص٢٧٦ وصحيح ابن خزيمة ج٢ ص٢٨٠ وربيع الأبرار ج٥ ص٢٧١ والجامع الصغير ج١ ص١٣٢ وكنز العمال ج٤ ص٣٥٠.

تعديات الجيش

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد..

هكذا نعالج تعديات الجيش:

١ ـ إننا نعرف أن الجيش يتكون عادة من عناصر مختلفة يجمعها هدف واحد، وهو دفع الأعداء، والذود عن حياض الأمة، وحفظ عزتها وكرامتها، والذب عن حرماتها، وصيانة الأموال، والأعراض والأنفس..

٢ ـ وهناك قاسم مشترك آخر بين أفراده، وهو: الخبرة القتالية، والخضوع للقيادة وعدم تجاوزها.

٣ ـ غير أن هؤلاء العناصر هم من البشر، يصيبون ويخطئون، ويطيعون ويعصـون. ولديهم رغبات وطموحات، وأحاسيس ومشاعر.. وليسوا في مستوى واحد من حيث التهذيب، والأدب، وحجم المعارف.. وتجد فيهم أيضاً طلاب الدنيا، وأهل الآخرة، ونجد ذوي الأخلاق الفاضلة، والمزايا الحميدة والفريدة، ومن هو عكس ذلك.

٤ ـ كما أن بعض عناصر هذا الجيش بسبب إغراءات السلاح، والشعور

بفائض القوة، قد تبدو عليه مسحة عنجهية، واعتداد بالنفس، وربما دفعته إلى التسرع والاستفادة من قعقعة السلاح لفرض رأيـه، أو للحصول على مبتغاه.. لاسيما وأنهم يعتبرون أنفسهم سلطة ذات قوة، وهم عصبة يحمي بعضهم بعضاً.

ولعل بعضهم ينتابه شعور بالتميز عن سائر الناس، وأنه المتفضل عليهم، لأنه يعرِّض نفسه للخطر.. وقد ينال درجة الشهادة وهو يدافع عنهم، سواء أكانوا مسلمين، أو من أهل الذمة.

بل قد تتضخم الأمور لديه إلى حد أن يرى أن حياتهم، وأمنهم، وأموالهم منه وإليه، فهو يمنُّ عليهم بذلك كله، ويرى أن كل ما لديهم مرهون به، وله نصيب منه، وعليهم أن لا يمنعوا عنه شيئاً يريده، فماذا يضير لو أتلف بعض زرعهم، أو صادر شيئاً من مالهم؟! فإن ذلك كله يهون حين يكون ثمنه العزة، والكرامة، والأمن والسلامة.

٥ ـ إنهم يدركون حاجة قائدهم إليهم، ولاسيما في ظروف الحرب والدفاع، وأنه يخطب ودهم، ويكون ذنبهم عنده مغفوراً، وخطأهم مستوراً.

٦ ـ مع أنه إذا كان يدافع عن الدين، أو دفع العدو، أو بسط الأمن أو أي شأن آخر، يكون هو المستفيد من ذلك كله أيضاً، فيحفظ دينه، ويدفع عدوه، ويبسط أمنه، ويكون سائر عناصر الجيش أعواناً له على تحصيل مراداته المشار إليها، فلماذا لا يرضى بأن يمنوا عليه؟! ولماذا لا يعترف لهم بالشراكة معه فيما حصل عليه، ووصل إليه؟!

٧ ـ على أن ما يريده الله من جميع أفراد ذلك الجيش: هو أن يخلصوا له

في أعمالهم وفي جهادهم، وأن لا يكون همهم هو الدنيا، ولا يمنُّوا على الناس بجهادهم هذا؛ بل الله تعالى يمنُّ عليهم أن هداهم، ووفقهم لهذا الجهاد.. وجعله ذخراً لهم يوم يلقونه..

لأن المطلوب دائماً هو السمو الروحي، من خلال توطين الأعمال الجوارحية والجوانحية في غاياتها، وجعلها متصلة بالمطلق، واللامتناهي والباقي، فإنها هي الأخرى تتصف بهذه الصفات أيضاً، ولذلك قال تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾[1].

٨ ـ وبما ذكرناه يتضح السبب في أننا نرى أن الجيش حين يتحرك لإنجاز المهمات الموكلة إليه.. يبادر بعض أفراده إلى التعدي على أرزاق الناس، وقد يتلفون لهم بعض مصادر رزقهم، كالزرع أو الشجر، وربما تعدوا على الناس فآذوهم في أجسادهم، وأهانوهم، وظلموهم، وإذا مر ذلك الجيش في مناطق يسكنها أهل الذمة، أصبح بعض عناصره أكثر شراسة عليهم، واستضعافاً لهم بغير وجه حق.

٩ ـ ولكن علياً يرى أن الجهاد واجب، ولا يقوم الواجب على أجنحة الظلم والعدوان، ولأجل ذلك تصدى «عليه السلام» لمعالجة هذا الأمر بكل صرامة وحزم، وذلك ضمن رسالتين:

إحداهما: وجهت لقادة الجيش.

والثانية: وجهت لعامة الناس، ولاسيما أهل الذمة، الذين يتعرضون

---

(١) الآية ٢٦ و٢٧ من سورة الرحمن.

لهذا الامتحان الصعب بسبب استضعافهم.

والرسالة الثانية أشبه بالمنشور العام..

ونحن نذكر فيما يلي هاتين الرسالتين، ثم نعقب عليهما، بما يناسب المقام، فنقول:

١ ـ ذكر المنقري: أن علياً «عليه السلام» كتب إلى أمراء الأجناد:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله علي أمير المؤمنين ..

أما بعد.. فإني أبرأ إليكم وإلى أهل الذمة من معرَّة الجيش، إلا من جوعة إلى شبعة، ومن فقر إلى غنى، أو عمى إلى هدى، فإن ذلك عليهم.

فاعزلوا الناس عن الظلم والعدوان، وخذوا على أيدي سفهائكم، واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عنا، فيَرُدّ علينا وعليكم دعاءنا، فإن الله تعالى يقول: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً**﴾(١).

فإن الله إذا مقت قوماً من السماء هلكوا في الأرض.

فلا تألوا أنفسكم خيراً، ولا الجند حسن سيرة، ولا الرعية معونة، ولا دين الله قوة، وأبلوا في سبيله ما استوجب عليكم، فإن الله قد اصطنع عندنا وعندكم ما [يجب علينا أن] نشكره بجهدنا، وأن ننصره ما بلغت قوتنا. ولا قوة إلا بالله.

---

(١) الآية ٧٧ من سورة الفرقان.

وكتب أبو ثروان[١].

٢ ـ وفي نهج البلاغة كتاب يختلف في مضامينه عن هذا الكتاب. والظاهر: أنه رسالة أخرى أرسلها «عليه السلام» إلى الناس الذين يمر بهم الجيش، وربما نالهم منه بعض الأذى، وبيَّن لهم كيفية تعاملهم في مثل هذا الحال.

لكن الرسالة الأولى، وجهها «عليه السلام» إلى القادة، وحدد لهم كيفية التعامل مع هذه التعديات، فإذا انضم هذا إلى ذاك حصل التكامل في الإجراءات التي تفضي إلى حفظ الناس، في أرواحهم وأرزاقهم..

والكتاب الذي أرسله إلى الناس، وكأنه منشور عام هو التالي:

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى من مر به الجيش من جباة الخراج وعمال البلاد..

أما بعد..

فإني قد سيرت جنوداً هي مارة بكم إن شاء الله، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم، من كف الأذى، وصرف الشذى. وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرَّة الجيش، إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهباً إلى شبعة.

فنكلوا من تناول منهم ظلماً عن ظلمهم، وكفوا أيدي سفهائكم عن مضادتهم، والتعرض لهم فيما استثنيناه منهم.

وأنا بين أظهر الجيش، فارفعوا إليَّ مظالمكم، وما عراكم مما يغلبكم من

---

(١) صفين للمنقري ص١٢٥ ونهج السعادة ج٤ ص٢٤٢ و٢٤٣ وراجع: البحار ج٣٢ ص٤١٥ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج٣ ص١٩٤.

أمرهم ولا تطيقون دفعه إلا بالله وبي، أُغَيِّره بمعونة الله. إن شاء الله[(١)].

ونقول:

عمال البلاد: حكامها.

معرة الجيش: إثمه، وشرّه، وأذاه.

الشذى: الشر. يقال: آذيت أو أشذيت.

نكلوا: إدفعوا، أو دافعوا.

من وظائف قادة الجيش:

لم يحدثنا التاريخ أن إماماً للأمة، وحاكماً قد تصدى لمعالجة أذايا الجند للناس حين مسير الجيش نحو الأعداء، من خلال أوامر وتوجيهات للناس.. ولاسيما أهل الذمة الذين هم الحلقة الأضعف، والأكثر تعرضاً للأذى من جهة، ثم من خلال الأوامر التي أصدرها «عليه السلام» لقادة الجند، حدد لهم فيها كيفيات معالجة هذه التعديات..

والذي نلاحظه في البداية ما يلي:

١ ـ إن معرة الجيش، وما يصدر عن بعض أفراده تجاه الناس الذين يصادفهم في مسيره، ليس أمراً متيقن الحصول، ولكنه محتمل..

٢ ـ إنه «عليه السلام» قد وضع معالجة وافية لهذا الأمر إن حصل هذا

(١) نهج البلاغة (بشرح محمد عبده) الكتاب رقم ٦٠ ج٣ ص١١٦ و١١٧ وشرح نهج البلاغة للمعتزلي ج١٧ ص١٤٧ وبحار الأنوار ج٣٣ ص٤٨٦ ونهج السعادة ج٤ ص٢٤٠ و ٢٤١.

الأمر المحتمل.. وهذا درس عملي تطبيقي صريح: بأن على القائد أن يضع مسبقاً حلولاً ومعالجات لأمور يحتمل حصولها في المستقبل.

٣ ـ إن هذا يدل أيضاً على حجم القيمة ومدى الاهتمام الذي يوليه «عليه السلام» للناس.

٤ ـ هو يدل: على أن على القائد أيضاً: أن يرصد المستقبل، كما يرصد الحاضر، وأن يحتاط لجميع الاحتمالات.

٥ ـ إن هذا الإجراء يعرفنا: أن على الناس أيضاً: أن لا يسكتوا عن المطالبة بحقوقهم، وأن لا يخيفهم شعار الجهاد للأعداء، وأن لا يكون هذا الشعار سبباً في السكوت عن الأذى، حتى لو كان المؤذي مجاهداً، وربما صار شهيداً، فإن شهادته لا تبرئ ذمته من حقوق الناس، ولا تبرر له السطو أو التعدي على تلك الحقوق.

لماذا لم يذكر المعاهدين؟!:

وقد رأينا أنه «عليه السلام» بدأ رسالته إلى القادة بقوله: «فإني أبرأ إليكم وإلى أهل الذمة من معرة الجيش..».

وقال في الكتاب الآخر، الذي خاطب به جباة الخراج، وعمال البلاد: «وأنا أبرأ إليكم، وإلى ذمتكم من معرة الجيش الخ..».

ويبدو: أن اهتمامه الأكبر في كتابه الثاني هم خصوص أهل الذمة الذين يتعرضون للتعديات من الجيوش التي تمر بهم.

وأما الرسالة الأولى، فإنها وإن شملت المسلمين، إلا أنها لم تخل من الإشارة القوية إلى أولوية أهل الذمة بهذا الخطاب أيضاً.

ويبدو لنا: أن الجرأة على أهل الذمة، والمبادرات إلى التعدي على أرزاقهم، وإيذائهم بالأقوال والأفعال، واستباحة حرماتهم كانت أكثر ظهوراً أو انتشاراً، لأن المسلمين يمتنعون من التعديات بإسلامهم، ويجدون أمامهم أبواب الشكوى مشرعة، وتؤتي شكواهم ثمارها بحسب العادة..

حق للمعاهدين:

ويثور أمامنا هنا سؤال عن سبب اقتصاره «عليه السلام» على أهل الذمة، ولم يذكر المعاهدين إذا تعرضوا لمعرة الجيش.. مع أنه «عليه السلام» قد غضب حين وردت خيل معاوية الأنبار، وتعدت على الناس، فقال «عليه السلام»:

«ولقد بلغني: أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها، وقُلبها، وقلائدها، ورعاثها، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلاً منهم كلم، ولا أريق لهم دم؛ فلو أن امرءاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً، بل كان به عندي جديراً»[١].

---

(١) نهج البلاغة (بشرح عبده) ج١ ص٦٤ و ٦٥ والأخبار الطوال للدينوري ص٢١١ و ٢١٢ والغارات للثقفي ج٢ ص٤٧٥ و ٤٧٦ والكامل للمبرد ج١ ص٢٠ والعقد الفريد ج٤ ص٧٠ ومعاني الأخبار ص٣١٠ وأنساب الأشراف (ط مؤسسة الأعلمي) ج٢ ص٤٤٢ وراجع: عيون الأخبار لابن قتيبة ج٢ ص٢٣٦ والكافي ج٥ ص٤ والأغاني ج١٥ ص٤٥ ومقاتل الطالبيين ص٢٧ والبيان والتبيين ج١ ص١٧٠.

توضيح:

الحجل: الخلخال.

والقُلب ـ بضم القاف ـ: السوار.

والرعاث: جمع رعثة: القرط.

ويجاب بما يلي:

أولاً: لا شيء يدل على وجود معاهدين في طريق جيوشه «عليه السلام» إلى صفين أو غيرها، لكي يحتاج إلى بيان ما يجب عمله لو تعرضوا لمعرة الجيش.

ثانياً: إن أهل الذمة هم من أهل الكتاب الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية، ويرون أنفسهم من رعاياها، ويعترفون برئاسة المسلمين عليهم. وقد وضعت الدولة الإسلامية عليهم شروطاً، وتعهدت بحفظ أمنهم، ودفع عدوهم.

وأما المعاهدون، فهم أعداء للمسلمين. ويرون أنهم هم المسؤولون عن أمن أنفسهم، ويتوقعون ذلك من أبناء جلدتهم، وحكامهم، ولا يعترفون بحاكمية ولا برئاسة المسلمين عليهم، إلا إن دخلوا بلاد المسلمين للتجارة أو غيرها، وتعهد لهم المسلمون بالحماية في داخل بلادهم.

ولكن عهدهم قد ضمن لهم هدنة مع المسلمين، فإذا انقضت فالحرب هي سيدة الموقف.

فلا حقَّ للمعاهدين على أمير المؤمنين من حيث هم رعية له، لكي يبرأ لهم منه، لأنهم ليسوا رعية له.

ثالثاً: إن سبب غضبه «عليه السلام» في قضية الأنبار، وما جرى على

المرأة المعاهدة من سلب بعض زينتها.. قد يكون هو هذا الضعف في المسلمين، الذي جعل الغامدي يتمكن من اختراق بلادهم حتى بلغ الأنبار، فصادف وجود معاهدة، ومسلمة، فسلبتا حليّهما. والعدوان على المرأة المسلمة والمعاهدة على حد سواء، مع أن المفروض أن يكون هناك ما يكفي لصد هذه الهجمة من أول ظهور آثارها قبل أن تلامس مجتمع أهل الإيمان وتتوغل في أعماق بلادهم، وتسيء إلى الضعفاء من النساء.

حيث يفترض أن تكون المنعة بحيث لا يتمكن العدو من العبث حتى بأمن المعاهد الذي هو الحلقة الأضعف بالقياس إلى أهل الذمة والمسلمين، فإنه لا يرى أن له حقاً على أحد بأن يدافع عنه.

رابعاً: إن العدوان في قضية الأنبار قد جاء من قبل جيش معاوية، ولعل غضبه «عليه السلام» كان يرجع إلى دوافع أخلاقية وإنسانية، وإن لم يصل ذلك حد الإلزام الشرعي بالدفع عن المعاهدة، فإن الرفق بالعدو ليس واجباً.

خامساً: لو سلمنا: أنه يجب الذب عن المعاهـد، كما قد يفهم من حادثة الأنبار، فإننا نقول:

قد يكون هناك فرق بين الذمي وبين المعاهد: بأن يكون الدفع عن الذمي وحمايته من الأحكام الإلزامية في كل زمان ومكان.

ولكن رفع التعدي عن المعاهد، ليس له هذا الإطلاق بل يجب رفع التعدي إذا وقع عليه في داخل البلاد الإسلامية..

أما إذا حصل في خارجها، فلا يجب دفع هذا الأمر عنه، ولا وضع القوانين، واتخاذ الإجراءات الضامنة لسلامته حتى من معرة الجيش.

بعض التعديات مسموح بها:

ويلاحظ: أنه «عليه السلام» وهو يضع القوانين، ويصدر التوجيهات لمعالجة تعديات الجند على الناس، ولاسيما الضعفاء منهم كأهل الذمة، قد بيَّن أن هناك ثلاثة أنواع من التعديات غير مشمولة لهذه المقررات، لأنها من حق الجند على الناس. فلا يصح خلط الأمور ببعضها، ولا يجوز تضييع حقوق الجند حين نريد حفظ حقوق الناس.

وهذا يدل على ضرورة التدقيق في أي قرار يتخذ، وملاحظة الأمور من جميع جوانبها، والأمور الثلاثة التي استثناها «عليه السلام» هي التالية:

١ ـ حالة الضرورة القصوى، كما لو تعرض لخطر شديد، وأكيد، لفقده ما يقوت به نفسه، ويحفظ حياته، ولا سبيل له إلى حفظ حياته بغير تناول ما يسد به الرمق من بستان قريب إليه مثلاً.

فلو لم يصل الأمر إلى هذا الحد، فلا يحق للجندي شيء من ذلك.

كما أنه لو علم أنه سيتمكن من تحصيل ما يحفظ حياته بالاستفادة مما لدى زملائه، أو ببلوغ مكان تتوفر فيه مقومات الحياة، فلا يكون مضطراً وقد أشار «عليه السلام» إلى هذا بقوله في رسالته الثانية: «إلا من جوعة المضطر، لا يجد عنها مذهباً إلى شبعه». فالخطر الذي لا مهرب منه هو الذي منحه هذا الحق.

وقد أُشير إلى هذا المورد في قوله تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾(١).

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.

٢ ـ حالة الحاجة التي تضر بالحال ويتوقع عروضها في مجمل ذلك المسير، فإن الجندي قد يكون لديه ما يسد جوعته، ولكن ظروف ذلك المسير الطويل تحتم عليه مثلاً المرور في صحراء منقطعة تحتاج إلى توفير زاد لها، بحيث لولا توفيره، لانقطعت به السبل في وسط تلك الصحراء، وواجه الخطر العظيم.

٣ ـ أن يكون ذلك الجندي قد أقدم على ما أقدم عليه جهلاً منه بالأحكام، فيتوهم: أن ذلك يجوز له، لكونه مجاهداً باذلاً نفسه في سبيل الله، فيُعذر لجهله، ولا يطالب بما أخذ مما أباحه الشارع له بما هو عابر سبيل.

ولعل قوله «عليه السلام»: «إلا من جوعة إلى شبعة، ومن فقر إلى غنى، ومن عمى إلى هدى» تشير كل فقرة منه إلى واحدة من هذه الأمور الثلاثة، وفق الترتيب المتقدم.

من وظائف القادة:

ذكرت الرسالة الأولى التي وجهها «عليه السلام» إلى قادة الجيش: أن من وظائف هؤلاء القادة:

١ ـ عزل الناس عن الظلم، ولعله إنما عبَّر «عليه السلام» بكلمة عزل، ولم يقل: منع الناس من الظلم، لأجل أن المطلوب ليس هو مجرد المنع عن الظلم، فإن المنع إنما يكون حين يقتحم الناس حريم الممنوع، بل المطلوب هو إقامة موانع وحواجز تفصل بين الممنوع والممنوع عنه، وتحجزه عن الوصول إليه..

وهذا المعنى أبلغ وأولى، وأجدى في تحقيق المقصود، فقد يتحقق العزل.. بإيجاد سلسلة بشرية من الجانبين تحول بين الجيش في مسيره، وبين ممتلكات

الناس.. وأما مجرد المنع من فعل شيء والاستفادة من الرقباء، فإنه يكون قابلاً للاختراق عند أول غفلة من الرقباء.

٢ ـ من وظائف قادة الجيش عزل من هم بإمرتهم عن العدوان أيضاً. ولعل الفرق بين العدوان والظلم: أن الظلم ينصب على الأنفس بالدرجة الأولى، كالضرب، والحبس، والإهانة، وما إلى ذلك.. فنفس المظلوم هي التي يستهدفها الظالم بظلمه، ولو لأجل عقدة نفسية يعاني ذلك الظالم منها.

وأما العدوان، فهو يستهدف ما يعود إلى الشخص كالبيت، والمال، والأشجار، أو الثمار، وغير ذلك.

أي أن العدوان يكون على الحقوق بالدرجة الأولى، وإن كان يلزمه الظلم أيضاً.

كما أن الظلم للناس، يلزمه العدوان أيضاً، فيكون «عليه السلام» قد استعمل كلا الكلمتين في المعنى الذي تكون أظهر دلالة عليه.

٣ ـ ومن مهمات القادة: الأخذ على أيدي السفهاء الذين يكونون تحت إمرتهم. وهؤلاء السفهاء يقدمون على الأمور بغير روية، أو تدبر، فيحدثون اختلالات وفوضى، ويتجاوزون الحدود، ويسقطون الضوابط الحاكمة عن درجة التأثير المتوخاة منها.

فلكي يعود للجيش تماسكه في علاقاته، وليعود الانسجام إلى تصرفاته، ولكي تنقشع عنه غيوم الفوضى، ويفرض عليه الانضباط، لا بد من محاصرة السفهاء ونزع سلاح الانفلات، والتمرد من أيديهم، لكي لا يفاجئنا السفهاء بتصرفاتهم الخطيرة والمدمرة، وبدون ذلك لا بد أن نتوقع الدمار والبوار،

وضياع الأهداف في وضح النهار..

٤ ـ على القادة الذين هم القدوة لمن هم تحت يدهم: أن يلتزموا خط الاستقامة والصدق مع الله. وأن يحفظوا خط الاتصال به سبحانه، فلا يصدر عنهم أي عمل لا يرضيه. لأن الجند يتأثرون بقادتهم، فيتحول ذلك إلى ظاهرة عامة، ويتسبب بانسداد باب التواصل معه، حيث يُعرض سبحانه عن الجميع مقتاً لهم.

وهذا الإعراض هو الكارثة العظمى، لأن القائد لا يأتي بالنصر بطريقة سحرية، بل هو يستعمل ما لديه من وسائل وأسباب، وليس لديه بعدها أي سبب يمكن الاستعانة به سوى المدد الإلهي الذي لا سبيل للوصول إليه إلا بالدعاء والطلب، والإلحاح والابتهال.

فأي عمل لا يرضاه الله يصدر من ذلك القائد، إذا أوجب إعراض الله عنه، لا بد أن يحجب هذه المعونة عن نفسه، وعن غيره ممن رضي سيرته، وذلك يمنع من استجابة الدعاء، فتقع الكارثة، ويكون المحذور الكبير.

ولأجل ذلك قال «عليه السلام»: «واحترسوا أن تعملوا أعمالاً لا يرضى الله بها عنا، فيرد علينا وعليكم دعاءنا». ثم استشهد بالآية الشريفة: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً**﴾(١).

ثم ذكر «عليه السلام» نتيجة ذلك: «فإن الله إذا مقت قوماً من السماء هلكوا في الأرض».

---

(١) الآية ٧٧ من سورة الفرقان.

٥ ـ وأمر القادة أيضاً: بأن لا يألوا أنفسهم خيراً، أي أن يسعوا إلى الاستكثار من الخير لأنفسهم، ويواصل كل واحد منهم مراقبة نفسه، ويتعاهدها بالأعمال الصالحة، لأن موقعه كقائد يغري به شياطين الأنس والجن، فليس له أن يغفل عن تهذيبها، وحملها على الطاعات، ويتحفها بالخيرات والبركات. ولذا قال: «فلا تألوا أنفسكم خيراً».

٦ ـ ثم قال: «ولا الجند حسن سيرة». فإن السيرة الحسنة للقائد في جنده تحفر لها مكاناً عميقاً في قلوبهم، ولاسيما إذا تواصلت هذه السيرة، وتنامت وترسخت.

بل إن التعبير بـ «ولا الجند حسن سيرة» يشير إلى أن المطلوب هو البحث والتقصي عن أحسن السير، وأفضل صور وأشكال المعاملة الطيبة، لكي يتحف بها القائد جنده، ولا يبخل بها عليهم.

وهذا يعطي الانطباع عن القيمة العظيمة التي يوليها «عليه السلام» للتربية الروحية للقادة، وكذلك الحال بالنسبة لتعاملهم، والسيرة الحسنة مع جندهم.

٧ ـ كما أن على القائد أن لا يخص جنده بكل ما لديه، بل عليه أن لا يدخر الرعية أيضاً أي نوع من أنواع المعونة. فإن ذلك يعطيهم الرضا والسكينة، والطمأنينة والثقة، وتزول نظرتهم وتهمتهم إلى الجيش وقادته بأنهم عبء عليهم، وأنهم لا يفكرون بغير مصالحهم.

٨ ـ ثم قال «عليه السلام»: إن على القادة أن لا يألوا دين الله قوة، فليس شيء أولى ببذل كل القوة في سبيل قوته وإعزازه من دين الله تبارك وتعالى.

٩ ـ ثم أمرهم «عليه السلام» بأن يبلوا في سبيل دينهم ما استوجب

عليهم. أي أن الله تعالى قد فرض أموراً كثيرة عليهم تجاه دينهم، وعلي «عليه السلام» يأمرهم بأن يؤدوا جميع هذه الفروض.

في حين **أننا نرى**: أن الكثيرين إن كانت لهم حقوق، أو كانوا يتوهمون ذلك يسعون للحصول على كل ما يرونه حقاً لهم، حتى لو كان وهماً وباطلاً.

ولكنهم في الحقوق المتوجبة عليهم، يتباطأون في أدائها، ويسوِّفون، وإن أعطى بعضهم منها شيئاً، فإنه يحاول أن يقتنص منها ما أمكنه.. فحالهم حال المطففين الذين قال تعالى عنهم: ﴿**وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ**﴾(١).

المظلوم يتصدى لظالمه:

وحين خاطب «عليه السلام» الناس الذين يتعرضون للأذى من بعض أفراد الجيش المار بهم قال: «فنكلوا من تناول منهم ظلماً عن ظلمهم».

ونقول:

١ ـ إن سياق الخطاب في الكتاب يقتضي أن يكون «عليه السلام» قد أوجب على الناس المعتدى عليهم أن يدفعوا الظالمين عن ظلمهم، فيكون تقريراً لمبدأ حق الدفاع عن النفس.

وهو المبدأ الذي أهمل الناس العمل به حينما دخلت خيل معاوية الأنبار كما تقدم، وتحدث «عليه السلام» بمرارة شديدة عن هذا الأمر، وقال: «فلو أن امرءاً مسلماً مات من هذا أسفاً ما كان عندي ملوماً الخ..».

---

(١) الآيات ١ و ٢ و ٣ من سورة المطففين.

٢ ـ إن الأمر بنكل الظالمين ودفعهم قد توجه لعامة المخاطبين جماعات وأفراداً، ولا يختص الأمر بالمعتدى عليه فقد يضعف عن ذلك.

٣ ـ أمرهم «عليه السلام» بما يدل على أن دفاعهم يجب أن لا يكون عشوائياً، بل يكون خاضعاً لضوابط، وأن تبقى الأمور تحت السيطرة لأن انفلات الزمام يعطي الفرصة للسفهاء الذين يقحمون أنفسهم في الأمور من دون تروٍ، والسفهاء لا يخضعون للضوابط، ويسرفون في إظهار التحدي.. في حين أن المطلوب هو مجرد دفع الظلم، ورد العادية.

٤ ـ ذكر «عليه السلام» أن سبب الأمر بالأخذ على أيدي السفهاء هو: أن الذين يجب أن يتصدوا لدفع الظلم، يجب أن يكونوا على معرفة تامة بالتوجيهات التي صدرت، والحدود التي وضعت، والحقوق التي منحها الله ورسوله وأوصياؤه للجيش، والتي تسمح له بالاستفادة من أملاك الناس التي تكون في طريقه. فلا يجوز التصدي لمن يتحرك في الحدود التي سمح له الشارع بها، ويستفيد من الحقوق التي منحه إياها..

وقد تقدم تحت عنوان: بعض التعديات حق للجند: أنها ثلاثة أمور هي:

ألف: حالة الضرورة القصوى قال «عليه السلام»: «إلا من جوعة المضطر، لا يجد منها مذهباً إلى شبعة».

ب: علمه بأنه في مسيره سيدخل في أزمة صعبة قد لا ينجو منها، إن لم يعد لها الزاد الكافي.

ج: أن يكون قد أقدم على ما أقدم عليه عن جهل بالأحكام، أو عن غفلة ما تجعله معذوراً عند الله.

وأنا بين أظهركم:

وقد يستصغر البعض تعديات بعض أفراد الجيش، ويقول: إنها لا تستدعي كل هذا الاهتمام.

ولكن علياً «عليه السلام» يقول: بل هي تستحق تدخُّل الإمام الحاكم على الأمة كلها لإعادة الأمور إلى نصابها..

لأن البديل عن ذلك هو غضب الله، وانقطاع الصلة به، وعدم استجابة دعوات القادة فضلاً عن الاتباع، ووقوع الكارثة على الجميع، «فإن الله إذا مقت قوماً من السماء هلكوا في الأرض» كما تقدم.

فلا يجوز الاستهانة بمثل هذه الأمور. كما دل عليه فعل أمير المؤمنين «عليه السلام» هنا، حيث قرر أن يكون هو المرجعية لهم إذا غلبتهم الأمور، ولم يتمكنوا من دفع الظلم عن أنفسهم.

وهذا أمر محتمل الحصول، فإن الناس يستضعفون أهل الذمة، ولا يجد سائر الناس الدافع لنصرهم، أو الذب عنهم.

وهذا يعطي:

١ ـ أن على القائد: أن يلاحق الأمور، ويعالج المشكلات، حتى الصغيرة منها، ولا يتركها حتى تكبر، وتتراكم سلبياتها، وتستعصي على الحل.

٢ ـ إن هذا يدل على أن أبواب الحاكم الأعظم ستكون مشرعة أمام كل مظلوم، وأن عليه أن يأمل بدفع الظلم عنه بمعونة الله وبأعلى سلطة تحكم البلاد والعباد.

٣ ـ إنه «عليه السلام» قد تعهد بدفع المظلومية عن العباد.

٤ ـ إنه سوف يفعل ذلك بالاستناد إلى معونة الله لا إلى جيوشه، وما يملك من إمكانات.

٥ ـ إنه «عليه السلام» لم يوكل هذا الأمر إلى القادة والولاة، بل تولاه بنفسه، ربما لأنه لا يريد أن يضيف عليهم أعباء قد تؤثر على حجم جهدهم وعطائهم فيما يرتبط بالأمر الخطير الموكل إليهم.

٦ ـ إن هذا يعطي: أنه لا بد من ملاحظة حجم القدرات والمسؤوليات والموازنة بينها، على قاعدة: إذا أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع.

٧ ـ إنه يعطي: أن على القائد والوالي أن يرجع إلى من هم فوقه لمعالجة الأمور قبل استفحالها.

والحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآل محمد..

الفرار من الزحف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين..

وبعد..

فقد قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾**(1).

وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**(2).

فما الذي نستفيده من هذه الآيات المباركة فيما يرتبط بالثبات في ساحات الجهاد؟!

ونجيب ضمن ما يلي من مطالب:

---

(1) الآيتان ١٥ و ١٦ من سورة الأنفال.

(2) الآيتان ٤٥ و ٤٦ من سورة الأنفال.

مقدمات:

١ ـ إن الحديث في هذه الآيات مع الذين آمنوا، وهم الذين فعلوا الإيمان. مما يعني: أنهم توجهوا إلى الإيمان، وميَّزوا بينه وبين غيره، وأدركوا رجحانه على ما عداه، فاختاروه بملء إرادتهم، عن وعي وإدراك لمزاياه..

فهو ليس كإيمان يرثه الإنسان من أبويه، أو من محيطه، فيأخذه بصورة عفوية، وعن غير قصد، أو التفات لمضامينه، فضلاً عن أن يتدبر فيها، ويميز بين صحيحها وسقيمها.

٢ ـ إنه تعالى صدَّر خطابه بكلمة «إذا» التي تستعمل عند ظهور اكتمال الأسباب الظاهرية.. فيزداد توقع حصول الشرط، فيخبر عن حصوله، ويربط جزاءه به.

٣ ـ إن الكافرين يحرصون على التخلص من الإيمان والمؤمنين، لأنهم لا يطيقون الالتزام بما يرون أنه يقيِّد حركتهم، أو طاعة وعبادة إلهٍ يحاسبهم، ثم يثيب ويعاقب، ويفرض عليهم الأخذ بما أحله هو لهم دون سواه.. وقد قال تعالى في سورة القيامة: ﴿**بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ**﴾[1].. مشيراً إلى هذه الرغبة في التفلت من كل قيد..

٤ ـ ليس للمؤمن أن يبدأ أحداً بقتال إلا أن يُبتدأ.

زحفاً:

١ ـ وبعد الشروع في القتال بسبب عدوان الكافرين على المؤمنين، يصبح

---

(١) الآية ٥ من سورة القيامة.

المؤمنون ملزمين بالثبات.. لأن أي سعي للهروب من المواجهة سوف يجلب الويلات والنكبات.. ولأن ذلك يشجع العدو على الإمعان في عدوانه، ويصبح أكثر شراسة، وأشد حرصاً على إلحاق الأذى بالمؤمنين.

٢ ـ الزحف: هو الحركة المتأنية نحو العدو، وهو يعطي:

ألف: أن الحركة البطيئة ترمز إلى الثبات، والانغراس في الأرض.. الذي عبَّر عنه أمير المؤمنين «عليه السلام» بقوله لولده محمد بن الحنفية: «تد في الأرض قدمك». أي اغرسها في الأرض، وثبتها كالوتد.

ب: إنه تعالى لم يُشِرهنا إلى الحركة السريعة والاندفاع الشديد نحو العدو، وذلك لما يلي:

أولاً: ربما لكي لا يتوهم أحد أن هذه السرعة هي عمل هجومي يعبِّر عن الرغبة الجامحة بسفك الدماء.

ثانياً: إن سرعة الحركة إنما تصبح مطلوبة بعد حصول الاشتباك المباشر. وأما قبل ذلك، فليست السرعة أمراً متعيناً دائماً، وإنما يتبع اختيار السرعة أو البطء الظروف والمقتضيات القائمة.

ثالثاً: إن سرعة الحركة حال الزحف نحو العدو قد تتسبب بخلخلة التماسك، والإضرار بانتظام القوى، بسبب بعثرة مكوناتها، حيث يتمكن العدو من أحداث اختراقات كبيرة وخطيرة، نتيجة لهذا الواقع المستجد.

رابعاً: ربما توهم الناس: أن هذه الحركة السريعة تدل على أن المؤمنين هم الذين بدأوا بالقتال، ويصير المبغي عليه هو الباغي بنظرهم.. فيكون ذلك مبرراً للتعاضد ضدهم..

٣ ـ إن قوله تعالى: ﴿زَحْفاً﴾ يدل على أن حرمة تولية العدو الأدبار تختص بصورة الاشتباك المباشر بين جيشين يزحف كل منهما تجاه الآخر..

أما لو كانت الحرب حرب عصابات، أو كان المطلوب هو نصب الكمائن لإيراد ضربات سريعة لتشويش فكر، وجهد، وحركة العدو، وهزيمته النفسية، حيث يورد المقاتل ضربته، ثم يبتعد بسرعة، فلا يحرم مغادرة المكان بسرعة، بعد إتمام الضربة المحددة، أو بهدف التحضير لضربة، أو ضربات أخرى متلاحقة.

لم يقل: لا تهربوا:

وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾. فإن لم يمكن ذلك، يجعل في الخطوط الخلفية، ليقوم ببعض ما يمكن لمثله القيام به.

يقال: ولى دبره إذا اتخذ شكل أو وضع المنهزم.

وقد يتساءل المرء عن السبب في اختيار عبارة: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾، ولم يقل مثلاً: فلا تهربوا، أو لا تنهزموا.

ويجاب:

١ ـ بأنه قد ذكر الشكل الذي يتخذه المهزوم والهارب، ولم يصرح بالهرب والهزيمة، ونحوهما، لأن هاتين الكلمتين تشعران بالخطر، والخوف، فتصيران بمثابة المبرر، أو العذر المخفِّف لقبح فعلهم هذا، مع أن المطلوب هو: إظهار شناعة وبشاعة وقبح هذا التصرف.

٢ ـ إن هذا يدل: على أن على من يتولى الشأن الإعلامي للحرب: أن يختار كلماته بدقة، فلا تكون ذات إيحاءات تنقض الأهداف التي يراد توجيه

الأنظار إليها، والتأكيد عليها.

٣ ـ إن اتخاذ شكل المهزوم ليس دائماً يكون سببه الخوف أو استشعار الخطر.. لأن من يفعل ذلك قد يكون مندساً بين أهل الحق، أو يكون غير مقتنع بصوابية الحرب، أو يريد من أهل الحق الخضوع للبغاة، لشبهة عرضت له حول جواز قتالهم، فيريد لفعله هذا التأثير على معنوياتهم، ونقض تماسكهم، عن طريق إيهامهم بأمر لا حقيقة له، وهو: أن الأعداء قد أوشكوا على محاصرتهم مثلاً، أو أنهم في وضع يمكنهم من الفتك بهم.

وربما كان هناك الخائف والجبان، الذي كان يجب أن لا يشارك بنفسه في الحرب، فقد روى في الجعفريات روايتين، تدلان على عدم وجوب الجهاد على الجبان، لكن يُجهِّز غيره.

٤ ـ إنه تعالى بعد أن خاطب جماعة المؤمنين بقوله: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ عقَّب ذلك بما يدل على حرمة صدور هذا الأمر منهم، وعلى عقوبة فاعله، ولكنه في هذا التعقيب عدل عن مخاطبة الجماعة إلى الحديث عن الأفراد..

وعدل عن الخطاب للحاضر إلى الحديث عنهم بصيغة الحديث عن الغائب، فقال: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ..﴾.

ويبدو: أن سبب الحديث عن الأفراد: أن الفرد الواحد إذا ولى الدبر، واتخذ وضعية المهزوم، فإنه قد يتسبب بهزيمة الجيش كله، لاسيما حين يكون الجيش متوتراً، ومنهمكاً بالقتال، فإنه لن يستطيع التحقق من صحة وسلامة هذا الوهم الذي سيطر على الجيش، أو عدمه.

ويتأكد ذلك بملاحظة: أن النفس الإنسانية حين تواجه الخطر، ويحتدم

الصراع تتشبث ولو بالطحلب للخروج من دائرة الاستهداف إلى مواضع السلامة والأمن..

أضاف بعض الإخوة الأكارم قوله:

«ويكفي في هذا العدول إلى الحديث عن الأفراد إرادة الإرشاد إلى كون الثبات تكليفاً عينياً.. وإن تحريم تولية الدبر هو تحريم عيني أيضاً.. وتكمن حكمة هذا التحريم العيني بما تقدم ذكره، أو غير ذلك» انتهى.

٥ ـ إن عدوله تعالى عن الخطاب المباشر مع المؤمنين إلى الحديث عنهم بصيغة الغائب، فقال: ﴿**فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ**﴾.. لأن الفرد الواحد من الجيش إذا فعل ذلك، ولو تصنعاً، أو جبناً، أو خيانة، قد يتسبب بهزيمة الجيش، وربما كان سبباً في كوارث وزلازل هائلة.

وهو بفعله هذا يستحق الطرد عن ساحة القرب، والإبعاد عن مقام الصلاحية للخطاب الإلهي، إذا كان من موارد التشريف والتكريم منه.

٦ ـ إن قوله: ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ يشير إلى أن ارتكاب هذه الجريمة مرة واحدة يجعل من يرتكبها مستحقاً للطرد من ساحة الكرامة، والشرف دائماً، ويوجب أن يبوء بغضب من الله.. وأن تكون جهنم مأواه.

العقوبات الإلهية:

تقول الآية المتقدمة: أن من يولي الدبر في ساحات الجهاد ﴿**فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾.

ونستخلص من هذه الفقرات أموراً عديدة نذكر منها:

١ ـ إن الإنسان إذا أراد أن يهيئ منزلاً يرتاح فيه، فإنه يبحث عن مكان آمن، بعيد عن المتاعب والمنغصات، معتدل الهواء، عذب الماء، بعيد عن الضوضاء.. فإذا وجده فإنه يسويه ويهيئه، ويمهده، ويصلحه.

ومن يولي الأدبار في الحرب، إنما يفعل ذلك لينتقل من مكان الخطر الأكيد، والخوف الشديد إلى المكان الذي يمنحه الأمن والراحة والسلامة.. وإذ به بنفس فعله هذا الذي أراد به درء الأخطار، والحصول على المنزل الممهد، المريح والآمن يهيئ لنفسه أسوأ منزل، وأكثره خوفاً، وأعظمه خطراً، وأشده ألماً.. فما توخاه من فراره من الزحف قد انقلب إلى أتعس الأضداد، وأعظمها مرارة، وألماً، وخزياً.

وقد أشارت الآيات في بيانها لمواصفات منزله هذا إلى ما يلي:

ألف: إن منزله الجديد هو في مكان شمله الغضب الإلهي..

وظاهر الكلام: أن هذا حاصل بالدنيا، فضلاً عن الآخرة أيضاً.

ب: إن هذا الغضب لا يمكن معرفة كنهه ومداه، وحدوده، ولا تدركه العقول، لشدة هوله، كما دل عليه تنوين التنكير الذي في قوله تعالى: ﴿**بِغَضَبٍ**﴾.

ج: لقد أخبر تعالى عن أن الكون في هذا المنزل أمر محقق ويقيني الحصول، حتى كأنه قد وقع وانتهى الأمر، ولذا أخبر عنه تعالى بصيغة الفعل الماضي، فقال: ﴿**بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ**﴾ ولم يقل: فإنه يبوء بغضب الله.

د: إن مأواه في الآخرة، هو جهنم.. فهي المكان الذي يأوي إليه ظناً منه أنه سيجد فيه السلامة والراحة والأمن، وإذ به يجد العذاب الأليم، والخزي العظيم.

هـ: وقد أضاف تعالى إلى هذه العقوبات التصريح بالاستهانة والاحتقار لمن يرتكب هذا الجرم الكبير والخطير، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

هذا ليس فراراً:

١ ـ وقد استثنت الآية المباركة موردين قد يتوهم البعض أنهما من موارد تولية المقاتل دبره في الحرب، وهما:

الأول: أن يتظاهر المقاتل بالتراجع عن القتال، في حين أنه يحاول الميل إلى أحد جوانب العدو، لكي يتمكن من الإيقاع به.. أي أنه يريد أن يهاجم عدوَّه من موقع آخر، غير الموقع الذي حشد فيه قواته وقدراته.. ليسدد له ضربة في خاصرته الرخوة، وحيث لم يهتم العدو بالتحشيد فيها، أو بتحصينها، كما فعله بالجهة التي تدور فيها المعارك، ظناً منه: أن العدو لن يأتيه من تلك الجهة.

الثاني: أن يحاول الالتحاق بفئة أخرى من إخوانه ليقاتل معها، بعد أن ظهر له أن قتال العدو في الموقع الذي حشد فيه وحصّن لم يعد مجدياً، أو أنه على الأقل قد يرتب على أهل الإيمان خسائر كبيرة، يمكن توفيرها للاستفادة منها في مواقع أخرى بصورة مؤثرة وفاعلة.

٢ ـ وهذان الموردان ليسا من موارد تولية العدو الدبر، بل هما من التكتيكات العسكرية المؤثرة والناجحة.

٣ ـ إن هذين الموردين يدلان على مرونة هذا الدين، وعلى أنه يستجيب لمقتضيات الواقع، ما دامت هذه المقتضيات حافظة للأهداف المرضية لله تبارك وتعالى..

المكلف يختار ويقرر:

إن الله تعالى كرَّم بني آدم، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(١).. فأعطاهم العقل والفطرة، ورفدهم بالتوجيهات الأخلاقية والقيم الإنسانية.. وبعث إليهم الأنبياء بكتبه ورسالاته.. وأمرهم بالتأمل والتفكر، والاستدلال..

وجعل لكل فرد منهم حرية الاختيار، وحرية اتخاذ القرار، على قاعدة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾(٢). ولمزيد الثقة بأن الأمور قد أصبحت مهيأة لهذا الإنسان على أتم وجه، فإنه تعالى قد جعل العقوبات على أي إفساد، والمثوبات على كل عمل صالح أساساً في منهجه، ودينه، وركيزة في مسيرة البشر.

واللافت هنا في الآية ٤٥ من سورة الأنفال: أنه تعالى قد أمر المؤمنين بأمرين:

أولهما: بأن يثبتوا إذا لقوا فئة قد عزمت على قتالهم.

الثاني: أن يذكروا الله كثيراً لعلهم يفلحون.

١ ـ إنه تعالى لم يقل للمؤمنين: يجب عليكم قتال الكافرين أو غيرهم.. فإنه لو قال ذلك، لفهم الناس منه: أن وجوب قتال كل كافر، أو مخالف لم يتقيد بأي شرط.. مع أن قتالهم مشروط بحصول العدوان وحصول البغي على أهل الإيمان.

كما أن ثمة نهياً للمؤمنين، عن أن يبدأوا أحداً بقتال، إلا أن يبدأهم

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الاسراء.

(٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

أعداءهم بذلك.

٢ ـ إن من أسباب عدم إصدار الأمر الصريح بقتال المعتدي: أن المؤمنين قد يمنعهم دينهم عن العدوان على أحد، بل يكون أعداؤهم هم الذين يعتدون عليهم.

ومن الواضح: أن الدفاع عن النفس واجب شرعاً وعقلاً، وفطرة، ووجداناً، بل هذا هو ما نشاهده لدى المخلوقات ذات الأرواح من غير البشر بصورة لا تقبل الشك.. فلا يحتاج إلى إصدار أمر من الشارع، إلا على سبيل التأكيد، والإرشاد، والإعلان بتوافق العقل والشرع في هذا الأمر.

لا فرق بين فئة وأخرى!!:

١ ـ تقدم في الآيات برقم ١٥ و ١٦ من سورة الأنفال: تحديد الموقف من قتال المشركين والكافرين، ولكنه في الآية ٤٥ قد تحدث عن لقاء وقتال فرقة معادية، ومعتدية، ولم يصفها بما يدل على ما تدين به.. الأمر الذي يجعل الآية تشمل حتى الفئة من المسلمين التي تبغي على فئة مسلمة أخرى، وتعتدي عليها.

وقد أمرت الآية المؤمنين بالثبات في مواجهتهم.. ولم يصدر تعالى في هذه الآية للفئة المبغي عليها أمراً صريحاً بالقتال، ربما لأن الدفاع عن النفس لا يحتاج إلى أمر، سواء أكان المهاجم والمعتدي مسلماً أو كافراً، كتابياً أو مشركاً..

٢ ـ بل إن نفس الأمر بالثبات في وجههم وبالصبر في مواجهتهم، ووعدهم بالمثوبة عليه، يدل على الرضا بقتالهم، ولزوم الدفاع عن النفس.. فهو نظير قوله تعالى في الآيات ١٥ و ١٦ ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾.

٣ ـ لكن الآية رقم ٤٥: لم تحذِّر المؤمنين من تولي الأدبار، واكتفت بالأمر بالثبات، وذكر الله كثيراً، والأمر بالصبر، وعدم التنازع..

ولعل سبب ذلك: أن الحديث في هذه الآيـة عام لجميع حالات الاعتداء الذي يجب دفعه.

أما الآية ١٥ و ١٦ فهي خاصة بعدوان الكافرين.. فيجب الثبات والصبر، ويحرم تولية الأدبار، وغير ذلك.

لكن الآية ٤٥ شاملة لعدوان الكافرين، ولعدوان فئات من المسلمين على بعضها ـ كما ذكرته ـ آيات سورة الحجرات.. وحين يكون العدوان من فئة مسلمة على أختها يكون المطلوب هو صد المعتدين وإخماد الفتنة فقط.. وليس المطلوب الإمعان في تحطيم قوات المعتدي الباغي وشل قدراته.

ولأجل ذلك ـ كما يبدو ـ اقتصر هنا على الأمر بالثبات، وذكر الله كثيراً، والصبر، وعدم التنازع، وهي أمور مطلوبة في التصدي لأي مهاجم كان.

وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا:

وقد أمر الله تعالى في هذه الآية الفئة المؤمنة المبغي عليها بذكر الله كثيراً..

ولعل سبب الأمر بذكر الله كثيراً في هذه الآية يعود إلى:

١ ـ أن ذلك يزيد تعلقهم بالله وشوقهم إليه، ويجعلهم أكثر قدرة على التحرر من مفاتن الدنيا، التي تشدهم إليها، ويزيد من رغبتهم وابتهاجهم بلقاء الله تبارك وتعالى.

٢ ـ إن ذلك يهون عليهم ركوب الصعاب، ويفتح لهم للنصر رتاج كل باب، ويزيدهم قوة واندفاعاً، وصلابة، وامتناعاً.

٣ ـ إن ذلك يضعف تأثير الأخطار عليهم، ويشد من عزائمهم، ويهوِّن عليهم وقع المصائب التي تنفر النفوس منها، ويمنحهم الرضا بها، وجعلها من وسائل القرب منه تبارك وتعالى.

٤ ـ إنه يضبط حركتهم، لتكون دائماً في نطاق الشرع الشريف، ويلزمهم بالتقيد برعاية حدوده.

٥ ـ وتتأكد الحاجة إلى معرفة الأحكام ورعايتها، إذا كان المهاجم الباغي مسلماً، قد وقع في شبهة، أو عرضت له كبوة ونزوة.

٦ ـ إن ذكر الله كثيراً يهيئ نفوسهم لإخلاص العمل لله تعالى.. ويعطل مشاعر الانتقام والتشفي، ويفقدها القدرة على التأثير.. والاكتفاء ـ من ثم ـ بما يدفع الفتنة، ويبعد كيد الشيطان.

٧ ـ إن ذكر الله تعالى: يمثل حصانة لهم من الغرور، والإعجاب بأنفسهم من خلال الأوهام التي تعرض لهم، حيث يظنون أنهم هم الذين فعلوا ودمروا وقتلوا، وانتصروا، وحققوا الإنجازات، بجهدهم وقوتهم الذاتية، وحسن تدبيرهم، وصحة تفكيرهم، وإحكام خططهم، وعظيم تضحياتهم، في حين أنه تعالى يقول لنبيه «صلى الله عليه وآله»: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى**﴾(١).

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ:

واللافت: أن كل هذه الفوائد والعوائد التي ذكرناها، لذكر الله كثيراً..

---

(١) الآية ١٧ من سورة الأنفال.

وسواها مما لم نذكره، مما قد يكون أكثر نفعاً، وأعظم وقعاً، قد أشارت إليه، أو إلى ما هو صواب منه الآية المباركة حين أشارت إلى رجاء الحصول على الفلاح بسببه، فقالت: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ربما لأن المقصود من ذكر الله: ما هو أبعد من الترديد اللساني لأسمائه وصفاته، ومواهبه تعالى، ليشمل ما هو أعمق من ذلك وأبعد، حيث يصل إلى حد الشعور الفياض والغامر، بحضور الله، في وجدانه وفي ضميره، وفي مشاعره، ليكون هو المحرك لها، وهو المؤثر والمدبر، والمهيمن والمسيطر على كل وجـوده، والمتحكم في جميع شؤونه، وأحواله..

أوامر وزواجر أخرى:

ثم عقَّب تعالى الأمر بالثبات، والأمر بذكر الله كثيراً، بالأوامر والزواجر، التي تكون مراعاتها ضرورية جداً في مواجهة الفئة المشار إليها..

والأوامر والزواجر هي الأربعة التالية:

١ ـ أوجب عليهم طاعة الله.

٢ ـ ألزمهم بطاعة رسوله.

٣ ـ نهاهم عن التنازع..

وقد علل نهيه عنه بأمرين:

الأول: إن التنازع يوجب الفشل.

الثاني: إنه يوجب ذهاب ريحهم وقوتهم.

٤ ـ ثم أمرهم بالصبر..

وعقَّب أمره هـذا بقوله: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. فراجع الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

للتوضيح والبيان:

ولتوضيح ما نرمي إليه نقول:

تقدم: أن الحرب مع الكافرين حرب وجود وبقاء، فلا بد من أن تكون حرباً مؤثرة في ردعهم، وكسر شوكتهم، حتى لا يتجرؤا على العدوان مرة أخرى.

وقد يكون الهدف أحياناً هو مجرد رد عدوانهم دون تجاوز ذلك.. رعاية لمصالح المسلمين، ولـو في مناطق أخرى قـد يتعرضون فيها للخطر، بسبب الإمعان في قتال هذه الفئة الكافرة.

ولكن إذا كانت الحرب مع فئات مسلمة، خدعها الطامعون والطامحون، ومن في قلوبهم مرض، أو أنهم وقعوا تحت تأثير شبهة، أو حملتهم عصبياتهم، أو أحقادهم على ارتكاب هذه الجريمة في حق إخوانهم، فإن المطلوب هو رد عدوانهم.. وإن لم تدمر قوتهم، ولم تكسر شوكتهم.. وهذا يتحقق بالثبات، وبذكر الله.. بالإضافة إلى الأمور الأربعة التالية:

١ ـ الطاعة لله، ورعاية تشريعاته التي تحكم وتنظم أمثال الحالة التي هم بصدد معالجتها.

٢ ـ إن عليه أن يطيع رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وإمامه، أو من نصَّبه الإمام «عليه السلام» في الأوامر التدبيرية التي تفرضها الأحوال، وتقلبات الأمور، ورعاية المصالح التي يصدرها.

٣ ـ لا بد من الامتناع عن التنازع فيما بين الفريق المعتدى عليه.. سواء

كان المعتدي كافراً أو مسلماً.

ولكن بما أن التنازع المشار إليه أكثر ما يحصل حين يكون المعتدي مسلماً، فيدب الخلاف بين المعتدى عليهم، ويثور اللغط حول صوابية أي تصرف يراد مواجهة المعتدين به، في أنفسهم، وأموالهم، وسائر ما يتعلق بهم.. لشعور الناس بالحرج المشوب بحب السلامة من التبعات الأخروية منها، ولاسيما المترتبة على قتالهم، حتى لو كانوا هم المعتدين، والبغاة على إخوانهم.

وقد رأينا: أنه تعالى قد ذكر للتنازع الذي نهى عنه نتيجتين، وهما:

ألف: الفشل.. وهو الهزيمة النفسية، والضعف، والتراخي، والجبن عند حرب أو شدة.. الأمر الذي يستتبع التراجع وعدم تحقيق الأهداف المتوخاة من القتال، فإن الهدف من قتال المهاجم، إن كان هو تدمير قوته، وكسر شوكته ـ فيما لو كان المهاجمون كفاراً ـ فهذا الهدف لن يتحقق مع وجود هذا الضعف والخور والجبن.

وإن كان الهدف هو مجرد رد العدوان، ودرء الفتنة، حين تكون الفئة المعتدية مسلمة، فالفشل إذا حصل، فإن نتيجته هي عدم القدرة على رد العدوان، وبقاء الفتنة قائمة.

ب: ذهاب الريح.. والمراد به: القوة القادرة على تحريك الأمور التي يحتاج المؤمنون إلى تحريكها من خلال قوتهم..

ويبدو: أن ذلك ينشأ عن أن الاختلاف والتنازع بين أهل الإيمان، أيّاً كانت أسبابه، كما لو اختلفوا في صوابية الخطط الحربية المعتمدة، فإن ذلك يجعل المقاتلين يشعرون بعدم الثقة بنصر إخوانهم الذين يختلفون معهم، حين يحتاجون

إلى نصرهم.. كما أنهم لا يجدون لدى أنفسهم الحماسة المطلوبة للذب عن إخوانهم بفضل قوتهم.

وذلك يدعوهم إلى الانطواء، وبذل جهد أكبر لحماية أنفسهم بأنفسهم، وأن يحتفظوا بفضل قوتهم، لكي لا يتمكن عدوهم من النيل منهم.

وإذا تكرست هـذه المشاعـر، وتركت آثارها، تتفاعل حتى انتهاء تلك المعركة، فإن الأمل بإعادة الكرّة على الأعداء، وتسجيل النصر عليهم.. هذا الأمل لن يولد، وإن ولد، فسيولد ميتاً..

٤ ـ ثم جاء الأمر بالصبر.. الذي هو فعل الأفراد.. وهم المخاطبون بالأمر به فرداً فرداً، لكي يخرجوا من حالة التواكل، ومراقبة بعضهم بعضاً.. لكي لا يكترث أحد لما يحصل من تنازع واختلاف، وما يرتكب من معصية الله ورسوله، ولذلك أمرهم بالصبر، لكي يتحملوا مسؤولية الاستمرار في قتال العدو، وبذلك يكون قد أمرهم بأن يستعيضوا عن أولئك العصاة والفاشلين، باستنهاض القوى الكامنة في أنفسهم، من خلال هذا الصبر..

٥ ـ ثم عوضهم تعالى عن النقص العارض لهم بما هم جماعة بأن يكون الله تعالى مع خصوص الصابرين منهم، مؤكداً على ذلك بكلمة «إنَّ» المشددة، وبالجملة الإسمية الدالة على الثبوت والدوام..

ويلاحظ: أنه تعالى لم يقل: إن الله مع الذين يصبرون، بل قال: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾، ليدل على أن هذا الصبر ليس أمراً عارضاً، مستدرجاً من خارج ذواتهم، بل هو كامن فيهم، من خلال إيمانهم وقناعاتهم، وجميل صفاتهم، وغير ذلك مما يريد الله تعالى أن يراه في عبده المؤمن..

وليدل أيضاً على أن الله تعالى معهم ما دامت صفة الصبر فيهم..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين.

غيبة المقاتلين عن عيالهم

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.. وبعد..

ذكروا: أن عمر بن الخطاب كان يعس ذات ليلة بالمدينة، (أي يتنقل في الأزقة، يتجسس على الناس، مستفيداً من ظلمة الليل) إذ مرّ على امرأة جالسة على سرير، وقد أجافت (أي أغلقت) الباب، وهي تقول:

تطاول هذا الليل واخضر جانبه   وأرقني إذ لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله لا شيء غيره   لحرك من هذا السرير جوانبه

فقال عمر: أواه.. ثم خرج فضرب الباب على حفصة ابنته، وقال لها: كم تحتاج المرأة إلى زوجها؟!

فقالت: في ستة أشهر.

فكان لا يغزي جيشاً له أكثر من ستة أشهر[1].

---

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص١٠١.

اخضر: اسود.. يقال كتيبة خضراء إذا غلب عليها لبس الحديد.

وفي نص آخر:

فـوالله لـولا الله تخـشى عواقبـه لزعزع من هـذا الـسرير جوانبـه

ونقول:

أولاً: إن هذا الذي ذكرته حفصة، ورضيه منها أبوها غير دقيق، والصحيح: هو ما دلت عليه روايات أهل البيت «عليهم السلام»، فقد روى صفوان عن أبي الحسن الرضا «عليه السلام»: أنّه سأله عن الرجل يكون عنده المرأة الشابّة، فيمسك عنها الأشـهر والسنة، لا يقربها، ليس يريد الإضرار بها، يكون لهم مصيبة، يكون في ذلك آثماً؟!

قال: إذا تركها أربعة أشهر كان آثماً بعد ذلك.

زاد في بعض النصوص قوله «عليه السلام»: إلا أن يكون بإذنها[1].

ثانياً: إن هذا التحديد بأربعة أشهر، لعله ناظر إلى الأعم الأغلب في مثل هذه الظروف الحزينة بسبب المصيبة، فإن النفس عادة لا تنشط لممارسة الجنس، كما أن المرأة ترغب في مواساة زوجها، ومشاركته في حزنه.

ثالثاً: ومن المعلوم: أن لدى بعض النساء من الشهوة أضعاف ما عند الرجال، كما صرحت به بعض الروايات أيضاً، فهي تقول:

إن أمير المؤمنين «عليه السلام» سئل عن شهوة الآدمي، فقال: للرجل

---

(١) من لا يحضره الفقيه ج٣ ص٤٠٥ وتهذيب الأحكام ج٧ ص٤١٢ و ٤١٩ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٢٠ ص١٤٠ و ١٤١ و (الإسلامية) ج١٤ ص١٠٠.

واحدة، وللمرأة تسعة.. [١].

وفي الروايات: أن الله تعالى جعل فيهن من أجزاء الحياء على قدر اجزاء الشهوة، فإذا حاضت الجارية ذهب جزء من حيائها، وإذا تزوجت ذهب جزء، فإذا افترعت ذهب جزء، وإذا ولدت ذهب جزء، وبقي لها خمسة أجزاء، فإن فجرت ذهب حياؤها كله، وإن عفت بقي لها خمسة أجزاء[٢].

وقد روي عن أبي عبد الله «عليه السلام» أنه قال: مَنْ جَمَعَ مِنَ النِّسَاءِ مَا لَا يَنْكِحُ فَزَنَى مِنْهُنَّ شَيْءٌ فَالإِثْمُ عَلَيْه[٣].

رابعاً: ظهر مما تقدم: أن المعيار هو إشباع المرأة من الناحية الجنسية، صوناً لها عن اللجوء إلى ممارسة الحرام.

وهذا يعطينا:

ألف: أن التجمير للمقاتلين المتزوجين في الحروب، وهو إطالة مدة غيبتهم عن عيالهم، يدعو المقاتل إلى التماس مخارج أخرى لإخماد ثورة شهوته، وقد تكون بعض هذه المخارج غير مشروعة، ومن شأنها أن تضعف درجة الحصانة لديه، ولاسيما إذا تكرر تعاطيها لها.

---

(١) بحار الأنوار ج٤٠ ص٢٢٦ وج٣١ ص٥٣٢.

(٢) بحار الأنوار ج١٠٠ ص٢٤٤ ومشكاة الأنوار للطبرسي ص٤١٣ والخصال للصدوق ص٤٣٩ ومستدرك سفينة البحار ج٢ ص٤٨٨.

(٣) الكافي ج٥ ص٥٦٦ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج٢٠ ص١٤١ وج٢١ ص١٧٨ و (الإسلامية) ج١٤ ص١٠٠ و ٥٧١.

وما كان منها حلالاً، فإنه قد يخلق له مشكلات لم تخطر له على بال في أكثر من اتجاه.

كما أن من الممكن أن تتسرب الروائح إلى بيت الزوجية الأول، ولا يعلم إلا الله كيف تنتهي الأمور بعد ذلك.

ب: إن هذه الغيبات الطويلة، ووحدة الزوجة، وبعدها عن زوجها، قد يجرها أيضاً إلى تعاطي أمور لا يرضاها الشرع، وإذا تعاظمت المشكلة، ولم يأخذها الزوج بحضنه الدافئ، فإن مظنة الوقوع بما هو أعظم سوف تكبر، ويزداد خطرها، وقد تنتشر الروائح الكريهة، وتتحول إلى فضائح تهدم بنيان السعادة، وتقوض صيوانها البهيج.

ج: من أعظم المشكلات التي تفرضها الحروب، وأشدها خطراً على الواقع الاجتماعي، في أخلاقه، وفي تدينه، وفي صلابته وتماسكه هي هذه الغيبات المتوالية لمدة شهر أو شهرين، أو أكثر، ثم تعقبها إطلالة سريعة للمقاتل على أهله وعياله، يبددها في زياراته للأقارب، وفي جلسات طويلة ومرهقة فرضتها عليه علاقاته، أو عمله، وحساسية موقعه.

وقبل أن تنطفئ ذبالة مصباحه المتوهج بعد نضوب ما يغذيها، فإن زوجته ستجده حين تقع عينها عليه آخر الليل، ذلك الرجل الشاحب والمرهق، الذي لا يطيق أن يمنحها تحية حنان، أو بسمة رضى، بل يسقط على فراشه متهالك القوى، وسرعان ما يقهره سلطان النوم الذي لا يقهر، ومن دون أن تتمكن زوجته، حتى من شم رائحته.

ثم تتكرر في اليوم التالي نفس هذه الفصول، وإذ بالاتصالات المتلاحقة

على شكل استغاثات والتماسات، وإلزامات تفرض عليه الالتحاق بمراكز عمله لحقبة أخرى، ربما تكون أطول من سابقتها، وأكثر وحشة لعياله، وأشد مرارة عليهم..

فهذه السياسة هي سياسات رديئة وقاصرة، تحمل معها الأدواء التي تفتك بالمجتمعات، وتدمِّر البيوتات، وتحول النساء الصالحات إلى قنابل موقوته، نعوذ بالله منها، وبه نستجير..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله..

حقوق الجرحى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين.. واللعنة على أعدائهم أجمعين، إلى قيام يوم الدين..

وبعد..

فقد يتساءل البعض عن حقوق الجرحى، وحدود امتداداتها، ومجالاتها، ودرجة الاهتمام بهم، والسعي في مداواتهم، وفي قضاء حوائجهم.

ونجيب:

بأن النصوص الكثيرة والغزيرة تعطي: أن للجرحى حقوقاً عظيمة تجب رعايتها، وتأديتها إليهم على أكمل وأتم وجه..

والإحاطة بهذه النصوص، وتلمس معانيها ومراميها ليس بالأمر السهل، أو الميسور لنا في ظروفنا الحاضرة على أقل تقدير..

إن لم نقل: إننا لنعجز عن ذلك.. الأمر الذي يحتِّم علينا الاكتفاء بنماذج يسيرة، نجملها فيما يلي من مطالب:

ألف: عن النبي «صلى الله عليه وآله» في حديث: «يا محمد، من غزا من

أمتك في سبيل الله، فأصابه قطرة من السماء، أو صداع، كتب الله له شهادة يوم القيامة»(١).

ونقول:

١ ـ فإذا كانت قطرة من السماء تصيب الغازي، أو صداع يلمُّ به، يوجب له هذه الدرجة عند الله يوم القيامة، فهل يمكن أن يرضى الله تعالى عمن يتوانى في مداواة الجريح، وفي معونته، وقضاء حاجاته، وتيسير أموره؟!

٢ ـ ويتأكد هذا المعنى إذا كان هذا المتواني، والمهمل هو الموكل بالسعي في مداواة جراحهم، وقضاء حاجاتهم، ويكتسب رزقه مقابل قيامه بهذه المهمة.

نقول هذا.. وإن كان ذلك مجرد افتراض، قد يندر وجود مصداق له..

ب: عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الأَصَمِّ، عَنْ حَرِيزٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الله «عليه السلام» قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ «عليه السلام» لأَصْحَابِهِ:

إِذَا لَقِيتُمْ عَدُوَّكُمْ فِي الْحَرْبِ، فَأَقِلُّوا الْكَلَامَ، واذْكُرُوا الله عَزَّ وجَلَّ، ولَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ، فَتُسْخِطُوا الله تَبَارَكَ وتَعَالَى، وتَسْتَوْجِبُوا غَضَبَه.. وإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ إِخْوَانِكُمُ الْمَجْرُوحَ، ومَنْ قَدْ نُكِّلَ بِهِ، أَوْ مَنْ قَدْ طَمِعَ عَدُوُّكُمْ فِيه، فَقُوه بِأَنْفُسِكُمْ(٢).

---

(١) الكافي ج٥ ص٨ و ٣ وأمالي الصدوق ص٤٦٢ وثواب الأعمال ص٢٢٥ وتهذيب الأحكام ج٦ ص١٢١ ووسائل الشيعة ج٥ ص١١ و ١٣.

(٢) الكافي ج٥ ص٤٢ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٥ ص٩٧ والخصال للصدوق ص٦١٧.

ويلاحظ:

١ ـ أنه «عليه السلام» أمر أصحابه بأن يقوا أخاهم المجروح بأنفسهم، فهل يرضى بالتهاون أو التسويف في معالجة جراحه؟!

٢ ـ هناك فرق شاسع بين وقايتهم الجريح بأنفسهم، حيث تكون الحرب مستمرة، فإن ذلك مظنة التعرض لخطر القتل أو الجرح على يد الأعداء.. وبين السعي في معالجة جراحات المجاهد، وقضاء حاجاته خارج مساحة القتال، حيث لا يوجد خطر عل الساعي، ولا على غيره.

٣ ـ إن هذا يشير إلى تبدل الأولويات، فإن المجاهد قبل أن يجرح لا يختلف حاله عن حال سائر رفقائه، ولكنه بعد أن أصبح جريحاً صار على رفقائه أن يفدوه بأنفسهم، مع أن هـذا قـد يؤدي إلى إزهاق الأرواح من أجله.. وهـذا يدل على أن الجراح قـد أعطته قيمة مضافة.. لعلنا لا نستطيع كشف حيثياتها ومبرراتها، فلا بد لنا من التعبد والانقياد.

٤ ـ إن هذا الحديث يدل على القيمة العظيمة للمجاهد عند الله ورسوله.

ج: وعن النبي «صلى الله عليه وآله» في حديث أنه قال:

«ومن خرج مرابطاً في سبيل الله تعالى، أو مجاهداً فله بكل خطوة سبعمائة ألف حسنة، ويمحى عنه سبعمائة ألف سيئة، ويرفع له سبعمائة ألف درجة، وكان في ضمان الله تعالى حتى يتوفاه بأي حتف كان، كان شهيداً، فإن رجع، رجع مغفوراً له، مستجاباً دعاؤه»(١).

---

(١) عقاب الأعمال ص٣٤٥ و (منشورات الشريف الرضي) ص٢٩٣ ووسائل الشيعة

ونقول:

١ ـ هذا في صورة رجوعه سالماً معافى، فما بالك إذا رجع جريحاً، هل يكون حاله أدنى من حال المعافى، فلا يكون مغفوراً له، ولا يستجاب دعاؤه؟!

٢ ـ إذا كان دعاؤه مستجاباً، فإن في التهاون في مداواته، أو في قضاء حاجاته، ومعونته خطر التعرض لدعوة مستجابة منه..

د: وعنه «صلى الله عليه وآله»: مَنْ بَلَّغَ رِسَالَةَ غَازٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ رَقَبَةً وهُوَ شَرِيكُه فِي ثَوَابِ غَزْوَتِه[1].

فهل مداواة جراح ذلك الغازي أقل ثواباً من إبلاغ رسالته، أو لا ثواب فيها؟!

هـ: مر شيخ مكفوف كبير يسأل.. (أي يطلب من الناس التصدق عليه).

فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: ما هذا؟!

فقالوا: يا أمير المؤمنين، نصراني.

قال: فقال أمير المؤمنين «عليه السلام»: استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه!! انفقوا عليه من بيت المال[2]..

(آل البيت) ج١٥ ص١٩.

(١) الكافي ج٥ ص٨ والأمالي للصدوق ص٤٦٣ و (ط مؤسسة البعثة) ص٦٧٣ وثواب الأعمال ص٢٢٥ و (منشورات الشريف الرضي) ص١٩٠ وتهذيب الأحكام ج٦ ص١٢٣ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٥ ص٢١.

(٢) تهذيب الأحكام ج٦ ص٢٩٢ و ٢٩٣ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٥ ص٦٦.

فإذا كان يجب الإنفاق على النصراني من بيت المال إذا كبر وعجز، وهو لم يغز، ولم يجاهد، بل هو يمقت هذا الجهاد، ويتمنى نصر الأعداء على المسلمين، فهل يرضى الإمام «عليه السلام» بإهمال الجريح، وعدم السعي في قضاء حاجاته، وفي مداواته، وتخفيف آلامه، ولاسيما إذا كانت إصابته بالغة، أو موجبة لعجزه طيلة حياته؟!

مع ملاحظة: أننا نتحدث عن حالات قد تحدث، لا عن أمر قد حدث.

و: عن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين «عليه السلام» قال: من قضى لأخيه حاجة فبحاجة الله بدأ، وقضى الله له بها مائة حاجة، في إحداهن الجنة، ومن نفَّس عن أخيه كربة نفَّس اللهُ عنه كرب القيامة بالغاً ما بلغت.

إلى أن قال: ومن سعى له في حاجته حتى قضاها فَيُسَرُّ بقضائها كان إدخال السرور على رسول الله «صلى الله عليه وآله».

إلى أن قال «عليه السلام»: ومن عاده عند مرضه حفَّته الملائكة تدعو له حتى ينصرف، وتقول له: طبت، وطابت لك الجنة.. (١).

ز: وفي آخر خطبة خطبها «صلى الله عليه وآله» قال:

«ومن قاد ضريراً إلى مسجده، أو إلى منزله، أو لحاجة من حوائجه، كتب الله له بكل قدم رفعها ووضعها عتق رقبة، وصلَّت عليه الملائكة حتى يفارقه..

ومن كفى ضريراً حاجة من حوائجه، فمشى فيها حتى يقضيها، أعطاه

(١) ثواب الأعمال ص١٧٥ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٦ ص٣٤٢ و ٣٤٣.

الله براءتين: براءة من النار، وبراءة من النفاق، وقضى له سبعين ألف حاجة في عاجل الدنيا، ولم يزل يخوض في رحمة الله حتى يرجع..

ومن قام على مريض يوماً وليلة بعثه الله مع إبراهيم الخليل «عليه السلام»، فجاز على الصراط كالبرق الخاطف اللامع.

ومن سعى لمريض في حاجة قضاها، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، فإن كان المريض من أهله؟!

فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: مَنْ أَعْظَمُ الناس أجراً ممن سعى في حاجة أهله؟!

إلى أن قال: ومن فرَّج عن أخيه كربة من كرب الدنيا نظر الله إليه برحمته، فنال بها الجنة، وفرَّج الله عنه كربه في الدنيا والآخرة.. الخ..[1].

وبعد..

١ ـ فهل الجريح الذي أصيب في الله أقل شأناً عند الله من المريض وغيره؟!

بلى والله، إنه لمن أعظم المرضى أجراً، وأرفعهم عند الله مقاماً، وهو أولى بالاهتمام في مداواة جراحاته، أو التخفيف من وطأتها عليه.

٢ ـ لقد أظهر هذا النص أن كفاية الضرير واحدة من حوائجه تدفع عمن يفعل ذلك النفاق، وتؤمنه من عذاب النار، فدلَّنا ذلك: على أن لهذا السعي آثاراً وضعية عظيمة في مجال الاعتقاد والإيمان.. فتجاهل ذلك، وعدم السعي في حاجة المريض لا يكون إلا من سفيه، أو ممن ليس له قدم في الإيمان..

---

(١) عقاب الأعمال ص٣٤٠ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٦ ص٣٤٣ و ٣٤٤.

ح: عن الإمام الصادق «عليه السلام» وعن أبي الحسن «عليه السلام» بمعناه، قال: أيما مؤمن سأل أخاه المؤمن حاجة وهو يقدر على قضائها، فرده عنها، سلط الله عليه شجاعاً[١] في قبره ينهش من أصابعه[٢].

وفي الرواية عن أبي الحسن «عليه السلام»: سَلَّطَ اللهُ عَلَيْه شُجَاعاً مِنْ نَارٍ يَنْهَشُه فِي قَبْرِه إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَغْفُوراً لَه أَوْ مُعَذَّباً، فَإِنْ عَذَرَه الطَّالِبُ كَانَ أَسْوَأَ حَالًا[٣].

قال الحر العاملي: هـذا وأمثاله محمول على اضطرار صاحب الحاجـة، فتجب معونته[٤].

ولعله إنما كان أسوأ حالاً حين يعذره طالب الحاجة، لأنه سيتوهم أنه استطاع أن يخدع ذلك المؤمن، فينصرف عن التفكير في التوبة والاستغفار.. وربما دعاه ذلك إلى تكرار هذا الأمر مع مؤمن آخر من أصحاب الحاجات.

فإذا كان هذا حال من لا يستجيب لطلب الإعانة من مؤمن، لم يوفق للجهاد في سبيل الله، فكيف تكون حال من يماطل الجرحى من المجاهدين، ويسوِّف في قضاء حاجاتهم، ولا يستجيب لمساعدتهم.. مع أنهم إنما يطلبون

---

(١) الشجاع: الثعبان.

(٢) الأمالي للطوسي (ط دار الثقافة ـ قم) ص٦٦٥ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٦ ص٣٦٠.

(٣) الكافي ج٢ ص١٥٧ و ٢٧٣ ووسائل الشيعة (آل البيت) ج١٦ ص٣٦٠.

(٤) وسائل الشيعة (آل البيت) ج١٦ ص٣٦١.

حقاً جعله الله تعالى لهم في بيت مال المسلمين، وربما كان هذا الرجل قد وظَّف لخدمة هؤلاء الجرحى، وتيسير أمورهم، وخصصت له مبالغ مالية مقابل القيام بهذا الواجب، دون أن يخسر هو من جيبه درهماً واحداً..

فكيف يجيز لنفسه التهرب من الجرحى؟! وكيف جاز له إهمال مطالبهم، وعدم المبادرة إلى معالجة إصاباتهم، مع أن ذلك الإهمال قد يفاقم المشكلة، ويزيدها تعقيداً، ويزيد الهموم والغموم على ذلك الجريح، وعلى عائلته، وكل من يلوذ به.

وإنما نقول هذا على سبيل التحذير من التفكير بهذه الطريقة، وذلك على سبيل الافتراض كما تقدم، لا لأن أمراً من هذا القبيل قد حدث فعلاً.

ونقول هنا:

إن الأحاديث المروية عن النبي وأهل بيته «صلوات الله وسلامه عليه وعليهم» في قضاء حاجات المؤمنين، وما لذلك من آثار عند الله في الدنيا والآخرة، لا تكاد تحصى..

وفي كتاب وسائل الشيعة الجزء السادس عشر، الكثير الطيب من هذه الأحاديث، فلا بأس بمراجعتها، وهي قاطعة للعذر لمن تدبر وأنصف.

ط: لما جرح سعد بن معاذ، أمر النبي «صلى الله عليه وآله» أن يجعل في خيمة رفيدة التي كانت قد نصبتها في المسجد، لتعالج فيها المرضى، وتداوي الجرحى، حتى يعوده.. وكان «صلى الله عليه وآله» يعوده في الصباح والمساء(١).

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٣ ص٢٥٠ و (ط مكتبة محمد علي صبيح) ج٣ ص٧٢٠

وقد كانت جراح أمير المؤمنين «عليه السلام» يوم أحد تعد بالعشرات، وكانت في وجهه، ورأسه، وصدره، وبطنه، ويديه ورجليه تسعون جراحة(١).

وقد أخذ رسول الله «صلى الله عليه وآله» الماء على فمه، فرشه على الجراحات كلها، فكأنها لم تكن من وقتها(٢).

وعن علي «عليه السلام»: جرحت في وقعة خيبر خمساً وعشرين جراحة، فجئت إلى النبي «صلى الله عليه وآله»، فلما رأى ما بي بكى، وأخذ من دموع

والإصابة ج٤ ص٣٠٢ و ٣٠٣ و (ط دار الكتب العلمية) ج٨ ص١٣٦ عن ابن إسحاق، وعن البخاري في الأدب المفرد، وفي التاريخ بسند صحيح، وأورده المستغفري من طريق البخاري، ورواه أبو موسى من طريق المستغفري، والتراتيب الإدارية ج٢ ص١١٣ وج١ ص٤٦٢ و ٤٥٣ - ٤٥٤ عمن تقدم، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ج٤ ص٣١١ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج٨ ص٣٨٧ عن الإصابة.

(١) بحار الأنوار ج٢٠ ص٢٣ و ٥٤ و ٧٠ و ٧٨ وج٤١ ص٣ وج٤٠ ص١١٤ و ١١٥ وج٩ ص٥٠٨ و ٤٥٤ وج١٠٨ ص٢٧٩ وتفسير مجمع البيان ج٢ ص٥٠٩ ومستدرك سفينة البحار ج٢ ص٤٧ و ٤٨ وج٧ ص٥٧٣ وتفسير القمي ج١ ص١١٦ والخصال ج١ ص٣٦٨ وشجرة طوبى ج٢ ص٢٧٩ وعن الخرائج والجرائح.

(٢) الخرائج والجرائح ج١ ص١٤٨ وبحار الأنوار ج٢٠ ص٧٨ ومستدرك سفينة البحار ج٢ ص٤٧.

عينيه، فجعلها على الجراحات، فاسترحت من ساعتي(١).

وعنه «عليه السلام» قال: «أيها الناس، من كانت به جراحة فليداوها بالسمن»(٢).

وهذا إن دل على شيء، فهو يدل على:

١ ـ ما للجريح المجاهد من قيمة لدى رسول الله «صلى الله عليه وآله».

٢ ـ ويدل أيضاً على مكانة سعد بن معاذ لديه «صلى الله عليه وآله».. حتى كان يعوده مرتين في كل يوم.

٣ ـ ويدل بكاؤه «صلى الله عليه وآله» حين رأى ما يعانيه علي «عليه السلام» من ألم الجراح، على أن نفسه الشريفة «صلى الله عليه وآله» كانت زاخرة بالعاطفة الصادقة، والمشاعر النبيلة، وعلى أن قسوته وحزمه إنما هو في مقابل المعتدين من شذاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب.

٤ ـ إننا وإن لم نجد نصاً صريحاً يبين لنا برامج زيارته للجرحى، ولكننا نحسب: أن هذا الذي فعله مع سعد بن معاذ، وعلي «عليه السلام» هو المنهج والقاعدة التي كان يعتمدها «صلى الله عليه وآله» فيما يرتبط باهتمامه وزياراته للجرحى.. ولاسيما أهل الفضل منهم

٥ ـ إن علينا نحن أيضاً: أن نقتدي به «صلى الله عليه وآله»، وأن نواظب

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة ص٥٤٢ وبحار الأنوار ج٥١ ص٢٢٨ ومستدرك سفينة البحار ج٢ ص٤٨ وإلزام الناصب ج١ ص٢٧٠.

(٢) بحار الأنوار ج٣٢ ص٢٢٢.

على زيـارة جرحى المجاهدين، ولا نهملهم، كما ربما يحـدث لنا مـع الكثيرين منهم.. ولاسيما مع تقادم العهد على جراحاتهم.

٦ ـ إنه «صلى الله عليه وآله» قـد تصدى بنفسه لمداواة جـراح بعض أصحابه.. وهذا يدل على مزيد من الكرامة لهم، والاهتمام بهم.

٧ـ إن ما قاله علي «عليه السلام» لأصحابه الجرحى، حيث علمهم كيفية مداواة جراحهم، يدل على أن على القائد أن يكون بصيراً، حتى في هذا الأمر.

٨ ـ إن مداواته «صلى الله عليه وآله» جراح علي «عليه السلام» بما فاض من دموع عينيه «صلى الله عليه وآله»، لهو دليل على جواز التداوي والتبرك بريق النبي وبدموعه، وكل ما يؤخذ منه ولو من شعره وثوبه، فإن ما فيه من بركات، وفوائد، وعوائد تجعل منها وسيلة لاستنزال الرحمات، والحصول على المزيد من العطاءات والهبات، وعلى ما هو أعظم من شفاء الجراح بالدموع، أو بجعله الماء في فمه ثم رشه على الجرح، فيشفيه تعالى.

ي: وقال «عليه السلام» في عهده للأشتر: «ثُمَّ اَللهَ اَللهَ فِي اَلطَّبَقَةِ اَلسُّفْلَى، مِنَ اَلَّذِينَ لاَ حِيلَةَ لَهُمْ مِنَ اَلْمَسَاكِينِ، وَاَلْمُحْتَاجِينَ، وَأَهْلِ اَلْبُؤْسَى، وَاَلزَّمْنَى، فَإِنَّ فِي هَذِهِ اَلطَّبَقَةِ قَانِعاً وَمُعْتَرّاً.

وَاِحْفَظِ لله مَا اِسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ، وَاِجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مَالِكِ، وَقِسْماً مِنْ غَلاَّتِ صَوَافِي اَلْإِسْلاَمِ فِي كُلِّ بَلَدٍ.. فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ اَلَّذِي لِلْأَدْنَى..

إلى أن قال: فَلاَ تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ، وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ.. وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لاَ يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ، مِمَّنْ تَقْتَحِمُهُ اَلْعُيُونُ، وَتَحْقِرُهُ اَلرِّجَالُ، فَفَرِّغْ لِأُولَئِكَ

ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ اَلْخَشْيَةِ وَاَلتَّوَاضُعِ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ..

إلى أن قال: فَإِنَّ هَؤُلاَءِ مِنْ بَيْنِ اَلرَّعِيَّةِ أَحْوَجُ إِلَى اَلْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ»(١).

وقد ورد عن أهل بيت العصمة «عليهم السلام» النهي عن إدامة النظر إلى أهل البلاء، فإن ذلك يحزنهم(٢).

ونلاحظ ما يلي:

تضمن النص المتقدم أموراً كثيرة، نقتصر على ذكر بعضها هنا، وهي التالية:

١ ـ إن في جرحى الحرب من لا حيلة له، وفيهم المسكين والمحتاج، وأهل البؤسى، والمعاق، فإذا كان «عليه السلام» يُلزم عامله بحفظ حق من كان كذلك، وهم ليسوا من المجاهدين، بل لعل فيهم من لا يراعي الأحكام بأمانة ودقة، فلماذا لا تكون أوامره هذه في حق من بذل نفسه، ودمه، في ذات الله، حتى أصيب، آكد، وأولى بالإعتماد والإهتمام؟!

٢ ـ إنه «عليه السلام» يقرر أن هذا الذي يأمر به عامله فيما يرتبط بهذه الأصناف هو حق لهم، مما يعني أنه ليس لأحد أن يمتن به عليهم..

٣ ـ إنه «عليه السلام» قد حدد مصادر تمويل هذه الطبقة من الناس، بمصدرين:

---

(١) راجع: نهج البلاغة (عهد الأشتر) الكتاب رقم ٥٣ وبحار الأنوار ج٧٤ ص٢٥٩ و ٢٦٠ وتحف العقول ص١٢٦.

(٢) مشكاة الأنوار ص٢٨ وبحار الأنوار ج٧٥ ص١٦ وطب الأئمة ص١٠٦ وقصار الجمل ج١ ص١٤٦.

الأول: غلات صوافي الإسلام.

الثاني: بيت مال المسلمين.

وصوافي الإسلام، هي تلك التي تخصص للأمراء، الذين يحتاجون إلى صرفها في مصالح المسلمين، وحل مشكلاتهم، وإدارة شؤونهم.

وقد يراد بها: كل ما لم يوجف عليه بخيل، ولا ركاب.. فيكون خالصاً للمعصوم.

٤ ـ إنه «عليه السلام» قد قرر: أن هذه الأموال لا تحجز لتصرف في البلد الذي تكون فيه، بل تصرف في جميع بلاد الإسلام، وللأقصى حق فيها كما للأدنى.

٥ ـ إنه «عليه السلام» يأمر واليه بأن يديم اهتمامه بهذه الطبقة، ولا يصرف وجهه عنها.

٦ ـ إن ضعف هذه الطبقة وعجزها لا يجيز للوالي أن يصعر خده لهم، فيفخر بقوته، ويعتز بها، ويجعل ذلك ذريعة للتكبر والتعالي عليهم.

٧ ـ إنه «عليه السلام» أمر عامله: بأن يتفقد أضعف أفراد هذه الطبقة، وهم الذين لا يصلون إليه منهم، ممن يحتقرهم الناس، ويحاولون إبعادهم عن المحيط الذي يتحرك فيه الحاكم.

٨ ـ إنه أمره أن ينتدب أحد ثقاته ليتولى متابعة قضايا، وحاجات هؤلاء الناس، ليرفعها إلى ذلك الوالي.

٩ ـ إن هذا الانتداب لا يعفي الوالي من مسؤوليته، عن متابعة قضايا هؤلاء.

١٠ ـ إنه «عليه السلام» قد حدد صفتين لذلك المنتدب لهذه المهمة، وهما الصفتان اللصيقتان بواقع هؤلاء الناس، ولهما شبه بحالتهم، وهاتان الصفتان

هما: الخشية والتواضع..

فالذي يخشى الله تعالى: هو الذي يهتم بشؤون هذه الطبقة من الناس.

والرجل المتواضع: هو الذي يمكن لهؤلاء الناس أن يتعاملوا معه من موقع الثقة، وهو الذي ينسجمون معه، ويطمئنون إليه.

١١ ـ إنه إذا بلغ الناس حداً في مراعات مشاعر الآخرين، يجعلهم لا يديمون النظر إلى أصحاب العاهات، فإن البشرية حينئذ ستكون بخير، حيث يتوقع منها أن تهتم بالتخفيف من آلام كل مريض، أو جريح، ومن عذابات أهل البؤسى، والزمنى، وغير ذلك..

ك: عن أبي عبد الله الصادق «عليه السلام» قال: كان المسيح «عليه السلام» يقول: إن التارك شفاء المجروح من جرحه شريك جارحه لا محالة، وذلك أن الجارح أراد فساد المجروح، والتارك لإشفائه لم يشأ صلاحه، فإذا لم يشأ صلاحه، فقد شاء فساده اضطراراً(١).

ويلاحظ:

١ ـ أن ما نقله الإمام الصادق «عليه السلام» عن عيسى «عليه السلام» يشير إلى أنه لا مشكلة في المضامين التي جاءت في هذا النص، ويؤكد صحة صدور هذا الكلام عن عيسى «عليه السلام».

٢ ـ إن هذا النص يدل على ضرورة معالجة الجرحى، وعدم جواز إهمالهم.

---

(١) الكافي ج٨ ص٣٤٥ والفصول المهمة ص٤٠٢ ووسائل الشيعة (ط الإسلامية) ج٢ ص٦٢٩ وج١١ ص٤٠١.

٣ ـ إن وجوب معالجة الجرحى لا يختص بالمؤسسة المعنية بشؤونهم، بل يشمل كل قادر على ذلك.

٤ ـ إن هذا النص يرتب مسؤولية لعلها تصل إلى حد استحقاق العقوبة لو حصل التهاون في شفاء جرح الجريح، سواء من المؤسسة المسؤولة عن الجريح، أو من أي إنسان آخر، ولو كان عابر سبيل.

٥ ـ إن هـذا النص، إنما يتحدث عـن جريح لم يفقد الأمل بإمكانية تخفيف معاناته من جراحه.

٦ ـ إن هذا النص، يشير إلى أن اللوازم الظاهرة للخطاب، لا تقصر في حجيتها وإلزامها عن الخطاب بالملزوم.. وهذا إنما يكون في اللوازم التي يكون لزومها بيِّناً بالمعنى الأخص.

ل: عن أمير المؤمنين «عليه السلام»: «من كنت سبباً في بلائه، وجب عليك التلطف في علاج دائه»(١).

ويلاحظ:

١ ـ أنه إذا كانت المماطلة في مداوة الجريح ستؤدي إلى تفاقم مشكلته، فإن من يماطل يصير هو المسؤول عن علاج ذلك الجريح، وربما كان هو المطالب حتى بتكاليف العلاج، ما دام أن العلاج واجب عليه، كما دل عليه هذا الحديث، والحديث السابق عن عيسى بن مريم «عليهما السلام».

---

(١) غرر الحكم للآمدي (مطبوع مع الترجمة الفارسية) ج٢ ص٧١٨ وميزان الحكمة ج١ ص٥٠٠ عنه.

٢ ـ لعل المراد بالتلطف في علاج الداء: التماس السبل إلى هذا العلاج، ولو احتاج ذلك إلى الأسفار، وبذل المزيد من الجهد، وبذل الأموال، فإن حياة المؤمن وصحته وسلامته أغلى عند الله من الأموال.. فكيف إذا كان الإهمال قد تسبب باستحكام المرض، وتعسر شفائه؟!

م: وحين أراد النبي «صلى الله عليه وآله»: أن يختار طبيباً لعلاج بعض من جرح من أصحابه، اختار «صلى الله عليه وآله» أطبَّ الرجلين اللذين دعيا لهذا الغرض[1].

ونقول:

١ ـ دل هذا النص: على أن المطلوب ليس مجرد العلاج، لإسقاط الواجب.. بل الواجب هو العلاج الصحيح، وبالنحو الأمثل والأفضل.. لأن الطبيب الحاذق والأعلم بالطب هو الذي يحتمل أن يعيد الأمر إلى سابق عهده أو يكاد.. فإن الجريح حين جرح كان على حال، وقد اختلت حاله هذه بسبب الجراحة.. فيفترض إزالة هذا النقص العارض بصورة تامة.. ولعل الأقل علماً بالطب لا يحسن ذلك..

وهذا نظير من احتاج إلى أن يخاط جرحه، فإن هناك من يخيط الجرح، ولا يراعي الناحية الجمالية، فتبقى آثاره وتشوهاته ظاهرة. وهناك من يهتم بأن لا تظهر للجرح أية آثار.. فيجب اعتماد هذا الخيار الأخير.

---

(١) الموطأ (المطبوع مع تنوير الحوالك) ج٣ ص١٢١ وزاد المعاد ج٣ ص١٠٧ والطب النبوي لابن القيم ص١٠٥.

٢ ـ إن هـذا يدل على أنه لو احتاج الجرح إلى تجشم الأسفار ليعالجه الحُذَّاق من الأطباء، فلا بد من تيسـير هـذه الأسـفار للحصول على هـذه المعالجات الراقية.

ن: روي: أن أمير المؤمنين «عليه السلام»، قطع أيدي سُرَّاق، ثم قال: «يا قنبر، ضمهم إليك، فداو كلومهم، وأحسن القيام عليهم»، وبعد أن برئت كلومهم، كساهم ثوبين ثوبين، وخلى سبيلهم، وأعطى كل واحد منهم ما يكفيه إلى بلده.

وزاد في نص آخر: أنه أمرهم أن يدخلوا دار الضيافة، وأمر بأيديهم أن تعالج، فأطعمهم السمن، والعسل، واللحم حتى برئوا»(١).

ونقول لا بأس بالنظر إلى ما يلي:

١ ـ إذا كان الإرفاق بالسراق الذين يعتدون على أموال الناس، يصل إلى هذا الحد، فيداوي «عليه السلام» جراحتهم، ويأمر بحسن القيام عليهم، وينزلهم دار الضيافة، إلى آخر ما تقدم، فما بالك بمن يُجرح وهو يجاهد في سبيل الله، ويبذل نفسه في مرضاة الله؟!

٢ ـ إنه «عليه السلام»: أمر قنبراً مولاه بأن يحسن القيام على أولئك

---

(١) تهذيب الأحكام للطوسي ج١٠ ص١٢٥ ـ ١٢٧ حديث رقم: ١١٨ و ١١٩ و ١٢٦ والكافي ج٧ ص٢٦٤ و ٢٨٦ ووسائل الشيعة (ط الإسلامية) ج١٨ ص٥٢٨ و ٥٢٩ عنهما، ومستدرك الوسائل (ط حجرية) ج٣ ص٢٣٩ عن دعائم الإسلام.

السارقين، فيداويهم، ويلبي حاجاتهم، ولا يكلفهم ما يثقل عليهم، وما يضيقون به ذرعاً.

فهل يرضى بإهمال جرحى المجاهدين، الذين يحامون عن دينهم، وعن عرضهم، وأموالهم؟! وهل يمكن أن يكون الجريح أدنى، وأقل مقاماً من السارق المعتدي، وهو المجاهد المتقي؟!

٣ ـ إن برء الجراح لا يعني انتهاء المسؤولية، وانقطاع الصلة بين الجريح، وبين المتكفلين به، بدليل أنه «عليه السلام» بعد أن برئت كلوم أولئك السارقين، كساهم ثوبين ثوبين، وأعطاهم من المال ما يبلغهم إلى ديارهم.

فهل يجوز أن يعامل الجريح بأقل مما يعامل به السارق؟! وهل يجوز قطع أرزاقهم، ولا سيما حين يصبحون معاقين، بسبب تلك الجراح، ولا يجدون لقمة العيش لأنفسهم وعيالهم؟!

٤ ـ إنه «عليه السلام» قد أعطى أولئك السارقين الذين أمر الله بقطع أيديهم، أعطى كل واحد منهم ما يكفيه إلى بلده..

فهل يمكن أن يبخل على الجريح المجاهد، فلا يعطيه، ولا يأمر باعطائه ما يبلغه إلى مأمنه في العيش وفي السكنى.. وفي سائر الحاجات؟!

وهل يرضى بتضييعه، وتركه لرياح الشماتة، أو للإغراءات التي تبعده عن مواقع الرضا الإلهي؟! وإلا فما عليه إلا أن يتحمل الهوان والذل، من أجل الحصول على قوته، وقوت عائلته، مع أن الله تعالى يريده قوياً عزيزاً مكرماً.

٥ ـ إن إدخال سارقين دار الضيافة أريد به جبر الكسر المعنوي، وإعادة الاعتبار لهم، بعد هذه النكسة التي جلبوها هم لأنفسهم.

فهل الـذي لم يمارس الطاعة لله، والكون في مواقـع رضاه، وقد سخا بأعز ما لديه، لا يستحق التكريم والتعظيم والعـون على جـبر النقص الذي جناه عليه أعداء الله ورسوله، وأعداء دينه؟!

٦ ـ إنه «عليه السلام» قد أطعم السارقين السمن، والعسل، واللحم، حتى برئوا..

فهل لا يستحق هذا المجاهد شيئاً من ذلك؟!

ولماذا لا يعامل وهو المجاهد التقي ولو بمثل ما يعامل به السارق المعتدي؟!

وكل ذلك نورده على سبيل الافتراض، بهدف التحرز من هذه الوساوس والتسويلات الشيطانية..

والحمد لله، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، محمد وآله الطاهرين.

كلمة أخيرة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين..

وبعد.. فقد كانت تلك باقة جمعت أزهاراً، هي قليل من كثير، مما حوته رياض الإسلام الغنَّاء، أحببنا أن نضعها بين يدي القراء الكرام الذين يهتمون بمسائل الحرب والقتال. ليسرحوا بها أنظارهم، وتنتعش بأريجها أرواحهم، وتبتهج بجمال تكوينها، وحسن تناسقها نفوسهم، لأنها اختيارات من خمائل أهل بيت العصمة، «صلوات الله عليهم أجمعين».

ونأمل ـ إن فسح الله بأجلنا ـ أن نُتْبع هذه المجموعة بمثلها، أو بأمثالها، ملتمسين من الإخوة الأعزاء: أن يتحفونا بما يجيش في خواطرهم، من تفنيد أو تأييد، أو تخطئة، أو تسديد، ولهم منا خالص الشكر، ومن الله الثواب والأجر.. وهو ولينا والهادي إلى سبيل الرشاد..

حرر بتاريخ ٦ / ١١/ ١٤٣٧ هـ.ق.

١٠/ ٨/ ٢٠١٦ م.ش.

لبنان ـ جبل عامل ـ قضاء بنت جبيل ـ عيتا الجبل (عيثا الزط)

جعفر مرتضى العاملي

الفهرس

كتب مطبوعة للمؤلف

١ ـ الآداب الطبية في الإسلام

٢ ـ ابن عباس وأموال البصرة

٣ ـ ابن عربي سنيّ متعصب

٤ ـ أبو ذر لا إشتراكية.. ولا مزدكية

٥ ـ أحيـوا أمـرنا

٦ ـ إدارة الحرمين الشريفين في القرآن الكريم

٧ ـ إسرائيل.. في آيات سورة بني إسرائيل.. تفسير ثمان آيات..

٨ ـ الإسلام ومبدأ المقابلة بالمثل

٩ ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (صدر منه جزء واحد)

١٠ ـ أفلا تذكرون «حوارات في الدين والعقيدة»

١١ ـ أكذوبتان حول الشريف الرضي

١٢ ـ الإمام علي والنبي يوشع عليهما السلام

١٣ ـ أهل البيت عليهم السلام في آية التطهير

١٤ ـ أين الإنجيل؟!

١٥ ـ بحث حول الشفاعة

١٦ ـ براءة آدم عليه السلام حقيقة قرآنية

١٧ ـ البنات ربائب.. قل: هاتوا برهانكم

١٨ ـ بنات النبي صلى الله عليه وآله أم ربائبه؟!

١٩ ـ بيان الأئمة وخطبة البيان في الميزان
٢٠ ـ تحقيقي در باره تاريخ هجري
٢١ ـ تخطيط المدن في الإسلام
٢٢ ـ تفسير سورة ألم نشرح
٢٣ ـ تفسير سورة التكاثر
٢٤ ـ تفسير سورة التوحيد (الإخلاص)
٢٥ ـ تفسير سورة التين
٢٦ ـ تفسير سورة الضحى
٢٧ ـ تفسير سورة العاديات
٢٨ ـ تفسير سورة الفاتحة
٢٩ ـ تفسير سورة الفلق
٣٠ ـ تفسير سورة الكافرون
٣١ ـ تفسير سورة الكوثر
٣٢ ـ تفسير سورة الماعون
٣٣ ـ تفسير سورة المسد
٣٤ ـ تفسير سورة الناس
٣٥ ـ تفسير سورة النصر
٣٦ ـ تفسير سورة هل أتى (جزءان)
٣٧ ـ توضيح الواضحات من أشكل المشكلات
٣٨ ـ الحاخام المهزوم
٣٩ ـ حديث الإفـك

٦١ ـ الشهادة الثالثة في الأذان والإقامة

٦٢ ـ الصحيح من سيرة الإمام علي عليه السلام (ثلاثة وخمسون جزءاً)

٦٣ ـ الصحيح من سيرة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله (خمسة وثلاثون جزءاً)

٦٤ ـ صراع الحرية في عصر الشيخ المفيد

٦٥ ـ طريق الحق (حوار مع عالم جليل من أهل السنة والجماعة)

٦٦ ـ ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!

٦٧ ـ ظلامة أبي طالب عليه السلام

٦٨ ـ ظلامة أم كلثوم

٦٩ ـ عاشوراء بين الصلح الحسني والكيد السفياني

٧٠ ـ عصمة الملائكة بين فطرس.. وهاروت وماروت

٧١ ـ علي عليه السلام والخوارج (جزءان)

٧٢ ـ الغدير والمعارضون

٧٣ ـ فصل الخطاب في الميزان

٧٤ ـ القول الصائب في إثبات الربائب

٧٥ ـ كربلاء فوق الشبهات

٧٦ ـ لست بفوق أن أخطىء من كلام علي عليه السلام

٧٧ ـ لماذا كتاب مأساة الزهراء عليها السلام ؟!

٧٨ ـ ماذا عن الجزيرة الخضراء ومثلث برمودا؟!

٧٩ ـ مأساة الزهراء عليها السلام (جزءان)

٨٠ ـ مختصر مفيد (أسئلة وأجوبة في الدين والعقيدة)، (ثمانية عشر جزءاً).

٨١ ـ مراسم عاشوراء «شبهات وردود»

قيد الإعداد

١ ـ الإعتماد في مسائل التقليد والإجتهاد (الجزء الثاني)
٢ ـ مختصر مفيد (المجموعة التاسعة عشر)
٣ ـ عهد الأشتر مضامين ودلالات